الخلاص

تأليف

د. خليل حسن خليل

مكتبة مدبولى

١٩٩٦م

الطبعة الأولى
يناير
١٩٩٦م

مكتبة مدبولى
٦ ميدان طلعت حرب
ت: ٥٧٥٢٨٥٤

كانوا مجموعة غريبة. وجدوا انفسهم فى مكان حالك. يحوط به حراس غلاظ شداد. جمعهم سلطان، فيه ذكاء واقتدار وغدر. جاءوا من كل مذهب وطبقة ودين. اختارهم من اليمين واليسار والوسط. الطبقات كلها هنا: العمال والفلاحون والمثقفون والباشوات، قدامى وجدد. النساء سافرات ومحجبات ومنقبات.

ضمهم معتقل السلطان. كان بينهم تنافر شديد. يجتمعون معا لاول مرة راغمين. كأن السجن يجمع الناس، وربما يوحدهم، على عكس ما تفعل الحرية.

لكن السلطان المقتدر، وزع هذه المجموعة بين الزنازين توزيعا مبتكرا. وضع الباشا مع الفلاح، والشيوعى مع التكفيرى، والماركسى مع الرأسمالى. لا يريد المعتقل قاتلا للحرية فحسب. ولكن يريده سعيرا من الخصومات والمشاحنات.

اذا كان هؤلاء جميعا خصوما للسلطان، ما هو لونه؟ لعله ينتمى الى اليمين. كون وأهله ثروات طائلة، ابان الحكم. لكنه كان يمينا «خاصا» متميزا، جعله يبطش بفرق اليمين الاخرى. اعتقد بعضهم انه يمكنهم الخروج عن الطاعه. جيء بهم ليحضروا دورة فى «التأديب والتهذيب والاصلاح».

لم تخضع هذه المجموعة للتعذيب المألوف فى المعتقلات. التعذيب مقصور على الشيوعيين والاسلاميين. ليس من المقبول عزلهم وتعذيبهم. الفلسفة هى أن يختلط المتنافرون، ليهلك

ليهلك بعضهم بعضا. نوع جديد عبقرى من التعذيب.

لكن التعذيب الجسدى، الذى حرم المعتقلون منه، حرمهم من الآمه، التى توحد بينهم. على ان حياة السجن ذاتها، امدتهم بالم جمع بين قلوبهم: الطعام المقزز، الارضية البلاط «والابراش»، قسوة الحراس، ظلمة الزنازين، الحرية المسفوكة

شهاب الدين باشا، زعيم حزب يعتبر امتدادا لحزب كبير. كانت له شعبية بين جماهير مصر. تجاوز السبعين. اسرته تملك الاف الافدنة، كان ضخم الجسد، شحيما لحيما: سمة قديمة من سمات الاعيان وكبار الملاك. وزع الاصلاح الزراعى جزءا كبيرا من اراضى أسرته على الفلاحين. احدث ذلك جرحا غائرا فى اعماقه. كون الحزب الجديد فى عهد السلطان. عارض حكمه،لانه خليفة الزعيم، الذى صادر املاكه. كانت معارضة غير مفهومة. لقد الغى السلطان الاصلاحات الاجتماعية التى اتخذها الزعيم السابق واعاد الرأسمالية فى انفتاح متسيب واصبح تراكم الثروات الحلال والحرام متاحا دون قيد.

وضع الباشا فى زنزانة واحدة مع فلاح شاب فارع، عريض الاكتاف، مبروم الشوارب. لمحه الباشا، وهما يدخلان الزنزانة فى غبشه الغسق. تبادر الى ذهنه على الفور ان السلطان يريد اغتياله. هذه طريقة مبتكرة للاغتيال. ذعر ذعرا شديدا. انزوى فى ركن من الزنزانة الدامسة. يتوقع من زميله الهجوم عليه

مرت دقائق مبهظة. الخوف يعربد فى اوصاله. أعصابه يركب بعضها بعضا.يتبعثر منه العقل والسمع والفؤاد «اننى لا ارى وجهه، لا اعرف فى اى ركن يقبع، لماذا لا يتكلم أو يصرخ او يزار فيبدد الصمت والظلام والخوف هل اصرخ، ليأتى الحراس وينقذونى؟ يا اللعار. الباشا «المجاهد الاكبر» يصرخ بعد مضى ساعة واحدة من اعتقاله. ماذا تقول الامة؟ لقد نصبتنا حكاما عليها ردحا من الزمان.

كتم الصرخة: «لن اتكلم. فليتكلم الفلاح، الست سيده وأهله، فى «الوسية»؟ عجبا انهم يقولون ان الزنزانات الانفرادية هى أقسى انواع التعذيب. لكن هذه الزنزانة المزدوجة جحيم لايطاق.

لم ينبس الفلاح بعد. ما الهاجسات التى تدور فى خاطره؟ إنه لا يتوقع من الباشا ان يقتله. الفلاحون يخشون الباشوات خارج السجون، لاداخلها. فكم قتلوا من ابائهم واجدادهم. ومازالت عملية القتل تستل من عروقهم ماء الحياة، قطرة قطرة. يبدو ان الفلاح أكثر طمأنينه من رفيقه - لكن لعله ظلم. السلطان يضعه مع الباشا فى زنزانة واحدة - لو كانت المسألة ايديولوجيات وافكارا متعارضة، لهان الامر. لكن الباشوات يربضون على صدورهم حتى فى الزنازين، فلا يملكون التنفس، لا فى دنيا السجن، ولا فى دنيا الحرية.

لكن الشاب يحس بحاجته للحديث، فهو انسان اجتماعى، لا

يستطيع العيش دون الكلام مع اخيه الإنسان. «إنما هذا الرجل الذى يشاركنى هذا القفص باشا متعال. اتى من طبقة تعلو ظهر المجتمع كيف احادث شخصاً، قهر الجماهير؟ أودع الثوار المعتقلات نفسها التى تستضيفه الان. هذا اللحم، الذى يكتنز به جسده مسروق من لحم الجماهير، لم يترك لها شحما يدفئها ولا لحما يفصل بين جلودها والعظام.

الباشا يتمادى فى تعاليه، الفلاح اصابته هو الآخر نعرة، أصر على ان الباشا هو الذى يجب ان يبدأ. هؤلاء القوم يتعالون علينا، حتى وهم فى ازمة، لابد أن اكسر هذا التعالى، لعل الشاب فطن إلى أن الرجل الثرى اصبح فقيراً من حيث الزمن، لقد طعن فى السن لم يبق لديه من الزمان الا قليلا. اذن فهو فى موقف اضعف، سوف تكسر أنفه، ويرغم على بدء الحديث..

على ان الهاجسة الأخيرة ايقظت فى الشاب قوى خيرة. كيف اقسو على هذا المخلوق العجوز؟ التخمة، ولو انه جمعها من بطون الجوعى الا إنها سبب من اسباب مرضه، الرجل انسان مسن مريض انا لا اعترك معه شخصيا. نحن نقاتل طبقة مترفة متعطلة استنزفت كدحنا، وتركت لنا التخلف والهوان. واخذ الشاب يحادث زميل الزنزانة، كان صوته ـ أحلى صوت سمعه الباشا فى حياته، لم يعد صوت الفلاح فجا خشنا،

يجرح سمعه، كما يجرحه صوت الفلاحين فى عزبته، لكنه نغم شجى يؤنس وحدته.

نسى الفلاح الظلم الذى يعانيه أهله فى وسايا الباشوات، لم يعد يرى امامه إلا إنسانا شيخاً مقهورا. انتزع من عز القصور والقى به فى غياهب الزنازين. رق له قلبه، تلاحمت روحه مع روحه - التلاحم الإنسانى، الذى تصهره الشدائد والمحن، جعل من نفسه للباشا نديما، قص عليه قصصا نقلته بعيداً عن جو السجن وعذاباته. الباشا سياسى وزعيم وطنى، ضرب الفلاح له على كل هذه الأوتار، استراح الباشا لتلك النغمات، سهر الشاب على راحته - ينظف برشه ويحمل له الشاى والطعام.

مضت الحياة فى الزنزانة المشتركة على هذه الوتيرة - الباشا سعيد بزميله - الفلاح يخلص فى خدمته. اخذ شهاب باشا، يفكر فى مكافأة الفلاح دياب، إنه يخفف عنه قهر الزنزانة والسلطان، ويحادثه فيشعره بإنه مازال حيا.

حينما استقر الباشا على مكافأة دياب، اخذ يسترخى، ويسلك مسلكاً باشويا من جديد، الفلاح يخدمه، وسوف يكافئه، انتهت القضية. كان الشاب يتوقع من سلوكه مع الباشا أنهما سيتأخيان، ستذوب الفوارق بين الطبقات، وإن المحنة ستطهره، وتحلق بروحه نحو مجتمع افضل، يختفى فيه السادة والخدم، على العكس اصبح الرجل الثرى لايشكر الفلاح على ما يقدمه

الفلاح على ما يقدمه له من خدمات يأخذها قضية مسلمة، بان من سلوكه أن الفوارق بين الطبقات لايمكن أن تذوب.

كان رد الفعل لدى الفلاح سيئا للغاية. كان يحاول تجربة رومانسية، وضع أمله خلالها فى الروح الشفافة للإنسان تخيلها تعلو فوق الطبقات، لكن خاب امله. امتزجت خيبة الأمل بتقزز شديد لهذا الجحود.

انكشف المستور، حينما اسفر الباشا عن هويته:

- يا دياب سوف اعينك خولى بوسيتى، بعد أن تغادر السجن.

استيقظ أبو زيد من الهاجسة الرومانسية التى تخايلت له، لقد وجد الرجل حلا جذريا لانقاذ الكادحين من الاستغلال، سيوظفنى فى وسيته، ذلك هو الحل لقضية المجتمع. لا بد من ايقاظ هذا الرجل. سوف أعامله بانسانية اقل. عنيت به، لكى أوصل له معنى الأخوة بين الإنسان والإنسان، فسر سلوكى معه، وكأنه سلوك الخدم يتطلعون إلى أن يكافئهم السادة على جهودهم، مازلنا إذن فى مجتمع السادة والعبيد، الأدهى من ذلك، أن الرجل يريد أن يستمتع بمزايا طبقته وهو سجين.

اختزن هذه الخواطر داخله ولم يرد عليه، اعتقد الباشا ان دياب قد رضى بالمكافأة الموعودة طلب منه:

- ناولنى الشبشب

رد عليه دياب ردا هادئا غير متوقع:

ـ قوم هاته

ارتفع حاجبا شهاب باشا السميكان دهشة. فتح فمه وجمع شجاعته قائلا.

ـ كيف تقول هذا الكلام؟

مازال دياب يحاول الهدوء:

ـ قلته

ـ ألم أقل لك أننى سأكافئك

لم يستطيع دياب أن يواصل هدوءه:

ـ يمكنك أن تكافئ خدمك وفلاحيك فى قصرك ووسيتك. لكنك هنا سجين. وأنا كذلك. حقا ، إن السلطان ساوى بينى وبينك، ولكن شتان، أنا أمثل كثرة الشعب الذى أسهمت أنت والسلطان فى قهره، هذا الموقع موقعى، أنا السيد فيه، وأنت التابع. تعاطفت معك، راجيا ان تتآخى معى. لكنك عدت إلى ضلالك القديم. فنحن منذ الأن خصمان.

رد الباشا بصوت خفيض هادئ

ـ حسبتك ستفرح بالعرض الذى قدمته لك.

وعقب دياب:

- إن فرحنا أكبر من ذلك بكثير.

لم يدرك الباشا مغزى التغير فى سلوك الفلاح. كان معه شهما ودوداً، لماذا أنقلب بعد أن عرض عليه المكافأة؟ مازال شهاب فى حاجة لمعاونة هذا الفلاح، لا مناص له من رفقته، الأمر إذن يتطلب حصافه - ليترك المناقشة حتى تهدأ الأمور، لعل الشاب يعود إلى سيرته الأولى.

لم تكن هذه الجرعة من المعاملة الجافة هى كل ما اخفاه دياب فى جعبته - كانت هناك معاملة أشد وطئا قرر أن يقاطعه ولا يحادثه. لكن شهاب باشا مازالت العنجهية تركبه. توقع ان الفلاح سيثوب إلى رشده. ويحادثه - لم يفعل - الباشا يخوض مرة اخرى، معركة داخلية، هذا الفلاح، الذى أطعم مئات مثله واسقيهم، يتعالى على ولا يكلمنى؟ مستحيل أن أنزل إليه - إن خضعت له سيقول للناس أن الباشا ركع عند قدميه ليحادثه، الفلاح جبار لو تحرر سيطغى.

عاودته الهواجس القديمة: هذا الفلاح سيقتله، عندما يدلهم الظلام، صوت تنفسه يرهبه، أية حركة فى الزنزانة تمزق أعصابه. أزمته تبلغ ذراها. عجباً مشاعره تسترخى، تذكر المعاملة الطيبة التى اغدقها الشاب عليه أول الأمر، ماذا دهاه؟ وعدته بمكافأة. والمكافأة خير لا شر، إنه فلاح غريب، كان لدينا فى حزبنا ومزارعنا فلاحون، ليسوا من هذا الطراز، يفرحون

بالكافآت، ما بال هذا الفلاح مختلفاً؟ لعله من الفلاحين الثائرين الذين يحملون وعيا جديداً، وإلا ما جاء به السلطان إلى هنا، في كلماته نغمة إشتراكية. لكنه لم يفصح عن الفريق الذى ينتمى إليه تناثرت منه أفكار عن ملكية الشعب للأراضى والمصانع، أفكار كنا نحرمها ونحن فى الحكم، ونلقى بمن يعتنقها فى غيابات السجن، الذى يشرفه الآن.

لا شأن لى بأفكاره، حتى لو كانت ضدى، وضد طبقتى، ماذا أفدت من الاف الأفدنة التى كنت أملكها؟ ما قيمة خزائن المال التى أمسك بمفاتيحها؟ ها أنذا «مرمى» فى هذا القفص المظلم شأنى شأن هذا الفلاح، كل ما أريده أن يتحدث إلىّ.

هدهدت هذه الخواطر أعصابه، امتدت به إلى جوف الليل. دياب منزو فى ركن الزنزانة، قرر أن يكسر غطرسة الباشا، خبأ فى مكان سحيق من نفسه المعانى النبيلة التى دفعته ليؤنس إنسانا شيخاً مريضا. لم يستطع الباشا أن يمضى فى عنادة لا بد أن أكلمه أنا، أنا هالك لا محالة، إذا لم أقطع هذا الصمت الدامس:

- يا أخ دياب

كان دياب أيضاً قد مزقته ظلمة الزنزانة لم يستطع أن ينام، حرم من النضال فى سبيل الثورة، يزامل إنساناً من طبقة، يصطرع هو وزملاؤه معها. ثم هذا التنكر لصنيعة. ما إن سمع الباشا يناديه حتى أنتشى، لكنه كبت فرحته، رد عليه بتكاسل:

ـ نعم:

ـ هل نمت؟

ـ «شويه»

ـ هل يمكن أن أحادثك؟

ـ تفضل

ـ أنا أسف إذا كان سلوكى لا يليق بصنيعك الكريم معى

إنتاب الشاب شعور صديق، هزته تلك العبارة. جعلته يتعاطف مع الرجل ـ لمست كل معانى الشهامة والرجولة، التى يختزنه الفلاح المصرى أجابه:

ـ العفو، يا سعادة الباشا، انت لى أخ اكبر بل والد.

ـ نادنى كأخ، أو كوالد ما أحب هذه الصفات إلى. لا تخاطبنى بلفظ الباشا.

دهش دياب، سعد كثيراً، تساءل: هل من المعقول أن يتآخى المستغل والمستغل، طرد من ذهنه مؤقتا فكرة الأستغلال. ركز على فكرة الأخوة أو الأبوة.

ـ يسعدنى أن يكون لى أب من أبناء العز، لعل عدوى العز تمسنا بخيراتها.

ضحك الباشا واسترسل دياب:

ـ على أننى أفضل أن تكون لى اخا، الوالد كما تعلم، له مكانة لدينا، أمره مطاع، مهما كان الحق معنا، أود أن تكون العلاقة بيننا ديمقراطية.

ـ أنا موافق.

دياب فلاح من قرية الرباعى محافظة الشرقية عمل بوسية من الوسايا المتناثرة فى الريف المصرى، انتعش حين جاء الأصلاح الزراعى، نال منه فدانين كان يجيد القراءة والكتابة نظر إلى توزيع الأرض على إنه نصر للفلاحين على الأقطاعيين، مات عبد الناصر، رائد الأصلاح الزراعى. خلفه السلطان انتكس على الثورة. حول البلد إلى سلطنه تتضاءل أمامها وسية الملك والباشوات والخواجات. التقى بشاب من قريته عضو فى تجمع للكادحين. قرأ ما قدمه إليه من أدبيات ثورية ـ أبدى قدرات غير عادية حينما التحق بذلك التجمع، تدرج فيه، إلى أن أصبح عضواً فى جماعة من جماعاته القيادية، التى تقود شباب الفلاحين.

يقوم التنظيم على مبدأ أساسى مشروع: الجماهير العاملة هى الأغلبية، تولى السلطة حقها الديمقراطى. السيطرة على الثروة، حقها الاقتصادى، فهى القوى العاملة المنتجة لها، أنبث التنظيم فى القطاعات الانتاجية والخدمية فى المدن والقرى، نجح فى الحفاظ على سريته، على أن بعض الأعضاء، ومنهم دياب،

ناضلوا ضد السلطة علانية. خاض مع الجماهير، كل المعارك التى خاضتها ضد القهر والاستغلال والفساد ـ اعتقل مرات عدة صمد وزملاؤه صمودا خارقاً ضد التعذيب، بقى التنظيم متماسكاً.

قذف بدياب فى هذا القفص، التى يتخبط فيه الظلام والقهر. شعر بحاجته إلى إنسان يتحدث معه، يكسر به الصمت المطبق على صدره إذا ترك مع الصمت كأنه ترك مع الموت، هذا هو إنسان أرسله الله والسلطان إليه، يشعره بأنه موجود، فهو يتكلم.

خاطرة أنعشته: القهر يشمل الباشا والفلاح ـ حلم من أحلامه ، ولو إنه معكوس، تحقق له فيه المساواة، مع أولئك الذين حرموه منها ـ كان رضيا بتذوق الباشا للمهانة التى اذاقها لمئات المناضلين من قبل ـ لعل الباشا يدرك إنه فى الغابة الرأسمالية، يفتك اصحابها ببعضهم بعضاً ـ لايقتصر فتكهم على الفقراء والعاملين فى املاكهم، ها هو السلطان يصبح ثريا لكنه لم يبلغ درجة الأرستقراطية التى بلغها الباشا وأباؤه، غير إنه وحاشيته، يملكون السلطة فهم الغالبون، درس يعيه الباشا كما يعيه العامل والفلاح.

سهل شهاب باشا على الفلاح دياب عملية المساواة بينهما. لم يعد دياب مرغما، على أن يقدم له شبشبه، أراحه ذلك كثيراً،

كان مصرا على ألا يقدم له خدمات شخصية، اللهم إلا تلك التى يقتضيها سنه وصحته، يجب ألغاء الأمتيازات الطبقية. على الأقل فى الزنازين.

دق على باب الزنزانة، صوت القفل، صرير المزلاج، باب الزنزانة يفتح، الحارس يحمل الطعام، اقبل شهاب باشا على الطعام المتردى، أكل بشهية. وشت عن الطعام السخى، الذى كوم هذا اللحم والشحم يبدو أن الباشا تخطى أزمة الظلام والخوف. تحدثت معدته مع الطعام حديثاً شهياً. هذا الطعام الفقير قفز بخاطره إلى ذهن دياب استخدمها لبدء الحديث.

- أليس هناك أمتيازات للباشوات فى السجون؟

- هذا أنت ترى الطعام الذى نأكله.

- يا لخيبة الأمل أنا فرحت يا أخى، وقلت حظى من السما، أنا شريك الباشا فى الزنزانة «حينولنى من الحب جانب».

- «جه نقبك على شونه». على أية حال، توجد امتيازات فى السجون لكنها لاتعطى للباشوات السياسيين، إنما تقدم لباشوات المخدرات وأميرات الدعارة.

كان الباشا وزيراً للداخلية فى عهد ما قبل السلاطين وهو وزير ذكى شعبى، على علم واسع بدنيا الشرطة وسجونها ومعتقلاتها. واصل الحديث.

- زنازين تجار المخدرات، فيها فرش وثيرة وزرابى مبثوثة. زنازين فسيحة، أبوابها مفتوحة يدخلها الهواء الطلق، تعقد فيها جلسات الحشيش، يتحلق حولها قادة السجن. الطعام فيها يأتى من قادة الكباب فى مصر، ينعم به الجميع فى جماعة غريبة.

أراد شهاب الدين باشا أن يتخفف فأضاف.

- جماعية تفوق كثيراً، شيوعيتكم ونظامكم الجماعى.

فوجئ دياب بهذا التخفف غير المتوقع من الباشا، كان شديد الحساسية، فيما يتعلق بمبادئه وهو يهاجم المعتدى هجوماً مضاداً مهما كان هذا جاداً أو هازلا، لكنه تذكر إن العهد بينه وبين الباشا هو الصراحة، هدأ نفسه، وقال:

- لك الحرية أن تقول ما تريد. لكننى حريص على هذه العلاقة الأخوية، أخشى أن تنهار مرة أخرى - دعنا نتفق على الا نسخر من مبادئى أو مبادئك، الأعتقال سيطول و سنغوص فى هذه المضوعات بطريقة جادة.

ابتسم شهاب، وقال:

- أوافق، وأعتذر،

ثم استطرد

- ضيوف تلك الزنازين يلبسون البيجامات الحريرية، إذا كانو

محدثين، والقفاطين الشاهية إذا كانوا من أنصار التراث.

- أليس رجال الشرطة خصوماً لهؤلاء التجار ويحمون الوطن من سمومهم؟

- الحشيش، وغيره من السموم يوزع على طرفى الخصومة جميعاً عيناً وذهبا ؟

- هل هذا صحيح.

- ألا تعلم إننى كنت وزيراً للداخلية؟ كان حزبنا يدعى للحكم، قبل أن يغتصبه الوارثون.

- هل لى أن اسأل ماذا فعلت أزاء هذا الوضع، وكنت وزيراً مسئولا؟

- كان الملك يستدعى حزبنا للحكم عندما ينتخبنا الشعب ولكن خلافنا مع السراى يجعلنا لا نمكث فى الحكم إلا لماما.

- مهما لبثت فى الحكم ألم تفكر فى هذه المصيبة حاميها حراميها؟

- فكرت ماذا يمكن أن أفعل فى فترة قصيرة هناك دوائر عليا، كانت طرفاً فى القضية.

رنت عبارة «الدوائر العليا» فى مخيلة دياب، تتابعت أمامه قصة للخدرات مع الحكومات المتوالية: الأنفاق الكبير على الجنود والضباط، الميزانية الضخمة المرصودةلمقاومتها، ومع ذلك تزادد

انتشارا مع الزمن، ويزداد المتعاملون فيها ثراء على ثرا
أصبحت ثرواتهم بالمليارات فى عهد السلطان، كانت بالملاي
فى عهد سلفه، وعهد الملك، ذكرته» الدوائر العليا» بأن أشق
السلطان كانوا يتزعمون مملكة المخدرات. السلطان نفسه يبن
مقصورات لتدخين الحشيش يوشوشها موج البحيرات والأنه
والبحار وتساءل دياب:

- هل هذه الشركة بين تجار المخدرات والمقاومين لهم والدوا
العليا هى السبب فى تزايدها وفتكها بأعداد متكاثرة م
الجماهير؟

- لا استطيع أن اجيبك.

- لقد تعاهدنا على الصراحة

أبتسم الباشا الواعر، أسهمت السياسة فى وعورته، قال:

- أنت ذكى يا دياب: هذا شأن الفلاح المصرى، ما بالك بفلا
ثورى واع. أقول لك ماذا تهدف بسؤالك، تريد أن أجيبك
بالإيجاب، فتثب على وتضعنى فى قائمة المتهمين.

- أقول لك الحق كان هذا من أهدافى لكنى اصارحك دون مجامله
بأنى لا أعدك شريكاً، أنت من الباشوات الاصلاء اسرتك
مشهورة ثروتكم معروفة، لم تأت من المخدرات فأنت ثرى أ
عن جد.

اختلجت اسارير الباشا اهتزت اعطافه غير إنه لم يفطن إلى الفخ الذى نصبه له دياب قال:

- أوافقك على أن أزدياد انتشار المخدرات يرجع أساساً لهذا السبب، لم يرد أبو زيد للباشا أن يفلت من يده، قال له فى الحال

- كنت مسئولا يا باشا، أقصد يا أخى وفى قمة الجهاز الذى يكافح المخدرات وتعلم ذلك ولم تصنع شيئاً.

- ماذا أصنع؟

- تستقيل إذا لم تستطع العمل.

- لن يحل ذلك مشكلة المخدرات.

- على الأقل كنت أرحت ضميرك.

- أنت مازلت شاباً. المسألة فى السياسة، ليست بهذه البساطة.

- عدم القدرة على أداء الواجب، مع الاستمساك بالمنصب، يرقى لمرتبة الجريمة.

امتعض الباشا، امتعاضاً شديداً هذا أول هجوم يشنه أخوه عليه، غير أن الدبلوماسية السياسية وحرصه على التصالح مع هذا الفلاح جعله يبتلع الأهانة فى يسر، عادت بسمة خفيفه إلى وجهه، وقال:

- ألم نتفق على التآخى والود؟

- مازلنا أخوه، الأتفاق بيننا يقوم على المصارحة، أرجو أن تكون حليماً.

- وهو كذلك يا عم دياب.

شاء أبو زيد أن يرفه عن الباشا، بعد هذه الهجمة وأن يفيد من خبرات هذا السياسى الداهية. سأله:

- هذا عن باشوات المخدرات، ماذا عن زنزانات أميرات الدعارة؟ هل زرتها.

أشرق وجه الباشا المستدير بابتسامة عريضة، وأجاب:

- هل يمكن للوزراء الباشوات أن يزوروا زنازين الداعرات؟

- للتفتيش عليها، أليست مسئولية؟

كان الباشا حاضر الدعابة. رد على الفور؟

- نحن نترك هذه المسئولية للشباب من أمثالك.

قهقه دياب رنت ضحكته المجلجة بين أرجاء المعتقل، كان لذلك اثر سئ جاء الحارس رفس الباب بحذائه كان مركباً به قطعة من الحديد كحدوة الحصان نظر من الكوة الموجوده فى باب الزنزانة صرخ بصوته البدائى:

- بطل كلام يامسجون أنت وهو نام كل المعسكر نام وإلا أدخل

تتبكم.

نجع الباشا عند سماعه للفظة «مسجون طمأنه دياب بأن هذا العسكرى سينام وبستأنفان الحديث قال له همسا.

- صحيح إن الباشوات لا يذهبون لزنازين العاهرات. ففى القصور المترفه، وشاليهات الغرام فرص أشهى.

لم يغضب شهاب لهذه الملاحظة بل مضى يرد القفشه قائلاً.

- ربنا يوعدك.

الباشا المخضرم وجد فى هذا الموضوع مادة يمتع بها رفيقه. أراده كذلك مشغوفاً بحديثه استطرد:

- زنزانات الأميرات الداعرات، فيها ما لاعين رأت، ولا خطر على قلب بشر.

قفز دياب مقترباً من الباشا الذى قال بصوت وئيد متمكن:

- الآن تتحمس للحديث معى وتتلهف للأستماع إلى وكنت متمنعاً

لقد أصبحنا أخوة.

زنزانات الغرام مزخرفة مزركشة، السراير مطرزة ملاياتها ألوانها زاعقه، صور النساء العرايا معلقة على الجدران مجلس الأميرة هنا، يذكرك بألف ليلة وليله وليالى هارون الرشيد يعج

بالبغايا يزاملهن الرجال، الذين يقاومون الدعارة، ويسهرون
على الآداب.

- هل هؤلاء الرجال ضباط أم عساكر؟

- عساكر إيه؟ يلزم للعساكر أن يأكلوا أولاً ثم يمارسوا الدعارة؟

- صدقت.

- الزنزانات كذلك غارقه بالويسكى وغيره من قوارير الصهباء
وفى ركن خاص تحوطه ستاره مطرزة بالورد والرياحين تجد عدة
الجوزة ومستلزماتها.

- كأن رجال المخدرات يصلون إلى الزنازين المغندرة.

- طبعاً - هؤلاء قاسم مشترك.

سكت الباشا لحظة ثم واصل:

- فى هذه الزنازين تجد المسجلات تصدح بالموسيقى من كل لون
والتليفزيونات والفيديوهات وما أدراك ما الفيديوهات والأفلام التى
تعرضها.

- من أين جاءت؟

- هذه مسألة بسيطة من عند الأميرة أو من إدارة السجن.

- وإيه كمان يا باشا؟

- حسبتك تدعونى أخاً؟

ـ لا أنت هنا فى الحته دى باشا بصحيح.

ـ أنت لم تعرفنى بعد فى الحته دى وغيرها

وفاجأ دياب الباشا بقفشه

ـ يا أخى الباشا هذه الصورة التفصيلية لزنزانات أميرات الدعارة، لا يعرفها إلا من رآها رأى العين.

ضحكا معاً وأراد الباشا أن يختم حديثه بطرفه من طرائفه، لكنه خشى أن تكون متصله بالمبادئ والأيديولوجيات، استأذن دياب أعطاه الأذن بسرعة:

ـ لك لحرية فميا تقول.

ثم استدرك.

ـ فى هذا المجال اللذيذ فقط.

ـ وهو كذلك. الأميره تدعو إلى زنزانتها نخبة من المومسات الفاتنات اللائى يشرق السحر فى عيونهن، ويعربد الجنس فى أبدانهن. لكن البغايا الشعبيات فى اجسادهن هزال وفى الوانهن شحوب. سوء التغذية شوه انوثتهن. فلا يستدعين إلى مأخورة الأميرة.

لم يعلق دياب على هذه الخاتمة هل كان الحديث شهياً؟ أثار غرائز الشاب القروى؟ كان ذلك واضحا أول الأمر، لكن فى آخره، لسع وجدانه لسعة موجعه: حتى بنات الشعب اللائى قسرهن

المجتمع على الدعارة. لم يفلتن من الفقر والجوع والهزال.

كان الليل قد اوغل، ليلتقى بالفجر، اكتفى الصديقان بهذ السهرة الدامسة الممتعة.

******

(٢)

فى الصباح جمع المعتقلون فى صالة واسعة، فرحوا، تحرروا من الأقفاص العطنة، سوف يتنفسون هواء طلقاً، مازالت الحرية مسفوحة، لكنهم سيرون جمعاً من الناس، يعيد إليهم الثقة بأنهم يعيشون فى مجتمع بشرى. هذا التجمع من مبتكرات السلطان، كان حساساً بدرجة كبيرة للرأى العام العالمى، حين أعتقل هذه الآلاف، قامت ضجة كبيرة فى صحف العالم، انتفض الكتاب الديمقراطيون فى كل مكان يندون بأعتقال هذه النخبة الممتازة من اساتذة الجامعات والصحفيين والمثقفين والساسة. هل استيقظ ضمير العالم الرأسمالى فحسب، عند اعتقال هذه الصفوة؟ ليس هناك ذكر للمتعقلين من الفلاحين والعمال، هؤلاء كان يمكن للدول الاشتراكية أن تصرخ دفاعاً عنهم، لكن صوت هذه الدول لايسمع

فى إذاعـات السلطـان وتليـفـزيونـاته صـحـفـهم كـذلك لا تقـرأ فى سلطنته.

لهذا سمح السلطان للمعتقلين أن يجتمعوا معاً ، يقرأون جرائده ويستمعون لإذاعته، ويشاهدون تليفزيونه.

كان اجـراء ذكـياً، أراد أن يثـبت للـعالـم إنه حاكـم متـحضـر، هذه سجونه، تمنح الحـرية لنزلائها، أتاح لمجموعـة من المراسلين الأجانب أن يدخلوا المعتقل، الضباط يرافقـونهم، يشاهدون الحرية من بعـيد، عقد مـعـهم أتفـاق جـنتلمـان: إلا يتـحـادثوا مع المعـتـقلين. التـزمـوا بالأتفاق.

اتهم السلطان هذه الفرق السياسية والثقافية المتنوعة بأنها تمزق الوحدةالوطنية. الحق أن الفتنة الطـائفية ثارت أبان الأسـتعـمار، وفى عهد هذا السلطان فـحسب. خاصمـه الجميع للفساد الذى اسـتشرى عنيفاً فى عهده. وللقهر الشرس للحريات، وللأثراء الجشع المسلوب من كدح الجمـاهيـر، كان السلـطان يربط بين مصـر وشـخصـه، أى هجـوم عليـه، ينزع عن فـاعله هـويتـه الوطنيـة، هؤلاء الوطنيـون، لايوافقـون على هذا الربط، لذلك فهم مـارقون، الاعتـقال هو الخطوة الأولى لعقابهم.

هذا التـجـمع، الذى يتـيحـه لهم، هو نوع ســادى من الأنتــقام، التليـفـزيون يعـرض لهم صـوره، يفـتح مـجلس الشـعب المزيفـة انتخـاباته، الأضواء تسلط عليـه، الأناقة والتلميع لـلزعيم ، الخطوات

الامبراطورية الى منصة الخطابة، التصفيق يصم الآذان، الخطباء يسبحون بحمده، المجد يعرض اشكالا والوانا. فى اليوم التالى يفتتح مجلس الشورى، وفى اليوم الثالث يحتفل به فى الجامعة، ثم يجمع له العمال فى يوم آخر.

هذه الصور يشاهدها المجتمعون، توغر الصدور، تثير فى البعض احباطاً، توحى بأن الحكم مستقر، والزعيم متمكن، والمجد وارف الظلال. ها أنتم، لا حول لكم ولا قوة، تمضغون القهر، وتجترون اليأس، وتموتون بغيظكم.

ضاقت صدورهم «بالزعيم الملمع». انصرفوا إلى قراءة الجرائد والمجلات. لكنها صحافة السلطان، المجد مكتوب بالحروف الثابتة بدلا من أن يشهدوها متحركة القوا بالجرائد، اخذوا يعقدون ندوات انقلبت الفكرة وبالا على الحاكم.

كان من بين المعتقلين حسان: صحفى كبير. فى بداية الأعتقال انحطت معنوياته كثيراً، عصفت به أزمه نفسية طاحنة، غضن وجهه فى يوم وليلة. الاعتقال بالنسبة له فاجعه، درج على الحياة المترفة، والعيش الرغيد، الريح معه كانت رخاء. والصعود إلى القمة السياسية ميسوراً.، كان به ذكاء لاريب فيه. وطموح مثابر. بدأ حياته صحفياً نشيطاً فى صحافة الملك. درب على يد اساتذة، أقيمت لهم دور صحفية، مولتها السراى والإنجليز والمخابرات الأمريكية فى هذا الأطار تفوق فى الفن الصحفى، برز أسمه، قربه الزعيم

السابق على السلطان، اصبح فى ليلة وضحاها، الكاتب الأوحد، يعطى المعلومات التى يريد الحاكم أن تصل إلى الناس، صار المنهل، الذى يستقى الناس منه معرفتهم بالنظام.

غدر السلطان برجال الزعيم جميعاً، عدا الصحفى الكبير، افترس السلطان أفكار سلفه ومسخها، شوه المسار الاشتراكى، الذى كان الزعيم يبشر الناس به، ومع ذلك عمل الصحفى مع السلطان سنوات طويلة، كان فيها كاتبه الأول، ونديمه، ومستشاره، ثم حدثت القطيعة، أيكون السبب، أن سخائم السلطان بلغت قدراً، لم يعد يتحمله ضمير الصحفى؟ أم أن السلطان شعر بأن ولاءه له ضعف، وأنه اكثر اخلاصاً للزعيم الراحل. هذه الشكوك جعلت السلطان يودعه سراديب المعتقل، وزنازينه المهينة، أين منها البذخ، أين الفلل، التى تعلو العمائر السامقات، يجرى من تحتها النيل الخالد؟

افتتح الصحفى الكبير ندوة المعتقلين.فى الندوات خارج المعتقل، كان يجلس مائلا لليمين، لكن الملاحظ أن جلسته استقامت، يبدو أن السجن قد عدله، فى هذه الأيام القلائل، ما بالك لو طال، قد يجنح به نحو اليسار.

على الرغم مما صنعه المعتقل به، إلا أنه ألقى كلمة شجاعة، كانت موجه الغضب التى تلاطمت فى نفسه عنيفه :«السلطان المؤمن» يحتسى الفودكا، خلال النهار والويسكى حينما يجن الليل، ويعقد

جلسات الحشيش فى العصارى، يتجر اخوته فى المخدرات ويكونون الملايين، أهل بيته ينقلبون إلى نساء ورجال اعمال يجمعون ثروات كبيرة، خطوات تتخذ فى الداخل. وإتصال بقوى كبرى فى الخارج، تمهد لتولى زوجه السلطة من بعده. فصل التآمر بين السلطان والأمريكيين والأسرائيليين على القضية القومية.

خاض فى تفاصيل الحياة الداخلية للسلطان والسلطانة.

احدثت كلمته بين المعتقلين امتعاضاً وبهجة، فرح البعض، هذ داعية النظام بشطريه يعرض سخائمه، امتعض اخرون: إنه يهاجم السلطان الآن فحسب، بعد أن ذاق الأعتقال.

سأله يسارى شاب:

- أين كنت حين شاع الظلم والاستغلال وفسد الحكم واشتم الثراء؟ رضى البعض بهجوم اليسارى على الصحفى، غير أن الكثير تعاطفوا معه: إنه زميل معتقل على أية حال، مكن ذلك الصحفى من أن يرد فى هدوء:

- ماذا كنت أصنع؟ قدمت نصيحتى، ولم تقبل فتنحيت.

وأصر اليسارى:

- كيف استطعت الجمع بين أن تكون كاتب الاشتراكية الأول، فى عهد الزعيم ثم كاتباً للتهليب والإنفتاح الرأسمالى السائب فى عهد السلطان؟

واستمر الصفحى فى ردوده الهادئة:

ـ كنت أودى واجباً وطنياً.

حاول الشاب اليسارى أن يرد، قاطعه ملتح متدين: قال فى صوت متشنج.

ـ كم كأساً من الويسكى والفودكا تجرعت؟

بقيت تهمة قاتله جاءت هذه المرة من جانب شهاب الدين باشا، وكان ذلك غريبا لأول وهله، هناك ترف حياتى مشترك بين الصحفى والباشا، حسان الصحفى ممثل الباشوات الجدد، وشهاب رمز للباشوات القدامى، على أن بينهما فارقاً ثانويا: فلة الباشا تحيط بها العمائر، وتحجبها عن رؤية النيل، وفيلة الصحفى، تشرف على النيل من عل. بينهما ثأر قديم. الصحفى، ساند الزعيم فى الحملة على الأقطاع، وفى توزيع أراضى الباشوات على الفلاحين، فاجأ الباشا الصفحى وسأله:

ـ ما العلاقة بينك وبين المخابرات الأمريكية؟

واصل الصحفى هدوءه الغريب:

ـ علاقة صداقة.

ـ هذا واضح فى توسطك بينهم وبين الأيرانيين للأفراج عن الرهائن الأمريكيين، هكذا اعترفت فى كتابك.

ـ أنا أعترفت، لكن غيرى لا يعترف.

أحمر وجه الباشا، وبرزت مآقيه هم بالرد، لولا أن الحراس جاءو وأنهوا الاجتماع: بطل كلام أنت وهو، أجمع فى الطابور، معتاد مارش، إلى الزنازين.

أنتهت لحظات حلوة أنعشت المعتقلين، دعوا الله أن يرزقهم فى اليوم الثانى بفريق من الصحفيين الأجانب، يعرض عليهم السلطان ديمقراطيته، وليشهدوا معاملته الإنسانية للمعتقلين المتآمرين عليه.

******

(٣)

الحوارات تتردد فى الزنزانات كأنها خلايا نحل يطن، أو زنابير تزن، فى خلايا النحل تقطرت المناقشة عسلا أرتشفه المتناقشون، تمثلوه غذاء فكرياً جنيا، فى واحدة من هذه الزنزانات الخلايا، دار جدل هادئ انتج قطوفا. كان طرفاه، رفيق المسلم المستنير ومحمد

الماركسى، قال محمد بعد أن تعارفا:

- أعتقد أن الملكية الجماعية أو ملكية الشعب لوسائل الأنتاج، أى للأراضى والمصانع، تتفق والشريعة الإسلامية تماماً.

ورد عليه رفيق:

- كيف؟ المال مملوك لله وحده.

- هذا المبدأ يحرم الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

- لكن الله استخلف الإنسان فى تملك تلك الأموال.

- هذا صحيح لكن السؤال الآن أى إنسان؟ لايمكن عقلا، إن يستخلف الله فى ماله قلة تحتكره وتثرى عن طريقه، وتحرم الكثرة من خلق الله من خيراته. المقصود بالإنسان هنا هو الغالبية الكبرى من بنى الإنسان، هى شعوب الله، وليست القلة المستغلة لخلقه.

- إنك تدخل عنصراً جديداً، هو الاستغلال، الرأسماليون يعطون العمال أجوراً. أين الأستغلال؟

- العمل الإنسانى يخلق السلع، ويعطيها قيمتها، الرأسماليون يدفعون للعمال جزءا ضئيلاً من هذه القيمة كأجر، ويحتجزون الجزء الأكبر فى شكل أرباح. هذا هو جوهر الاستغلال.

- هل هذه نظرية ماركس فى فائض القيمة؟

- نعم ولكن حتى لو لم يقلها ماركس، لقالتها الجماهير العاملة

فى كل الدنيا.

- أنت تعلم أن ماركس، متهم بالألحاد، فكيف نقبل ونحن مسلمون نظريته الاقتصادية؟

- أنت تثير فى عبارتك قضيتين كبيرتين: قضية الماركسية والدين، ثم قضية الاستغلال والتى وصل إليها الإنسان عن طريق استخدام عقله، والعقل أغلى شئ أودعه الله رأس الإنسان، ليقوده إلى الخير والعدل والحرية، ولما كان الاستغلال ينصب على الأغلبية الكبرى من خلق الله وينزل الضرر بهم، فمن واجبنا النضال ضده. حيث لاضرر ولا ضرار.

- يبدو إنك جهزت، الردود.

ضحك الرفيقان، خفت حدة الجهامة التى أطلت على الحوار، وقال رفيق: كيف يمكن لهذه النظرية الاقتصادية التى تنافح عن الإنسان، إن يتهم قائلوها بالألحاد.

- أليس ماركس هو القائل بأن الدين أفيون الشعوب؟

- يجب أن تفرق بين الدين ورجال الدين، الأديان فى جوهرها تقدمية، خطت بالإنسان من الجاهلية والظلام إلى النور والتقدم، لكن رجال الدين على مسار التاريخ كله قد حوروها لخدمة مصالحهم الاقتصادية والطبقية، أنت تعلم أن رجال الدين فى أوربا كانوا من كبار الاقطاعيين، تملكوا اكثر من ثلث الأراضى الزراعية

فى تلك القارة، استخدموا أدوات التعذيب البشعة لقهر الإنسان واستغلاله ثم تحولت هذه القلة من الكهنوت إلى التجارة والصناعة والبنوك، وكونوا مع الشركات العابرة للقوميات، جبهة واحدة لأستعباد الشعوب.

وتدخل رفيق:

- الإسلام لا شأن له بهذا.

ورد عليه محمد:

- ماركس لم يهاجم الإسلام.

- أنت تسترضينى.

- الحق أن ماركس كان يناطح رجال الدين فى أوربا وتفسيرى لعبارة ماركس هو أن رجال الدين استخدموه لتخدير الشعوب واسترقاقها، القرآن الكريم يكرم الإنسان، وبذلك فالمستغلون للإنسان بعيدون عن جوهر القرآن.

- إذا كان الأمر كذلك لماذا لا نطبق كتاب الله؟

- الإسلام وهو خاتم الأديان مهمته ربط الإنسان بخالقة برابطة التوحيد وتجميل الإنسان ليكون صالحاً لهذه الرابطة. وقد ترك الله العلوم الاجتماعية، كالسياسة والاقتصاد والاجتماع إلى العقل الإنسانى ليصل إلى النظام الذى يحقق مصلحة الكافة، وما كان للقرآن إن يفصل من هذه العلوم، التى تتغير من حين لحين. وإلا

أنقلب إلى موسوعة علمية لأنهاية لتطورها. وبعد عن رسالته المقدسة وهى التوحيد.

وهنا أبتسم رفيق قائلاً:

- أنت تهز عقلى.

واستطرد محمد

- على أننى أود أن اصارحك بأن التاريخ يقول أن الأمة الإسلامية شهدت نظماً قيل أنها تنتمى للإسلام، استغلت فيهاشعوبها استغلالا بشعاً. خد مثلاً عباس العقاد وهو كاتب عملاق إلا أنه كاتب فردى متعال على الجماهير ومن خصوم الاشتراكية. ومع ذلك نجده يقرر فى «عبقرية عمر» إن الذهب كان يكسر بالفئوس فى خزائن الولاة فى أواخر عهد عمر «هذا هو عهد عمر بن الخطاب. ما بالك بالخلفاء والولاة الآخرين من أين جاء الذهب، جاء من دم المسلمين وعرقهم.

وعلق رفيق:

- هؤلاء الخلفاء والولاة، شأنهم شأن الأغنياء، آخر من يدخلون الجنة، كما تقول الأحاديث الشريفة.

- هذا أذا دخلوها.

ضحكة خفيفة كانت فاصلاً فى هذه المحادثة الجادة.

أراد محمد توسيع دائرة الحوار. فهذه فرصة فهو لم يلق اسلامياً

مستنيراً سمحاً كرفيق من قبل وسأل صاحبه:

- هل تسمح لى بمواصلة الحديث معك، وارجوك أن تعارضنى، إذا ما كان تحليلى لايتفق مع القواعد الإسلامية والعقلية.

واجابه رفيق فى قفشه باسمه:

- الحق علىّ أنا شجعتك بالموافقة على بعض أفكارك.

- لا، قل الحق يا أخى قل أن حجتى قوية.

ضحكة أخرى، ومضت فى جنبات الزنزانة، عقب بعدها رفيق.

- طيب سترى ياحلو.

- لا «خليك» رجلاً طيباً كما أنت، أنا أهزل معك

- تفضل أنا مستمع.

- هناك قاعدة إسلامية تقول المسلمون شركاء فى ثلاثة: الماء والكلاء والنار.

- نعم

- الماء لايقتصر على ماء المطر والينابيع إنه يشمل مياه الأنهار والسدود والخزانات القائمة عليها والكهرباء التى تولدها، والكلأ يشمل الأراضى جميعاً. حينما وضعت هذه القاعدة كانت الأراضى اغلبها مراع. لكنها تطورت لزراعة المحصولات. وهى قوت خلق الله يعيشون عليه، لهذا يجب الا تترك ملكيتها للقلة، يحتكرون أرزاق

الناس، ويجوعونهم.

وعلق رفيق:

- النص ليس صريحاً فى ملكية المزارع ملكية جماعية، من الصعب مساواة أرض المراعى بأرض المحاصيل.

- القياس مصدر من مصادر التشريع الإسلامى - المسلمون يجب أن يكونوا شركاء فى الأرض التى تنتج قوتهم. الإسلام نفسه يجعلهم شركاء فى الأرض التى تنتج قوت حيواناتهم.

- حجتك قوية، ألا تبالغ فى استخدام العقل؟

- العقل، والأجتهاد ثمرته، مرجع من مراجع الشريعة الغراء. وهو أسمى ماخلق الله للإنسان.

- هذا صحيح.

سكت رفيق برهة، يعمل عقله، ثم قال:

- إذا سلمنا جدلا ومؤقتاً برأيك فى ملكية الأرض، فالملكية العامة للمصانع أمر غير واضح.

وكانت لدى محمد إجابة:

ـ تطور العمران، استحدث أمورا لا تقل أهمية عن الماء والكلأ والنار، ومثل ذلك الصناعة، التى تنتج السلع الاستهلاكية الحيوية للناس، وكذلك السلع الإنتاجية اللازمة للعمران والتنمية، يجب القياس فيما يتعلق بها على الماء والكلا والنار.

ـ اليس فى هذا أرهاق لقاعدة القياس؟

ـ العبرة فى الشئون الاجتماعية والاقتصادية، هى المصالح المرسلة أى مصالح الكافة أو الجماهير بالتعبير الحديث، وهذه قاعدة أساسية فى الإسلام، مصلحة الناس تتطلب عدم أحتكار القلة للصناعة، يرفعون الأسعار، ويستغلون المستهلكين والعاملين. والله لايرضى لخليفته أن يستغل.

وهنا قال رفيق دهشا:

ـ ما كل هذه المعلومات الشرعية. كيف يمكن لماركسى أن يلم بكل هذا؟

ـ يابنى، إنه الغرام بالمعرفة وحب الإنسان.

سعد محمد بهذا الشاب المسلم ذى القلب المؤمن والروح الشفيف، كان رفيق مهندساً نشأ فى منزل جمع بين الفكر التقدمى والدين أخذ والداه من الاشتراكية ما يمنع استغلال الإنسان للإنسان، ومن الدين، الروح الإنسانية، التى تلهم العقل، وتقوده

لخير البشرية، سأله محمد:

- ما كنت أتوقع أن أقابل إسلامياً مستنيراً.

ورد عليه رفيق:

- لماذا؟ هناك من الشباب المسلم. من يؤمن بالقيم الاجتماعية كما تؤمن بها أنت. كان محمد محظوظاً زامله فى الزنزانة رفيق واسع الأفق، ساد الجدل بينهما روح سمح يبغى الوصول إلى الحقيقة. لم يرتفع صوتاهما، بقى طنينا موسيقيا، وشى بأن طرفيه مهمومان بانتاج العسل.

على أنه كانت هناك زنابير حقيقية فى بعض الزنازين ومن أشدها زنا، تلك الزنزانة التى ضمت شيوعياً قديماً، وإسلامياً متشددا.

******

(٤)

وجيه الشيوعى رقيق، نحيل البدن أسهم فى نحوله اعتقال طويل وتعذيب واجهه ببسالة نادرة، فى بدء حياته السياسية كان مناضلاً ثورياً ثقافته واسعة إلى جانب كونه محدثاً بارعاً، ومع ذلك كان اشتراكيا ملمعا، لم يكن التلميع مقصوراً على مظهره، لكنه غاص عميقاً فى وجدانه، لايقتصر الأمر على السيجار السميك، يمسك به بين شفتيه وأسنانه ويقلد به الباشوات لكن حديثه وسلوكه يوشيان بأنه يحب أن ينتمى إلى نخبة متميزة.

وكان عبد الصمد الإسلامى ضخم الأكتاف مكتظ الصدر، طويل القامة، ظهره مقوس قليلاً يسمح للحيته أن تتدلى إلى ما يقرب من ركبتيه، لسوء حظ الشيوعى كان الإسلامى الأصولى، فظ الملامح عبوس الوجه منتفخ العينين قاتم اللون، كثير من اخوانه وجوههم سمحة تخفف من الرعب الذى تحدثه اللحى المسترسلة.

حاول الاشتراكى استدعاء شجاعته القديمة، لم تطاوعه. فى الماضى كانت طيعة، جابه بها كرابيج القهر وآلات التعذيب، لم يخفه حراس المعتقل، أنتصر عليهم، وعلى أدواتهم البشعة «لكن هذا الرجل، الذى يربض فى الركن المقابل، يرعش أعصابى، ماذا يضمر لى. زملاؤه يكفرون الناس، ما بالك بشيوعى، المستغلون للشعوب يتهمون الشيوعيين بأنهم ملاحدة، أنا كافر إذن فى نظر هذا الرجل،

هذا الرجل، وحكم الكافر، طبقاً لفلسفته هو القتل. بأية وسيلة سوف يجهز على؟ إنه عملاق قوى، إذا خنقنى، لا استطيع من قبضته فكاكاً، هل أصطحب معه الأسلحة التى يحملها هذا الفريق: الخناجر والجنازير؟ لحيته طويلة يمكن أن يفتل منها حبلا يشنقنى به.

احتلك الظلام واشتد الرعب بوجيه ـ عصفت به قصص الأرهاب، التى ارتكبها المتطرفون، كابد الاعتقال الجماعى. ذاق مرارة الزنازين الانفرادية،لكن هذه الزنزانة المزدوجة أبشع ما عرف من أعتقال وتعذيب، يزيد من رعبه، إن هذا العملاق صامت لايبين، يرسخ كالجبل فى ركن الزنزانة، تختفى قسمات وجهه فى جوف الظلام، تمثلها قسمات شيطان رجيم، تطلق عيناه شهبا، وفمه شواظا. لحيته حية تسعى.

عبد الصمد الإسلامى يمقت كذلك هذه الصحبة، هذا «الملحد» قذى فى عينيه، يقبح دنيا الله، خلقها الله للمؤمنين فحسب، وللأصوليين خاصة، ماذا يفعل به؟ قتل «الكافر» مبدأ لايحيد عنه، يجعله شهيداً، لكنه شهيد طموح، لايكتفى بقتل كافر فرد، الثواب على ذلك، أن يملك قصراً واحداً فى الجنة، قصر واحد لايكفى، لعن السلطان، الذى جمعه بهذا الكافر، إنه يشوه الزنزانة، كان يود أن يجملها بذكر الله.

هكذا كان كل منهما يشقى بعذاباته، كانت هموم الشيوعى أشد

كانت همومه غيبية. تتعلق بقصر أو أكثر من قصور الجنة، لم يعد وجيه بقادر على المضى فى هذه الحرب النفسيه، فقد أعصابه مرة واحدة دق باب الزنزانة دقاً عنيفاً. صاح بصوته النحيل، يطلب النجدة جاء الحارس. قال بصوته الأجش.

- ماذا جرى؟

بادره وجيه والخوف يلجم لسانه.

- أريد أن أقابل الضابط النوبتجى.

- لماذا؟

- لأمر خاص.

- ليس هنا أسرار. أنا مختص. ماذا تريد؟

- أعمل معروفاً يا شاويش أنا فى خطر. «ودينى» بسرعة لحضرة الضابط

تردد الحارس بعض الوقت، ثم قال للسجين:

- تعال.

وأمام الضابط النوبتجى حاول وجيه الذى شرذم الخوف أعصابه، أن يحكى للضابط مخاوفه:

- كيف تضعوننى مع هذا الشخص؟

- هذه أوامر السلطات العليا.

ـ مهما بلغت قسوة السلطات العليا، لايمكن أن تصل إلى هذا الحد.

ـ كيف؟

ـ الذعر يمزق جسدى وعقلى. لا أقدر أن أمكث لحظة واحدة مع هذا الرجل.

ـ أنا أسف ليس لدى أوامر بنقلك من الزنزانة.

ـ أنا الجأ إلى مافيك من إنسانية. وأنت الآن السلطة العليا

هذا صحيح. لكن الزنازين كلها ملآى. هناك آلاف من المعتقلين.

ـ يمكن أن أنام فى العراء.

ـ هذا ممنوع.

ـ إذن الحل أن أطلب منك أن ترمينى برصاص مسدسك لأتخلص من هذا الجحيم.

ـ المفروض إنك ثورى معروف عنك أنك شجاع.

ـ أنا شجاع معك ومع غيرك من الحراس لكنى أفقد شجاعتى مع هذا الرجل.

ـ أى مخالفة لنظام المعتقل تعرضنى للعقاب.

بدا أن الضابط لن يعاونه لكنه ذكره بشجاعته، كلماته أثارت فيه معانى كان الخوف يربض فوقها، أخذت تتسرب شيئاً فشيئاً.

ضعفت وطأة الخوف. قال للضابط فجأة:

ـ سأعود للزنزانة.

أراد الضابط أن يطمئنه، قال له:

ـ اطمئن سأكلف الحراس بمراقبة زنزانتكما.

رد وجيه رداً أدهش الضابط:

ـ لا تشغل بالك أنا سأتكفل به.

خشى الضابط أن يكون قد عزم على قتل زميله، قال له:

ـ أنت مثقف، وشغلت مناصب سياسية رفيعة. أرجو أن تكون رشيداً.

- لاتخف.

رجع وجيه إلى الزنزانة، فتح له الحارس بابها، تسرب إلى داخلها شعاع من النور، وقعت عيناه على هذا الإنسان الضخم الذى يلتفع بنقته، ما أن رآهما حتى قال بصوت فيه حشرجة:

ـ أنت «جبت» هذا الرجس تانى ليه».؟

وقبل أن يجيبه الحارس أسرع الثورى يقول:

ـ أنا لست رجساً.

كانت هذه أول عبارة ينطق بها الشيوعى. قالها باعتداده الهادئ بشجاعته القديمة، تركهما الحارس.

رد عبد الصمد عليه:

- أنت من الخارجين على الإسلام.

على الرغم من فداحة التهمة فأن وجيه كان يتوقعها من الغريب إنها أثارت فيه رغبة فى الحوار مع هذا الرجل من الغريب كذلك أن الاخوانى عبد الصمد تطوف بذهنه خاطرة:

- من واجبى أن استمع إليه.، لعل الله يجعل هدايته على يدى، رد عليه وجيه:

- كيف تحكم هذا الحكم؟

- ألست شيوعياً؟

- بلى

- إذن أنت لا تعترف بالأديان.

- لكنكم تكفرون حتى غير الشيوعيين.

- نعم.

- إذن تهمة الكفر التى توجهها إلى لاتزعجنى، فأنتم تكفرون كل الناس: السلطان، الوزراء، ورجال الدين وغيرهم. الرجعيون والراسماليون يتهموننا بالألحاد لأننا نحارب الاستغلال والأثراء الحرام، وأنتم تتهمونهم بالكفر. فأتهامنا بالألحاد يأتى من كافرين لا قيمة لرأيهم.

- نحن كذلك نتهمكم ولسنا مستغلين.

- يخيل إليك، سوف نرى.

- أتعنى أننا رأسماليون ومستغلون؟

- لم أقل ذلك قد تكونون مستغلين من القوى الرأسمالية.

فى هذه اللحظة سمعا همسا وراء باب الزنزانه كان الضابط النويتجى وعسكرى الحراسة قد أتيا للأطمئنان على الشيوعى، وأن الأخوانى لم يقتله بعد.

قال الضابط للعسكرى:

- أنهما يتناقشان فى هدوء.

- لكننا بعد منتصف الليل. المعتقل كله نائم. يجب أن يناما حسب الأوامر.

- دعهما وشأنهما. لقد أنقلب رعب اليسارى إلى حوار. وهذا كسب.

لكن الضابط رأى أن يوزع الحوار على ليالى الأعتقال. إذا أنتهى الليلة، ستثور المشكلة مرة أخرى، خاطبهما الضابط من كوة الباب:

- هذا يكفى. لقد جن الليل، ونام المعتقل كله. أرجو أن تناما.

صمت الرفيقان تهيأ للنوم، أخذ عبد الصمد يشخر، بينما كان وجيه أرقا، زفراته تخترق رئتيه بصعوبة.

******

(٥)

فى الصباح لم يدع المعتقلون إلى تجمعهم النهارى. المراسلون الأجانب لم يحضروا، اليوم سيقضى السجناء يومهم فى الأقفاص، التى توشك جدرانها أن تحطم اضلاعهم، كان الشيوعى القديم بائسأ حقا. استمع إلى الأخوانى يصلى ويتهدج، ويتلو قرآن الفجر، ثم بدا التسبيح مستخدماً مسبحة طويلة. أسهمت طقطقة حباتها فى أبعاد النوم عن جفونه، أراد الأخوانى أن يوقظ صاحبه ليصلى الفجر، نادى عليه، هزه هزة قوية أثارت مخاوفه القديمة، نهض قاعداً، قال له عبد الصمد:

- قم صل الفجر.

رد وجيه مضطربا:

- كيف اصلى؟ لست متوضئا، لا أحد سيفتح الزنزانة لنا الآن لنتوضأ فى دورة المياه؟

- تيمم.

- هنا لايكفى.

- لم تقرأ الآية الكريمة «فإن لم تجدوا ماء فتيمموا»؟

- قرأتها لكننا الآن فى محنة. فى هذه الظروف يسامحنا الله فى بعض أداء الفروض.

- من قال لك هذا؟ هذا أنت عاص، لا تؤدى فريضة الصلاة.

ثم انتفض الأخوانى واقفا صرخ فى الثورى تناثر زبد من فمه، بعضه على لحيته، وبعضه على وجه صاحبه.

- إن لم تؤد فريضة الصلاة، فهذا فراق بينى وبينك.

لم يكن اليسارى بحاجة إلى مثل ذلك التهديد لتزداد مخاوفه:

هذا الحوار الذى أجريته معه ذهب سدى، كنت أمل من ورائه أن أتواصل معه فى جدل بناء. أمتناعى عن الصلاة خلفه سيفقدنى هذا الأمل وسيلقى بى مرة أخرى فى غياهب الرعب، هل أستجيب له وأنقذ نفسى؟ لكن كيف أصلى عن طريق القهر؟ لا، لن أصلى خوفاً، إنه ليست لديه اسلحة للقتل، عدا اللحية والمسبحة، وأنا خفيف الحركة عجم النضال عودى فانا لست سهلا الشحم سوف يعوق حركاته العدوانية اللحية التى أخشى أن يخنقنى بها، نقطه ضعف فيه. لو تعلقت بها سأطرحه أرضاً.

استولت على وجيه روح اعتداد قديمة. الروح الفرديةالتى جعلته لا يعبأ بالتعذيب، فرديته اسهمت فى تعاليه، وشعورة بالنخبوية،

أنحـرفت به عن مسـار الثورة. لكنـها مـفيـدة هنا، هو الذى سيرهب هذا الرجل، خاطبه بعبارة جريئة:

- أنت لن تعلمنى الإسلام.

فوجئ عبد الصمد بهذه الإجابة، تردد لحظة، لا يريد أن يستنيم لهذا الشيوعى، ولا يريد له أن يمضى فى شجاعته، رد عليه ردا مقتضبا.

- أنت غير جدير بجهودى، لن أنفق وقتى فى هداية كافر.

مضى الثورى فى ممارسة شجاعته وقال له:

- أنت لاتملك تكفير الناس. الله وحده يعلم المؤمن من غير المؤمن.

- هناك دلائل على كفر المرء. ها أنت ذا مثل للعاصى، تارك الصلاة.

- عال، أنت قلتها بنفسك: عاصى وليس كافرا.

- العاصى كافر.

- أنك بهذا ستكفر الكثرة من المسلمين أغلبهم عصاة بطريق أو بأخر.

سكت وجيه هنيهه، بعدها أقدم على خطوة أكثر شجاعة.

- أيكون العيب فى تفكيركم وأن فهمكم للإسلام قاصراً؟

هاج عبد لاصمد، أنتفض كالطود، سد فراغ الزنزانة، الضيق، وجيه وضع الأستعداد، أنتهت غضبة عبد الصمد بعبارة مألوفه:

- الملحد لايملك أن يفتى فى شئون المسلمين.

- كانت العبارة هينة، دفعت وجيه للمضى فى عدوانيته.

- من أين تعلم أننى ملحد ولست مسلما.

وأراد أن يستخدم ذكاءه وأن يوجه للأصولى لكمة ماكرة، فاستطرد:

- أنا مثلا أزكى وأنت تمنع الزكاه.

- خسئت إذ نطقت كفراً.

- لاتحاول الهروب بالشتائم، لتخفى ضعف حجتك. أجب على سؤلى. أراد الإسلامى أن يمكر ايضاً بالشيوعى، أخفى شخصيته، وقال:

- أنا فقير ليست لدى أموال أزكى عليها.

- هل لاتعمل وتتقاضى أجراً تزكى عليه؟

- لا أنا لا أعمل

- من الذى يطعمك ويكسوك؟

- أخى.

- إذن أخوك فى الجنة وأنت لن تدخلها.

- إنه لايصلى.

- مازال أفضل منك حتى ولو مكثت تتهجد طول الليل. ألم تق
حديث النبى (ص) فى هذا المجال.

- صلى الله عليه وآل بيته والتابعين وتابع التابعين إلى يو
الدين، لا لم اقرأه. أخذ وجيه مظهر العالم (حتى فى شئون الدي
وموقف الأستاذ من عبد الصمد:

- عليك أن تقرأ كثيراً. وتستوعب ما تقرأ.

يبدو أن الشعوربالنخبوية قد عاود الشيوعى القديم مرة أخرى
شجعه على ذلك أن عبد الصمد قد أقنع نفسه بأن يكون حليماً هاد
فى حواره مع الشيوعى لعل الله يمنحه من أمره رشداً فاجأ وجي
عبد الصمد بعبارة مربكة، غير متوقعة:

- أنت فقير وعاطل لكنك تطلق لحية مسترسلة، تماثل لحى
أصحاب شركات توظيف الأموال.

أجاب عبد الصمد محافظاً على هدوئه.

- ما الذى أدخل الفقر والغنى فى اللحى؟

- إنها كلها مرتبطة.

- لكنك وعدتنى بأنك لن تمس العقيدة، ومنها مظهر رسول الله
صلوات الله عليه فقد كان ملتحيا.

ـ الرسول كان وسيما هكذا قال الأقدمون، ونحن نسمع أنه كان ملتحياً، لكن من المنطقى أن لحيته كانت مهذبة.

وعلق الإسلامى.

ـ هذه ليست مسألة أساسية.

ـ اتفق معك، أنا أشرت إلى اللحى، لأنها تستخدم بواسطة فريق يستغل الإسلام لينهب أموال الناس وكدحهم، كما هو حال أصحاب شركات توظيف الأموال.

ـ كيف تهاجم الشركات الإسلامية التى تمثل الاقتصاد الإسلامى؟

ـ إنها ليست شركات إسلامية أصحابها يستخدمون الإسلام فى نهب أرزاق الناس ولذلك فهى شركات تخرب الإسلام.

أما الاقتصاد الإسلامى فتعبير ابتكرته الرجعية والرأسمالية ويساق وراءه نفر من الاقتصاديين المسلمين حسنى النية وروج له فريق من المرتزقة، ويراد به أضفاء قدسية على الملكية الخاصة لرأس المال وعلى استغلال الإنسان للإنسان.

وراجعه عبد الصمد:

ـ القرآن يقول: أحل الله البيع وحرم الربا.

ـ لنهم يوهمون الناس بأنهم لا يتعاملون فى الربا وهم غارقون فيه إلى ذقونهم.

- لاتثرنى بحكاية اللحى والذقون وإلا أضعفت حجتك

- لاتؤاخــذنى إنهم يودعــون أمــوالهم فى البنوك الأجنبيــة، ويقتضون ربا وفائدة عليها والحكمة من الآية الكريمة هى إنها تحرم الربا، لأنها تحرم الاستغلال. فإذا ما استخدمت التجارة والبيع لاستغلال المسلمين والحصول على أرباح فاحشة، فهى حرام كالربا. بعض هذه الشركات تبيع اللحم مثلاً بأربعة أضعاف تكلفته، فإذا كانت الفائدة على القروض ١٠٪ مثلاً، فإنهم يكونون قد أرتكبوا جريمة الربا أربعين مرة.

حملق الإسلامى فى الشيوعى انتهز وجيه هذا التخلخل فى موقف زميله وأفرغ ما عنده:

- هذه الشركات تضارب فى العملة الوطنية، وتتجر فيها فى السوق السوداء. وهذا يعنى أنهم يبيعون الإقتصاد الوطنى بيعاً رخيصاً للأجانب ويضربون ملايين المسلمين ذوى الدخل المنخفض فى صميم أرزاقهم.

- كيف تسمح لهم الحكومة؟

- ربما تكون ضالعة معهم، هم كذلك يتجرون فى المخدرات.

- العياذ بالله، لا تقل هذا الكلام.

- خذ أكبر شركة من بينها رئيسها مدمن للمخدرات واخوه فى السجن تسبب الحوار فى خلخلة أفكار عبد الصمد، أزدرد ريقه

صعوبه قرش على دروسة أحدثت صريراً واضحاً، شعر بأنه ستنام لهذا الشيوعى، الذى يوشك أن يدهم مبادئه، اتخذت ملامحه جية واضحة وقال لوجيه:

ـ لو قال هذا الكلام مسلم لقبلته منه أما وأنت ملحد فكلامك

المأزق:

ـ مادمت مصراً على تلحيدى فأنت حر، هل تستطيع أن تناسانى وتناقش افكارى، يبدو أنك موافق عليها، إذا قال بها مؤمن.

ـ نعم بشرط أن تكون مؤمنا حقاً.

فاجأ وجيه زميله بالقول:

ـ إذا كنت تعتبرنى ملحدا، فأنا أريد أن أعلن إسلامى على يديك.

ـ أنا لا أثق بك، فقد تكون مضمرا لشئ آخر.

ـ الرسول (ص) يقول: «علىّ أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر».

ـ الإسلام أن تؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الأخر وتنفذ أركان الإسلام الخمس.

ـ أشهدك على أنى «أشهد أن لا اله ألا الله وأن محمدا رسول الله»، وأن أصلى وأصوم وأزكى وأحج البيت عندما استطيع إليه سبيلاً.

فرح عبد الصمد إذ أنقذ ملحدا، وأسلم إنسان على يديه، وتحدث المسلم الجديد:

- الآن، وقد أسلمت على يديك، أرجو تتعهد أن بقبول قولى، إذا كان يتسق مع العقل ويستهدف مصالح الكافة.

- أعدك.

- هل نتفق على أن نتخفف فى الحديث وأن نمزح حتى نمزق الكآبه التى تخيم علينا.

- أوافق.

- تغرينى العودة إلى اللحية أرجو ألا تخلق لديك حساسية. فهى ليست دليلاً على الإسلام.

- يظهر أننى سأكفرك مرة أخرى!

ضحكا معا، قبل أن يواصل وجيه الحديث:

- اللحية يرتديها اليهود والمسيحيون والبوذيون والكونفوشيون ويطلقها الشيوعيون والرأسماليون وكذلك الملحدون.

- لكن الرسول (ص) كان يطلق لحيته..

- قلنا إنها كانت مهذبة.

- ماذا تعنى؟ هل لحيتى غير مهذبة، تريدنى أن أشذ بها؟

- ياريت.

ـ ده بعدك.

ابتهج وجيه كثيراً، اصبح الأصولى العاتى فكها فى ردوده، إذن فهو ليس متزمتا فى الجوهر، كما يبدو فى المظهر، الأمل كبير فى صحبته ضرب له على وتر حساس: فقر الكثرة من عبيد الله التى تفترسها القلة الغنية المترفه، أليس عبد الصمد ألا فقيرا عاطلاً، ينفق عليه أخوه، عبد الصمد لم يعلن عن شخصيته بعد، لكنه كان إنساناً متعاطفاً مع الفقراء. يحس أوجاعهم ويدرك البأساء التى تغشاهم، يستمع إلى الشيوعى بشغف، كان يكرهه كراهية شديدة يقاوم فلسفته، ولكنه يقول كلاماً مقنعاً، وهو يتفق معه تماماً، ولو إنه ملحد: العياذ بالله ما أظلمنى: لقد أسلم على يدى قال له:

ـ وما الحل؟

ـ ملكية الشعب العامة لوسائل الإنتاج، تمنع الاستغلال وتدفع بالتنمية والعمران قدماً.

ـ انت بارع فى الحوار، تستخدم مهارتك لأقناعى بأفكارك لكن

سكت عبد الصمد برهه بدء فيها متردداً، ثم ألقى بجملة ماحقه:

ـ كلامك منطقى وجميل لكن الكلام الثورى يقبل من إنسان، يتسق سلوكه مع فلسفته السياسية، أما إذا كان هناك تناقض بينهما، فهيهات أن تستمع الجماهير إليك.

شحب وجه وجيه على الفور، أنتهز عبد الصمد الفرصة وألقى بثقله:

- أرجو أن تسمح لى بالقول، بأنك لست قدوة طيبة لهذا الكلام الذى كنت تقوله.. خذ أولاً هذا السيجار الضخم الفاخر الذى تدخنه هذا شعار للعظمه يستخدمه المليونيرات والباشوات.

- السلع الاستهلاكية مباحة فى الاشتراكية.

- أى سلع استهلاكية؟ البلاد الاشتراكية تعطى أولوية لسلع الاستهلاك الأساسية :الخبز والمسكن والملبس والغذاء والتعليم والصحة وليس للسيجار الفاخر والويسكى. أحسبك تشرب الويسكى.

جدية الحوار وانعراجه ضد اليسارى، لم يمنعاه من أن يجيب أجابة فكهة:

- كنت أشربه قبل أن ألقاك أما وقد أسلمت على يديك فلن أشربه

- أقول لك قولا جاداً: إن الجماهير لا تقتنع إلا بالقائد الذى يسلك سلوكاً ثورياً أما المترفون فلا تثق الجماهير بكلامهم.

رد عليه وجيه، رداً فيه نقد ذاتى:

- هب أننى اشتراكى منحرف كما كنت مسلما ملحداً فى نظر القوى الرجعية، هأنذا أعترف بأخطائى هل الأعتراف بالخطأ يشفع لى، أن تتقبل تحليلى الموضوعى.

ـ اقبل بشرط واحد، هو أنه تعترف معى بأن قيادة بعض المثقفين للحركات الثورية الاشتراكية فى الماضى، لم تكن المنهج الصحيح أنعزلوا عن الجماهير، لذلك فشلوا.

مكث وجيه يحملق فى وجه عبد الصمد، ثم قال:

ـ أنا موافق إذا أتفقت معى.

ـ أتفق معك وهذا لا يعنى أننى تحولت إلى فلسفتكم الثورية!

******

(٦)

الا قاتل الله السياسة، هذان الزنبوران اللذان ظلا يزنان ساعات طويلة كانا استاذين فى الجامعة لم يتعارفا، تعارفا إنسانيا بسيطاً، قبل أن يبدأ الحديث. ركبهما تعال جاهلى، رغم إنهما يؤمنان بمبادئ تنتصر للجماهير: أحدهما يتخذ من الإشتراكية طريقاً. والآخر يتخذ من الدين سبيلاً، لعله التسطيح السياسى فرض عليهما لأول وهلة سلوكاً غير سياسى. رأى الإسلامى الرفيق الشيوعى. عرفه من وجهه، رأى صوره فى الصحف، فقد شغل مناصب وزارية، ورأى وجيه رفيقه الملتحى فنفر كل منهما من الآخر نفوراً غريزيا، أمر

جدير بالتأمل، عالمان، لم يؤثر العلم فى سلوكهما، وجيه فى نظر عبد الصمد هو الملحد الشهير، وهو فى نظر وجيه الأرهابي الخطير.

كان وجيه أستاذا فى الاقتصاد، وعبد الصمد استاذا فى الطب تجمعهما الجامعة، وتفرقهما السياسة، وتضمهما زنزانة واحدة يبدو أن الزنزانة نجحت فيما فشلت فيه الجامعة. جعلت المتخاصمين يتحاوران، قرب الحوار بينهما. كان للأعتقال فضل أكبر من العلم. غير أن الخلفية العلمية دفعت بالجدل، ليكون موضوعياً، فوصلا إلى ما وصلا إليه.

ومع ذلك أحدث الحوار فى وجدان عبد الصمد أثرا عميقاً، تساءل ما الذى جعل هذا الرجل شيوعياً؟ إنه ذكى، شخصيته جذابة، مثقف استاذ، ليس فقيراً كادحاً، لو أختار الجانب البرجوازى لبلغ الصدارة فيه، ولجمع أموالا كالذين يجمعون لعل قوى روحية هائلة دفعته ليتخذ جانب الجماهير، وليخضع لكل صنوف القهر والاعتقال، انني أسمع عن تعذيب بشع تعرض له، وعن شجاعة نادرة قاوم بها القاهرين، إنه يتحدث عن بؤس الأكثرية الفقيرة، وكأنه واحد منهم.

وهو ليس ملحدا، كما يقول أعداء الأشتراكية، متفهم للشريعة مؤمن بها، يدخل عليها صياغة علمية لتنظيم المجتمع. لينتفى فيه الاستغلال، الفارق بينى وبينه، إنه يستخدم العلم والعقل سبيلاً لتحرير الإنسان، وأنا استخدم الدين للهدف نفسه. لقد اصب

مسلماً على يدىّ وبدأ يصلى. والدين ينادى بالعلم. فنحن الأن متلاقيان.

الجدل معه فتح عينى على قراءات لم اضطلع عليها، جعل المعرفة والعلم على بعد خطوات منى وليس فى الصين كما قال الرسول: «اطلبوا العلم ولو فى الصين».

دراسة الطب لفتت نظرى إلى عظمة الله، كلما توغلت فى تشريح جسم الإنسان وأعضائه وتناسق وظائفها ودقة عملها، كلما زدت إيماناً بالخالق وابداعه، لكن للجسد الإنسانى روحاً تربط الإنسان بالإنسان، وتتطلب مجتمعاً يعيش الإنسان فيه كريماً. لا يمكن أن يبدع الخالق هذا الإنسان بتكوينه العبقرى المعجز، ثم يرتضى له نظاماً اجتماعياً يمتهن فيه ويستغل.

انا كذلك لست فقيرا، لكن الشعور الإنسانى المرهف، الذى ركبه الخالق فى أعصابى جعلنى محباً للإنسان، أهفو لتحرره، عندما اخترت الطريق الإسلامى، كان تكريم الإسلام للإنسان جزءا من عقيدتى، أننى مع كل نظرية تحارب امتهان الإنسان وإستغلاله.

يؤسفنى أننى لست فقيراً، لن أتمكن من الأنضمام إلى صفوف الانبياء والشهداء، كان النبى فقيراً، كذلك كان المسيح، وموسى وغيرهم، هذه قرينه على أن الله يخص الفقراء بالقيادة، أختار الأنبياء من بينهم. أى من بين الكثرة الكثيرة من خلقه. لكننى لا ذنب لى فى أن اكون طبيباً ذا دخل كبير العبرة بإيمانى ونضالى

لتعيش الجمهرة الغفيرة من خلق الله عيشه كريمة. حينئذ سأكون مؤهلا للدخول فى زمرة الفقراء والأنبياء.

هذه التقوى التى تعمقت فى قلب عبد الصمد، رافقته منذ كان طبيباً شاباً يعمل فى احد المستشفيات القروية، قبل أن يحصل على الدكتوراه ويصبح استاذاً فى كلية الطب. كان المرضى يغدون إليه أفواجاً، تطحنهم الملاريا وتنفخ البلهارسيا بطونهم، وتحنى ظهورهم، يشوه سوء التغذية ملامحهم ويقبح صورتهم، التى أبدعها الخالق، كان يتعاطف مع المرضى. لم يكن يملك لهم علاجاً شافياً. الدولة لاتعنى ببنيها، لا تقدم لهم الغذاء والدواء. عظمة الخالق ماثلة أمام عينيه فى هذا المخلوق. ويتساءل: كيف يعيش فى مجتمع، يفرض عليه التخلف والمهانة. لامراء أن المستغلين للإنسان والمتسببين فى فقره ومرضه، هم خصوم الخالق وأعداؤه.

الحوار مع رفيق الزنزانة لفت نظره إلى أن النظام الاجتماعى فى الدنيا هو أمر من صنع الإنسان. وأن العلم طريق الوصول للمجتمع الأفضل. وأن على الإنسان أن يناضل فى سبيل قيام المجتمع العظيم، الذى يتسق ومكانته كمخلوق معجز من صنع الله.

******

(٧)

كان الحاكم شفوقاً اقتصرت شفقته على أبناء طبقته. شهاب الدين باشا يمثل الفرع الاقطاعى للطبقة، كان السلطان فى فترة فقره يحلم بالأنتماء إليها. إلا أن السلطة والثروة تجعلانه عضوا فيها، الباشا ركن من أركان هذه الطبقة. يجب أن يظل راسخاً. القهر الشديد فى المعتقل يزعزع هذا الركن. كذلك حسان الصحفى الشهير ابن مخلص من ابناء النظام خدم الزعيم الراحل وخدمه، إنه منهار نفسياً، يجب التخفيف عنه، ما تبقى للزعيم الراحل من أنصار قلة. تقودها مجموعة سجنها لتآمرها عليه. معظم المؤيدين للزعيم، الذين يقودون القطاع العام والجهاز السياسى، أصبحوا من أنصاره.

المتدينون هو الذى صنعهم، ودعم جماعاتهم فى الجامعات، بعضهم تطرف، هؤلاء يمكن التعامل معهم. أغلبهم طامحون. تتلاعب الراسمالية بخيالاتهم الفارق بينهم، وبين حاشيته أن هؤلاء يستغلون الناس باسم التنمية الوطنية. وأولئك يبتزونهم باسم الله والدين. لقد جمع هو بين الحسنيين: أطلق على نفسه: «السلطان المؤمن».

أما الشيوعيون، فهم العدو الحقيقى. مازال ١٨ و ١٩ يناير، ينغصان حياته، مافتئت هتافاتهم ضده، تدوى فى أعصابه، الويل

لهم كل الويل.

على أية حال، أنباء المعتقل تفيد، بأن المسجونين من طبقته، يعانون معاناة شديدة، بدأوا يتذمرون، وهو لايريد أن تتفسخ الطبقة، يريدها صامدة للحاقدين عليها.

ناوشت السلطان، هذه الخطرات جعلته يخفف الوطء عن المعتقلين. فتح الزنازين لهم أثناء النهار، سمح لهم بالاجتماع معاً فى الصالة الكبيرة، حدث تخفف فى تسريب المأكولات، والصحف والكتب، إلى داخل المعتقل، تسبب هذا فى تسريب أنباء المهانة التى يتعرض لها المعتقلون إلى الخارج، أحتجت الصحافة الأجنبية على معاملة النخبة المستنيرة فى مصر، معاملة غير إنسانية، ضربت أمثلة: الزنازين المزدوجة بين المتخاصمين سياسياً، الطوابير المهينة، جمع المعتقلين، ليطلعوا اجباريا على أمجاد السلطان فى التليفزيون.

جن جنون السلطان. كيف تتسرب هذه الأسرار إلى الصحافة الأجنبية؟ علاقته بالدول الرأسمالية المتقدمة. علاقة فكر، وطبقة. وطريقة حياة يجب أن يرضى الرأى العام الأجنبى، عقد مؤتمراً صحفياً، دعا إليه مراسلى الصحف والأذاعات الأجنبية، تحدث عن ديمقراطيته، وعن الإنسانية المنسابة فى معتقلاته، سيدعوهم لزيارتها وسيتحادثون مع المعتقلين.

أعد السلطان خطته. أرسل بعض وزرائه للقاء المعتقلين

ـارزين، كالباشاوالصحفى، بادرهم الصحفى والبأساء تغشى وجهه:

- ماذا تريدون منا بعدما فعلتم بنا؟

ورد عليه مدير المعتقل:

- نحن لم نفعل بكم شيئاً. لم يمسك أحد.

- هل كنتم تريدون أن تمسونى جسدياً؟

- أنت بصفة خاصة تعلم ماذا جرى للمعتقلين فى عهدى الزعيم والسلطان.

خفت عصبية الصحفى، طافت بضميره غمامه، صعدت قاتمة إلى وجهه، قال منكسا رأسه.

- ماهو المطلوب منا؟

أجاب أحد الوزراء:

- الصحفيون الأجانب سيزورون المعتقل، نرجو أن تتحادثوا معهم دون تذمر أو غضب أنهم أنكياد وأحرار سيثيرونكم باسئلتهم لا نثق بأنكم حصيفون. وستؤدون واجبكم نحو بلدكم. نرجو أن تمكنونا أن نشفع لكم عند السلطان للأفراج عنكم.

كانت الصفقة عادلة: سكوت عن ذبح الحرية وأشادة بالسلطان ونظامه، مقابل أن يبذل الوزراء جهداً لدى السلطان لأخلاء سبيلهم،

كان هذا الفريق من المعتقلين أمينا، نفذ أتفاقية الجنتلمان، التى عقدت مع وزراء السلطان حرفيا.

جاء الصحفيون الأجانب. ألتقوا بنخبة من المعتقلين: صالة فسيحة مقاعد مريحة المناضد عليها مشروبات مثلجة، وساخنة،التليفزيونات الملونة. لا تنقل لهم صور السلطان، ولكن أفلاماً ومسلسلات أجنبية. كان الحديث بين أصدقاء صحفيين من الغرب عاطفين على نظام السلطان. رأسمالية السلطان رأسمالية تابعة للرأسمالية العالمية يفتح أرضه وسماءه وبحاره، ترتع فيها الاساطيل والجنود. والاستثمارات الأجنبية.

دار الحوار، بين الصحفيين الأجانب، والمعتقلين الصفوة:

ـ كيف تعاملون؟

ـ معاملة طيبة

ـ هل تقرأون الصحف؟

ـ هاهى فى أيدينا. هذه هى مجلة «التيم» الأمريكية وهذه صحيفة الواشنطن بوست.

ـ هل هناك تعذيب؟

ـ على العكس، هناك ترحيب.

ـ ما حال الطعام؟

- جيد.

- ماذا فعلتم ليحضروكم هنا

- سوء تفاهم بسيط مع السلطة سوف يزول

- هل سيفرج عنكم؟

- يقال لنا ذلك

- هل من طلبات نبلغها للرأى العام العالمى؟

- تحياتنا.

ذهل الصحفيون لهذه الأجابات، كانوا يتوقعون ثورة على السلطان. وشكوى من قتل الحرية والديمقراطية، أو من تعذيب تعرضوا له، لا شئ.

وعندما أوشك اللقاء على الأنتهاء، وهم الصحفيون بالرحيل، صاح أحدهم:

- أين الشيوعيون؟

أحدث سؤاله أرتباكاً، أسرع ضابط من حراس المعتقل يجيب:

- كل المعتقلين هنا

عاجله الصحفى

- هذا ليس صحيحاً، انا أعرف شخصياً بعض المعتقلين الشيوعيين إنهم ليسوا هنا.

أجاب الضابط أجابة هادئة:

- أنت تعرف أن عدد المعتقلين كبير لاتتسع هذه القاعة لهم جميعاً.

كان مصورو التليفزيون قد توقفوا عند هذا المشهد الأخير لم يلتقطوا هذا الجزء من الحوار، عندما علم السلطان بهذه الواقعة أصدر أمراً بمنع هذا الصحفى من دخول المعتقل مرة أخرى. بل اكرهه على مغادرة مصر. كان مراسل جريدة الإيمانيتية الشيوعية الفرنسية.

******

(٨)

كان معتقل الرجال لصيقاً بمعتقل النساء، كأن النساء لايتركن رقاب الرجال، حتى فى السجون. تفصلهما ستارة كثيفة بيضاء، هى الشئ الأبيض الوحيد فى المعتقل، الذى يغلب عليه اللونان

الأسود والكاكى الستارة تعكس ظلال النساء، أثارت تلك الظلال انطباعات شتى. خشى الهاربون من المتزوجين بحرياتهم إلى المعتقل، أن يلاحقهن النساء. فتسفك حريتهم مرتين، بدلا من أن يفترسها الحراس وحدهم. تلك الظلال، أنعشت العزاب من المعتقلين، لم يكن يعنيهم أن النساء طاعنات فى السن أم غير طاعنات مبطرخات أم نحيلات.

على أن أثر أشباح النساء على المتدينين كان مختلفاً: كانوا يلوون أعناقهم بعيداً عنها، تتراءى لهم شياطين تتحرك بالرجس، كان الله خص الرجال بالنقاء والنساء بالفجور، وكأنهما لايشتركان معاً فى وجود الإنسان، الذى يعمر كون الله. لم يشفع للنساء عندهم أنهن جئن إلى المعتقل أحراراً مثلهم.

ومع ذلك فما حدث فى زنازين النساء يجعل منهن شيطانات رجيمات، وزع السلطان النسوة على الزنزانات، كما فعل بالرجال: الأتجاهات السياسية المتنافرة، وضعت فى زنازين مشتركة. على أن النساء كن أكثر حظا من الرجال، كانت زنزاناتهن ثنائية وثلاثية ورباعية.

الخليط، الذى وضع فى إحدى الزنزانات غير عادى: استاذه ليبرالية من اساتذة الجامعة، فلاحه شابه، وثالثه تكفيرية. لم تكتف بالحجاب، ارتدت نقاباً أسود وكانت الرابعة صحفية ماركسية.

حينما رأت النسوة الثلاث هذه المنقبه اصابهن تقزز. أشحن

بانظارهن بعيداً عن هذه الجنيه السوداء تساءلت الصحفية، نادرة، فى زفرة حارة:

ـ كيف يمكن أن تئول بنا الحال إلى هذا المآل؟

اجابتها رهيفة، الاستاذة اللبرالية التى تتعاطف مع الجماهير وتخاصم الرأسمالية الاحتكارية فحسب، قالت:

ـ لقد رجعنا إلى الوراء اكثر من سبعين سنة، ضاع الجهد الذى بذله قاسم أمين وهدى شعراوى وغيرهم.

وعلقت نادرة:

ـ الحق أننا تأخرنا أبعد من ذلك. النقاب أو الحجاب الذى كان سائدا فى ذلك الوقت، كان مقبولاً، لونه أبيض، لا يطبق على العين فيطمسهما، ولا على الأنف فيكتمه، أو على الرقبة يخنقها.

كان الكلام يدور همسا. المنقبة فى الركن البعيد، الفلاحة الشابه تتسمع الهمس، زحفت على أرضية الزنزانة اقتربت منهما، ترددت الأستاذه فى مواصلة الحديث، طمأنتها الصحفية: البنت الفلاحه، مستنيرة وصديقه، قالت الليبرالية.

ـ هذه الظاهرة ترجع إلى المشايخ الذين يسيطرون على التليفزيون والإذاعة، الجماعات الدينية التى لاترى فى الدين الحنيف، إلا أنف المرأة وأسنانها عورات. لعله الفساد الاقتصادى والاجتماعى الذى استشرى فى الحكم فحاول البعض الهروب منه: النسوة

يخفين وجوههن خلف النقاب، والرجال يتدثرن باللحى.

الفلاحة تستمع، بقيت ساكنة، هذا حديث بين مثقفات، لاتستطيع الاسهام فيه، تعليمها ابتدائى فحسب، خاضت الأستاذه والصحفية فى الرجعية التى تفرض هذا القناع الأسود على وجوه النساء وعقولهن، على الرغم من اهتمامها بالحديث، كانت الفلاحة قد تشاغلت بفكرة شيطانية، أخذت تغازلها وتلح عليها. لم تفصح لزميلتيها الصحفية والأستاذه بما تريد الأقدام عليه، خشيت أن يمنعاها، كذلك أحبت أن تقدم لهما مـفاجأة. لم تعبأ بالمتاعب التى قد يسببها العمل، الذى صمم مزاجها على القيام به.

كانت المنقبة منعزلة فى ركن الزنزانة لم تنطق بكلمة واحدة، كان واضحاً إنها تقاطع زميلاتها، أنهن من الكافرات، مادمن لايتنقبن، زحفت الفلاحة ببطء نحو المنقبة. بحركة خاطفة مدت ذراعيها امسكت بيديها طرفى النقاب، نزعته بقوة.

تهللت المثقفتان فى بسمة كالبرق خبت على الفور، حين اسفر النقاب عن وجه قبيح، شوهه الفقر وحفر فيه الجدرى حفرا غائرة، لم يكن الدين وحده هو الذى جعلها تخفى وجهها، ولكن الموبقات الاجتماعية مسخت ملامحها. حينما دار هذا المعنى فى أذهان رفيقاتها، سح الدمع من عينى الآستاذه، وأسبل الاسى عيون الصحفية والفلاحة..

اسفت الفلاحة على فعلتها اسفا بالغا، لكن الأسف لم ينقذها من

يدى المنقبة، عارية الوجه، اطبقت على رقبتها تريد قتلها. اسرعت السيدتان لأنقاذ الفتاة من قبضة المنقبة الطعينة ومنعتا وقوع جريمة قتل فى معتقل النساء.

القت المنقبة بنفسها فى ركن الزنزانة، اجتاحها نشيج حزين تخللته كلماتها المتقطعة:

- ماذا أصنع؟ ليس لدى خيط، لأرتق النقاب.

فرحت الفتاة الريفية لأن البومة نطقت، قالت لها:

- لست فى حاجة إلى النقاب. أنت هنا بين نساء ليس بيننا رجال، أرتداء النقاب سببه الخوف من اغراء الرجال، وحماية المنقبة من العدوان عليها، وهتك جمالها.

- الاحتياط واجب، ربما يدخل الضابط الزنزانة فجأة.

لم تقل لها الفلاحة، إنها لن تفتن احداً من الرجال، هى إنسانة، خلقها الله، ليس لها دخل فى قبح ملامحها، وهى ضحية الفقر والمرض اللذين فرضهما نظام اجتماعى شائه. مصيبتها أن قوى التخلف، لم تكتف بتشويه وجهها. بل مسخت عقلها. أوحوا لها أن الخطأ ليس فى النظام الذى أنتج البأساء، التى تجيق الإنسان، ولكن الخطأ فى كشف وجهها. يجب أن تداريه عن الرجال، هؤلاء لا هم لهم ولا مهمة إلا النظر إلى وجه المرأة ثم اغتصابها.

المنقبة فى محنة. لم يكن نقابها ممزقا فحسب بل كانت نفسيتها

كذلك كانت حريصة على أن تدارى وجهها بيديها، حتى لا تراه هؤلاء النسوة، اللائى يحظين بقدر كاف من الجمال، رغبت الفلاحة فى مواساتها، تريد أن تكفر عن فعلتها. أخذت تجر رجلها إلى الحديث:

- لايهمك الآن من النقاب، فنحن نسوة.

اجابتها المنقبة العارية الوجه:

- لن احادثكم إلا إذا خيطت النقاب.

- أعدك بأصلاحه.

- لا أطمئن لوعدك.

لم تكن المرأتان الآخريان فى وضع يمكنهما من معاونتها. لكن الفلاحة انتظرت حتى موعد الغداء. كانت قد وطدت علاقاتها بالحارسات. عندما جاءت الحارسة بالغداء قالت لها.

- ياحضرة الضابطة..!

كانت الحارسة، برتبة انباشيه.

- وحياة عيونك الحلوة.

كانت عينا الامباشية حمراوين منتفختين

- انا عايزه أبره وفتله

ردت الامباشيه بصوتها العسكرى الأجش، الذى خشخشه الصراخ فى المسجونات وتدخين السجاير.

- عايزاهم ليه

- اريد ان اخيط نقاب الأخت.

نظرت الامباشية إلى المنقبة نظرة غير راضية، لكنها جاءت بالأبرة والفتله، رتقت الفلاحه لها النقاب. فرحت المنقبة به فرحاً بالغا.

******

(٩)

جاء المساء احتلكت الزنزانة بلون الليل، انبلجت من وجدانات النسوة الثلاث، شعاعات حانيات، كأنها تصدر عن روح واحدة. خاطرات مشتركة تخايلت لهن.

هذه امرأة ضحية المجتمع الذى تعيش فيه. ربما أكون أنا مشاركة فى المسئولية عما حدث لها، تركتها للقوى الرجعية. طمست على عقلها، ولفته فى النقاب، فقتلت قواها الخلاقة وحرمتها من الأسهام فى حضارة مجتمعها وتقدمه. هى ضحية استغلت، لم تجد منا من يريها طريق التقدم. الدنيا تنكرت لها . لم تكتف بأن منحتها مجتمعاً قبيحاً بل منحتها وجهاً قبيحاً كذلك. لعلها ارادت أن تهرب من قسوة

الدنيا فدارت وجهها عنها، ولجأت إلى الآخره، استمعت لرجال صبوا تخلفهم فى رأسها، أسدلوا عليه نقاباً، يحجب عنها نور العلم والتقدم والحياة.

امتلأت نفوس النسوة الثلاث بالشجن: لهفى عليك يا أختاه، ماذا يمكن أن أقدم لك؟ كيف يمكن أن أنقذك من الهجمة الجاهلية التى تلوث عقلك. أعظم ما خلق الله للإنسان. كيف يمكن أن استردك مرة أخرى لدنيا الانتاج والأبداع؟

جالت تلك الخطرات فى أذهان النسوة الثلاث. لكن الفلاحة الشابة كان ضميرها أكثر ارتياحاً. قامت بدورها بين الفلاحات زميلاتها فى التنظيم الثورى الذى تنتمى إليه، فلاحاتنا سافرات، تتهادى الشابات منهن فى القرية وحقولها، يرتدين الملابس الملونة والمناديل بالأوية، تهفهف على رؤوسهن طرح طليقه، لاتخفى ماحباهن الله من جمال، شعورهن تنساب كأفنان الأشجار. كيف يدارين وجه الإنسان. أكرم المخلوقات عند الله. ويحرمن الدنيا من أجمل صورة يعتز بها الخالق، صورة خليفته فى الأرض.

أما الأستاذة الجامعية والصحفية فقد تعرضتا لتأنيب أشد، لم يفعلا شيئاً لأنقاذ مثل هذه الفتاة من أنياب القوى المتخلفة، أنهما تشغلان مواقع حساسه فى الجامعة والصحافة، هذان ميدانان أنبثق منهما تقدم الأمم.

طالت السرحة بالنسوة الثلاث، بينما كانت المنقبة تغط فى نوم

عميق، صاحبه شخير خفيف، النقاب يحبس أنفاسها من الأنطلاق، هى متزوجة من تكفيرى فرض عليها هذا النقاب الأسود السميك. هبت من نومها مذعورة، تصرخ، يبدو أن كابوساً جثم على صدرها، أنخرطت فى بكاء حاد، فزعت رفيقاتها، أقتربن منها، إنسانه مظلومه فى حاجة لرعايتهن.

حاولت رهيفة ونادرة استخدام مبادئ علم النفس فى علاج المرأة التعيسة. أدركتهما الشابه الفلاحة. كانا يحرثان فى البحر قالت لهما:

- خل عنكما ما هذا الذى تقولان؟ هذا كلام فى الكتب للمثقفين والمثقفات فقط، غير قابل للأستخدام العملى، دعانى أخاطبها حديث النفس للنفس، النفس غير العليمة بعلم النفس.

إقتربت الفلاحة من المنقبة تحاول أن تكفكف دمعها:

- يا أختاه ما الذى أزعجك؟

بادرتها المنقبة على الفور:

- إبعدى عنى. لاتلمسينى، أنت كافره

لم يثبط ذلك من عزم الفلاحة.

- أنا يا اختى مسلمة وموحده بالله.

لم ترد المنقبة عليها، تشجعت على الاستطراد.

- نحن هنا فى أزمة، خصمنا مشترك أنتم تكفرونه، لأنه يكفر بالله، ونحن نكفره لانه يكفر بالإنسان.

- الله أعظم، هو الذى خلق الإنسان.

- هذا صحيح لكن الإنسان خليفة الله فى الأرض، ومادمنا خلفاء الله فى الأرض فالأجدر أن نتعاون للتغلب على مانحن فيه من محنة.

دهشت الأستاذة رهيفة من منطق الفلاحة همست للصحفية نادرة.

- ارايت إلى هذه الفلاحة وطريقتها؟ أنا وأنت، كنا نوغل فى بحث اكاديمى، لايصل إلى من يخاطبه يبدو أن المنقبة أخذت تستمع إلى هذه الفلاحة، ذات الحديث المعبر، فطنت الفلاحة إلى ذلك واصلت الحديث بنبرة أكثر رقه:

- اعتبرينى اختك، لا أختك فى الإسلام فقط ولكن اختك الحقيقية «رب اخت لك لم تلدها أمك». أنت الأن محزونة الحزن يرخى عليك ستاره فى اليقظة والمنام.

- كيف عرفت ما حدث لى فى المنام؟

- قمت من نومك مفزعه، لعل الهموم صاحبتك فى احلامك.

- هذا صحيح.

ترددت المنقبة برهة ثم واصلت الحديث، يبدو إنها أخذت تميل إلى

الحديث مع هذه الفتاة لعلها واجدة عندها ما يخفف اشجانها.

- رأيت حلمـا مـزعـجـاً جـاءنى زوجى وهو ذو لحـيـة طـويلة من جماعة التكفير والهجرة يصرخ فى وجهى وسألنى:

- كيف خلعت النقاب؟

واجبته:

- أنا لم أخلعـه، مـزقـتـه عنوة بنت شـيطانة مـسـجـونه مـعى فى الزنزانة.

- كان عليك أن تقتليها.

- لا أستطيع إنها شابة قوية معها سيدتان صديقتان لها.

– أنا الذى سأقـتلك كيف تحادثين نسـاء كافرات سـافرات؟ إن الله سيشوى وجوهـهن السـافرة فى نار جهنم.

- بعـد هذه الجـملة اكفـهـر وجهـه أحـمرت عـيناه أسـودت شـفـتـاه وأنفه وأذناه ثم امتشق خنجراً كان معلقاً فى جنبه وصاح مزمجرا.

- أنت كذلك كافرة تستحقين القتل.

رفع الخنجر وطعننى قمت مذعورة من نومى

وردت عليها الشـابة القروية.

- لا بأس عليك أهدئى ولاتـخافى.

- الحـمـــد لله. إذ كنـتم مــعـى فى الزنـزانة شكـراً لله. علـى أن

شاركتنى الزنزانة واحدة مثلك.

مضت الفلاحة فى أداء دورها الإنسانى، اخذت تواسيها هذه المخلوقة سيئة الحظ كما إنها لم تنس دورها الثورى. تريد أن تعرف سر تنقب هذه المرأة. قالت لها:

- هل كنت منقبة قبل الزواج؟

- لا

- هل هو الذى فرض عليك النقاب؟

- طبعاً .. لكنه لم يفرضه الدين فرضه علىّ طلب منى أن ألبس النقاب فالسافرات فى النار.

- هل أنت سعيدة بالنقاب؟

- لم لا؟

أجهشت مرة أخرى بالبكاء

اقتربت الريفية منها، ربتت على ظهرها اعطتها منديلاً، تجفف دمعها، أرادت الفلاحة أن تبعد ذهنها عن المعانى التى أبكتها:

- هل أتممت تعليمك الجامعى؟

- نعم أنا خريجة كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية

- هل هذا معقول؟

- اسمعى بقه أنت حتخلينى أعيط تانى وألا أيه؟

- لابس ده يخلينى أنسحب وأسيبك للستات المثقفات

- أنا أرتاح لحديثك أنت

كانت المثقفتان تتسمعان حوارالريفية والمنقبة الذى كان خفيضا، تظاهرتا بالنوم، حتى تأخذ المتحدثتان حريتهما فى الحديث، أحست الفلاحة أن تقاربا تم بينها وبين المنقبة. دفعت الحديث قدما. بدأت بدءا حذرا:

- هل هذا التفاهم يدفعنا لمزيد من المصارحة؟

- نعم.

- كيف تجزعين من وجهك كل هذا الجزع؟

صمتت المنقبة. لم ترد على هذا السؤال المفاجئ. طال صمتها، خشيت الريفية أن تثور أشجانها مرة أخرى. أسرعت بالقول:

- هل تعدينى، ألا تبكى مرة أخرى؟

• ترددت المنقبة بعض الوقت. لاتريد لهذه الفلاحة أن تسكت.

تريدها أن تواسيها ثم قالت:

- أعدك

- مهما كانت الصراحة قاسية، هى، على أية حال صراحة مخلصة.

- مهما كانت قاسية

- عـال عندمـا مـزقت نقـابك، لاحظت أن بكاءك لم يكن فـقط لاعتبارات دينية.

- هذا صحيح.

- أنت إنسانة مثقفه كيف تنظرين إلى وجهك هذه النظرة.

- هل أصارحك أنا الآخرى؟

- نعم أرجوك.

- لابد أن أعترف بأن وجهى قبيح.

- ماهذا الذى تقولينه؟

- هل نتعاهد كذلك على ألا تكون بيننا مجاملات؟

- أعاهدك.

سكتت الفلاحة لحظة، تفكر فى اسلوب فاعل. هـذه امرأة متعلمة تحتاج لحجج قوية لأقناعها، قالت لها:

- القبح والجمال، مسألة نسبية.

- كيف؟

- أنا لا أرى فيك قبحاً.

نظرت إليـهـا المنقبـة بعـينين دارى النقـاب أهدابهـا دون أن تتكلم، فرحت ، لعـلها ليست قـبيـحة، استنامـت لحديث الفلاحـة، استـمرت تخاطبها.

- دعينى أقول لك قولا بسيطاً، لو كنت قبيحة ما كان زوجك قد تزوجك.

همس بين المثقفتين، يبدو منه أعجاب بمنطق الفلاحة البسيطة.

ردت عليها المنقبة.

- هذا رجل شيخ متدين، يرضى بقليله.

- هل هو شيخ من الأزهر؟

- متخرج من الجامعة. من كلية الآداب.

- كلام جميل. هذا الرجل تفرس وجهك مدة طويلة، واعجبه وتزوجك.

- حظه سئ.

- لا، حظه بمب، أنا أخالف هذا الرجل فى فهمه للإسلام، وأعترض على فكره السياسى. إلا أننى أقدر ذوقه، لقد أختارك زوجة.

ضحكت المنقبة لأول مرة. مالت على الفلاحة الشابة لمست خدها باصابعها قائلة.

- أنت بنت شقية.

صمتت برهة، لاندرى ماذا حدث خلالها لوجهها، النقاب يغطيه، ولا يظهر خلجاته قالت لصاحبتها.

ـ تفترض جدلا أننى لست قبيحة كما تقولين، وكما يعتقد زوجى. أرأيت إلى هذا الهزال والحفر واللون الشاحب الذى خلفه المرض فى وجهى قفزت الريفية منتصبة على ساقيها، صفقت صاحت صيحة فرحة:

ـ هذا هو مربط الفرس.

كانت المثقفتان تصيخان السمع، حين وصل الحديث إلى هذه المرحلة تهامستا همسا ضاحكاً. أنتابهما جذل لم يستطيعا أخفاءه، من هذه اللحظة جاءت الحارسات بالعشاء، أنتهزت الفلاحة تناول الطعام، أهابت بالمنقبة أن تخلع نقابها، لتستطيع أن تأكل، قالت لها.

ـ تعاليمكم أن تتنقبى فى حضرة الرجال، وبغض النظر عن صحة لبس النقاب، أو خطئه، فأنت متعلمة، وتدركين أن حكمته فى هذه الزنزانة منتفيه.

ـ لكن قد يحضر ضابط المعتقل فجأة.

ـ ضباط المعتقل الرجال لايزورون زنازين النساء ليلاً.

ـ لكن زوجى لن يغفر لى خلع النقاب.

ـ زوجك ليس هنا.

ـ لكننى أود أن أكون أمينة معه.

ـ الأمانة لاتعنى الاستمساك بالنقاب، وأنت تأكلين، الأمانة كلمة كبيرة للمسائل الكبيرة.

خلعت المنقبة النقاب فى استحياء شديد خفضت من راسها وهى تأكل المثقفتان فى شغف بالغ لسماع الحوار بين الريفية والمنقبة خاصة بعد أن بلغ نقطة مثيرة ذكرا الفتاة باستئناف الحوار فطنت إلى غايتهما قالت لهما:

- كنتما تستمعان طوال الوقت وتظاهرتما بالنوم.

ضحكا، ولم يجيبا أردفت الفتاة:

- تدفعوا كام لاستئناف الحديث؟

- ندفع ما تريدين.

- قبل أن نسترسل، أود أن أقول، أن ما صنعه الفقر والجدرى فى وجه صديقتنا ليس كبيراً.

وأسرعت نادرة تقول.

- بأمانة هذه القوى أحدثت أثرا. لكن يمكن علاجه بكريمات طبية. ومواد تجميل أخرى.

تساءلت المنقبة فى لهفة شديدة.

- اية كريمات، هل تعطينى اسماءها؟

اعطتها الصحفية اسم الكريم ونصحتها أن تستشير طبيب متخصصا، ذكرت لها اسمه، وشكرتها المنقبة بصوت رقيق، ذهبت عنه الفجاجة، التى كانت تقربه من صوت الرجال، وتهللت الفلاحة.

ـ يالله ياستى ابسطى بقه سيبك من الأفكار الهدامة دى.

ضحكت المنقبة ومعها المثقفتان، اقبلت عليهم بوجهها الطبيعى مكشوفاً تخففت من أعباء نفسيه ثقيلة واصبح الجو مهيئاً للفتاة القروية. لتغوص فى نقاش، كانت لاتود أن تدلف اليه قبل الأوان، وحان أوانه:

ـ لعلى لا أضيف جديداً إذا قلت وأنت جامعية إن هذه الآثار صنعها النظام الاجتماعى، لو كان أبواك ليسا فقيرين، ما كان الجدرى قد فعل أفاعيله فى وجهك.

قاطعتها المنقبة قائلة.

ـ ألم تقلن أن آثاره ليست مشوهة؟

ـ هذا صحيح لكنها آثار لمرض أصاب وجهك عجز أبواك بسبب الفقر أن يعالجاه أو يقياك من المرض، شحوب وجهك يطبع الملايين من ابناء بلدنا وبناته. ويعكس فقر الدم، الذى سببه نظام يفرض الجوع، وسوء التغذية على الناس.

استمعت المنقبة إلى هذا الكلام فى تفكير عميق، قالت:

ـ هذه إرادة الله.

واسرعت الفلاحة لترد:

ـ لاهذه ليست إرادة الله هذه إرادة الطبقة التى تمسك بالثروة وتسحب الدم من عروق الملايين، يمكنها من ذلك سيطرتها على

ـسـسـصه، ارادت نادرة أن تتـدخل، أو عـزت لها رهـيفـة أن تتـريث فالفتاة قائمة بالدور باقتدار عجيب.

قالت المتدينة

ـ لكن الله خلق الخير والشـر وهذا شـر إرادة الله بالناس، فقدره عليهم.

وردت الريفية:

ـ لا أوافقك على ذلك. الله خير، لايفـعل إلا الخير ولا يصدر الشر عنه، الشر من صنع الإنسـان، فرداً كان أو طبقه، فـالله خلق الإنسان وكرمه، ولا يمكن أن يمتهنه.

ظلت المنقبة ساكته، ومضت الفلاحة:

ـ لهـذا كـان حـتـمـا علينا طرد تلـك الفكرة، الرجـعـيـون يحـاولون غرسـها فى أذهاننا، لكى نقبل الظلم، ولا نقاومـه، هذا شر، يجب أن نتكاتف لدفعه، وخلق مجتمع عادل، يكرم فـيه الإنسان، ويختفى فيه القفر والمرض.

كـان رفع النقـاب، وحـديث هذه الفـلاحـة الواعـيـة. قـد أذاب جليداً غلف عقل المنقبة. أرتفـعت معنوياتها لـم تقلع عن عقيدتهـا، وستعود للبس النـقـاب، لكن الخلخلـة التى أحـدثتـهـا هذه الفـتـاة فـى أفكارها كانت واضـحة، جـعلتهـا تستـمـع برغبـة، إلى فلسفـة أخرى غيـر تلك التى صبها زوجها فى جوفها.

******

(١٠)

صراخ مرتفع ضجة كبيرة، هرولة فى ممرات المعتقل: «صوات النساء» المألوف فى الأحياد الشعبية والقرى، أنتقل إلى المعتقل، ايمكن أن تنشأ معارك بين النساء المعتقلات ومعظمهن مثقفات؟ تستخدم فيها الصوات والصراخ، وشد الشعور؟ نظرت النسوة الأربع من الكوة فى باب الزنزانة. لم يرين غير أجساد تتحرك، بعضها يهرول، فتاة محمولة على نقالة، لمحت الفتاة الفلاحة صديقتها الأنباشى بين الحارسات نادت عليها بأعلى صوتها:

- ياشاويشه عيشه

لم يرد عليها أحد، الصراخ والعويل يغطيان كل شئ، حاولت مرة أخرى كانت متلهفة لمعرفة ما حدث، لمحت صديقتها الحارسة مرة أخرى، صاحت بأعلى صوتها.

- ياحضرة الضابطة عيشة.

جاءت إلى كوة باب الزنزانة، قالت الفتاة:

ـ ياحبيبتى الله يخليكى تقولى لى حصل أيه؟

ترددت الحارسة، كان بينها وبين الفتاة الريفية تعاطف، قالت:

ـ فى الزنزانة رقم ٩ سمعنا صراخاً وإرتطاماً بالأرض، ثم دقا على بابها اسرعت أنا وزميلاتى فتحنا الزنزانة. فاجأنا منظر مرعب

فتاة ملقاة على الأرض. ينزف دمها غزيراً من صدرها. وفتاة ثانية منتصبة فوق راسها تمسك بمطواه. الدم يتقطر منها، وأخرى تلطم وتصرخ.

ـ هل ماتت؟

ـ لحسن الحظ الطعنة ليست قاتلة، بعيدة عن القلب، نقلناها إلى المستشفى.

- ألا تعرفين سبب الحادثه؟

- حيكون السبب إيه، غير البلاوى بتاعتكم، بلاوى السياسة، أعرف لأنهما متعارضتان.

- هل القاتلة منقبة؟

- لا محجبة مخمرة.

- أعوذ بالله من أين لها بالسلاح؟

- كانت تخبئه فى ثيابها الطويلة. لاندرى لماذا لم يفتشوها بدقة على كل حال التحقيق بدأ.

ارتعدت النسوة الثلاث، هذه محجبة تقتل، ماذا ستفعل المنقبة؟ كانت نادرة أكثرهم خوفاً، لكن رهيفة كانت رايقه هادئة الأعصاب، ربما كانت الفلاحة واثقة من أن المنقبة اصبحت صديقتها وحتى فى ضيق هذا الجو الكئيب، قالت رهيفة مبتسمة للفتاة الريفية، التى كانت موضع اعجابها:

- تعالى هنا جنبى يا حلوة يا أم عيون كحيله أنت؟

ردت عليها الفتاة:

- أحسن تبصبصى لسونه

لكن اسم المنقبة سناء

- لأنتم بتوع جامعة مع بعض أنت الاستاذة وهى التلميذه

ضحكن جميعاً، ضحكة بددت جو الخوف الذى خيم عليهن بعد الحادثة، ثم استسلمت سناء للكرى بينما الآخريات، انغمسن فى حوار للتعارف بدأته الاستاذة قالت مخاطبة القروية.

ـ أنا لست معجبة بجمالك فحسب، لكنى سعدت أكثر بوعيك وطريقتك فى الحديث:

وردت عليها الفتاة القروية:

ـ أشكرك، دخلنا فى الجد.

ـ حقيقة، يسعدنى أن أتعرف عليك أكثر:

ـ أنا فلاحة من قرية الرباعى بالشرقية أسمى نور حصلت على الأبتدائية وأجيد القراءة والكتابة. عمل ابائى وأجدادى فى وسية من وسايا الباشوات، قاسينا الاستغلال والفقر والجوع، وها أنت ترى إننا نقاسى معاً قهر سلطان ورث الوسية الكبرى، وتمكن من حكمها، تعرفت على شاب، كان أيضاً من أبناء الكادحين، جاهد ليتعلم، حتى نال الثانوية الصناعية، أحببته حبا شديدا، كان سمهرى القوام والوجدان علمنى الثورة. أحببت الثورة فيه، أنتمى معاً. اصبحت لا أفرق بينهما، ضمتنا جماعة تناضل الغاصبين والمستغلين فى القرية. أخذوه إلى المعتقل. عذبوه. صمد كبطل خرج لايعرف شيئا عن الثورة اصبح بغير الثورة، لا يصلح حبيباً، ثم جاءوا بى إلى هنا. أخشى ما أخشاه أن يسلبوا الثورة منى.

انخرطت نور فى نحيب مرير، حاولت زميلاتها التخفيف عنها، وعندما انحسرت نوبة البكاء، قالت لهن:

- لا تخفن هذه مسألة نسيتها مر عليها سنتان، لقد تزوجت ثانية وأنا سعيدة بهذا الزواج.

قالت نادرة:

- مبروك

- مازالت رهيفةتريد أن تسبر أغوار هذه الريفية الفريدة قالت:

- لكن ما الذى جاء بك إلى المعتقل؟

- الذى جاء بى، هو الذى جاء بك يظهر أن زوجة العمدة فى بلدنا تغير منى أبلغت السلطة بأنى من الخطيرات.

- إنها تغير منك، لأنك حلوة.

- لست أنا الخطيرة. أنا سأطلب من صديقتى الحارسة أن تنقلنى من هذه الزنزانة!

وقالت رهيفة:

- من الذين يشاركونك فى المجموعة؟

وردت نور.

- أية مجموعة يادكتوره؟ يظهر إنك أنت الحلوة، إذا كانت هناك مجموعة، تقدمى بطلب للأنضمام، وسنضمك، بعد أن نتأكد من

صلاحيتك.

- يخرب عقلك، اسمحى لى أن أتخفف معك. ها أنت ترين أننى رفيقتك فى المعتقل.

- قد تكونين معتقله لأسباب أخرى.

- عندك حق لا أود التعرض للمجموعة التى تنتمين إليها. إذ كانت هناك مجموعة. على حد قولك. لكن ما هزنى حقاً، هو أن أرى بنتا من بناتنا الفلاحات بهذا الوعى، وهذه القدرة على الحوار. وهذه (ماتخافيش منى) وهذه الحلاوة.

- كنت سأشكرك، لولا عبارتك الأخيرة.

الذى لم تبح به نور هى إنها عضو فى تنظيم الشعب الكادح تشرف على قطاع هام: الفلاحة المصرية والتى ينساها الثوار والساسه، مع إنها نصف القوى العاملة فى الزراعة، ونصف القوى البشرية فى الريف. ألتقط المبشرون بالثورة هذه الفتاة، شب وعيها ونضج صقلته حياتها الكادحة، وقدراتها الذكائية. تدرجت فى كوادر التنظيم، أصبحت واحدة من الجماعة القيادية. تقود بنات الريف فى معركة التحرر.

لم تقل نور، لرفيقاتها كذلك إنها تطوى جوانحها على كارثة خاصة: ترك جدها فدانا من الأرض، جزئ بعد وفاته، بين الورثة البالغ عددهم أربعة ذكور، وأربع إناث، للذكر أربعة قراريط وللأنثى

قيراطان، اقتتل الذكور على من يأخذ الجزء الأكثر خصوبة. وضرب الأخ الأكبر بعصاه الغليظة اباها على رأسه، ظل مريضاً على أثرها إلى ان مات.

عقدت الحادثة نور تعقيدا شديدا. أراد أخوتها الشباب أن يثأروا لأبيهم، تصدت لهم: أتريدون أن تأخذوا بثأر ابيكم من عمكم، ثم يثأر أولاده منكم، وهكذا تذبح اسرتنا كلها، أرجو أن تعودوا إلى رشدكم استجابوا لها بعد جهد كبير.

انقلبت هذه العقدة فى ذهنها إلى تساؤل: كيف يمكن للملكية أن تكون مدمرة للعلاقات بين الناس، غاشمة تدفع الشقيق لقتل شقيقه، وترخص الدم الذى يسيل فى عروق تستمده من نبع واحد. بقيت حائرة.. قروية تعليمها أولى. لا تجد لهذا التساؤل جواباً ولا علاجاً، ثم وجدته فى المبادئ التى اعتنقتها: الأرض، ورأس المال وجدت للناس جميعاً، ملكية الجماهير العامة لوسائل الأنتاج، تستل الشرور والجرائم الذى تثيرها الملكية الخاصة.

لم تبح الفتاه بشئ من هذا لرفيقتيها لكنها قلبت صفحة جديدة:

ـ هناك موضوع وددت مناقشته مع المثقفات ولم تتح لى فرصة من قبل. رددت السيدتان فى صوت واحد:

ـ ماهو هذا الموضوع؟

ـ لماذا هذا الانعزال الغريب بين المثقفين والجماهير؟

نظرت المرأتان إلى البنت الريفية فى دهشة، ومضت هى فى حديثها:

المثقف أو المثقفة، الذى لا يتصل بالجماهير كمن يحرث فى الهواء، ما فائدة الأفكار التى تكنزونها؟ تخاطبون بها بعضكم بعضاً، هذه الأفكار يجب أن تلقى فى النهر الجماهيرى العريض يتلقفها الناس. يطبقونها، يهيئون لها أرضاً خصيبة. تزهر فيها ورودها، وتينع ثمراتها، وتصبح مخلوقات حية، تسعى بالخير لبنى الإنسان، ما جدوى أن تتلقاها قلة من المثقفين يتجمعون فى قاعة تخنق ما يقال فيها، وتنتهى المعرفة بين جدران أربع.

حينما وصلت الفتاة إلى هذا القدر، لم تستطع الأستاذة السيطرة على مشاعرها. ذهبت إليها الفتاة، عانقتها وقبلتها. فكت الفتاة ذراعى الأستاذة من حولها، قائلة:

- لاياستى «ماتعمليهاش حلوينه فى سلوينه» أنا لازم أمشى من الزنزانة دى!

ضحكة ثلاثية. قالت المثقفتان بعدها فى كلمات متشابهه.

- كلامك صحيح.

وردت الفتاة

- لقد قلت ذلك لإبراهيم.

- من هو إبراهيم

- لاتسحبينى يادكتوره فى الكلام. على كل حال هو استاذ جامعى قابلته فى مكان ما من الشرق الأوسط!

******

الفجر يرسل شعاعاته الوردية من خلال كوة الزنزانة. لم يستطع المعتقل ولا مزاليجه وأبوابه الفولاذية أن يمنع الفجر أن يشرق على الوجوه الثورية. ويمتزج لونه فيها بلون الثورة، حان الوقت لينام النسوة. ربما تغازلهن أحلام وردية فى بيئة كلها شوك.

(١١)

كان المساجين من الرجال ينتظمون فى طابور الصباح، كى يحافظوا على حيوتهم، منحت الميزة للنساء كذلك، أثناء الطابور تسمع النسوة ضجة غير عادية فى معتقل الرجال، حاولن الأستماع خلال الستارة التى تفصل المعتقلين عن بعضهما، لم يستطعن تمييز ما يسمعن. كانت الزنزانة الرباعية أول من تلقى الخبر، الحارسه، صديقة نور، قالت لهم: هناك ضيوف جدد شرفوا هذا

الصباح معتقل الرجال.

كانت الحارسة وهى تحكى قصة النزلاء الجدد، تضرب كفاً بكف. تصوروا هؤلاء المتعلمين، يتركون دنيا الحرية فى أوربا وأمريكا وأفريقيا، ويأتون على أرجلهم، ويلقون بأنفسهم فى فم الأسد، ويسلمون أنفسهم للسلطان، جماعة مجانين، سألت نور الحارسة:

- هل تعرفين اسماء المعتقلين الجدد؟

- لا

- والنبى ياكابتن، وحياة عيونك الحلوة، تسألى عن الأسماء.

جاءت الكابتن بالأسماء. وقرأت نور بلهفة: لطيف الغولى حليم الشرقاوى، نفيس شاكر، محمود قناوى، محمد بلبل، عيناها تذرعان الورقة يمينا وشمالاً،من أعلى الى اسفل. كأنها تبحث عن اسم معين، سألت الحارسة:

- هل هذه كل الأسماء؟

- اقلبى الصفحة.

قلبت الصفحة. قرأت : إبراهيم محمد

صرخت صرخة لا توحى بالفرحة أو الأسى، كان مزيجاً منهما، بعد برهة أخذت تصفق وتغنى:

- إبراهيم أيجه يابنات، إبراهيم إيجه يابنات.

ـ اختـارت النســوة فى تصـرف هـذه الريفيـة. إنها فـى نظرهن إنسـانة ناضـجة ثورية. لكنهن دهشن لتصــرفـها الأخـيـر حـاولن سؤالها:

ـ ماذا اصابك؟

ـ إبراهيم إيجه يابنات!

بعد أن أنحسرت موجه الغناء، أخذت تجيب:

ـ هذا ثورى عـشقـتـه عن بعـد، حكوا لى عن كـفاحـه فى مـجتمـع الوصـيةالملكى، وعن نـضاله، بعد أن ورث الوصـية الوارثون، اسـتمعت محـاضراته بعـد أن تحـولت الوصــيـة إلى سلطنة، زدت تعلقـا به، ت إنه أعـتـقل وهـو فى الخـارج، لقـد سـافـر إلى الخـارج، قـبل أن تقتحم بيتـه زوار الفجـر بيوم واحد، عنـدما قرأت اسـمـه، خـشيت أن مسه سوء، لكننى بعد وهلة فرحت فسوف أراه!

عندما رات بسمات فوق شفاه رفيقاتها واصلت:

ـ ارجو الا تخطئن فـهمى، العاطفة التـى تربطنى بإبراهيم فريدة، يكبـرنى بـثلاثين عـامـاً. فـهى عـاطـفـة ليـست من الـنوع الذى يفكرن.

قاطعتها رهيفه:

ـ اختشى يابت ياسكر أنت.

ـ وحياتك ياست رهيفة تعـاونينى على وصـف شعورى نحوه فأنا

لست أديبة.

ردت الأديبة:

- لايستطيع أديب أن يصور مشاعرك. أنت أقدر منه، الأديب الموهوب، يمكنه أن يصور مشاعرك، كمتفرج، وشتان بين المتفرج والإنسان الذى يصدر الإحساس عنه.

- مادمت تشجعيننى فأنا أحببته لأن به رجوله. لا أقصد الفحولة فهذه شئ آخر.

ضحكت النسوة. سألت الأستاذه.

- أهذا كل مالديه؟

- لا لديه كنوز أغنى. حينما يتحدث عن الثورة وعن المجتمع الذى ينتفى فيه استغلال الإنسان للإنسان، يملك عليك عقلك وقلبك، تتسلل كلماته إلى خلاياك، فتشقين وتسعدين، تهدئين وتثورين، تخرجين من محاضراته، وأنت تحملين سيفاً لقتال الطبقات القاهرة المستغلة. يلحق بك بعد المحاضرة ليقول لك:

العمل الفردى لايثمر، الثمرات يقطفها العمل الجماعى المنظم للجماهير الكادحة.

قالت لها الاستاذة مشدوهه:

- أيه الحكاية بتاعتك دى يابنت ياشربات أنت؟

ردت عليها نور فى الحال.

ـ أحنا حنرجع تانى للكلام ده، ولا أيه؟

فى الطريق إلى دورة المياه، سمعت نور تصفيقاً فى معتقل الرجال، استأذنت حارستها أن تتسمع لما يحدث، المعتقلون يحتفلون بالضيوف الجدد.تحدث هؤلاء، عن خروجهم من مصر، وحياة النفى التى عاشوها، كان السؤال المطروح عليهم هو: كيف يحضرون طائعين إلى المعتقل؟ وكانت الإجابات تدور حول محور واحد: لا مناص من العودة للوطن. الفارق ليس كبيراً بين البلد كمعتقل شاسع، وهذا المعتقل الذى ننزل فيه الآن، لانستطيع أن نبعد عن المعركة جئنا لنضع أيدينا فى أيديكم لتحرير الوطن.

كان بين المحبوسين معتقل وطنى مخضرم تجاوز السبعين عاماً، لم تعجبه للنغمة الخطابية التى برر بها النزلاء الجدد عودتهم. قال لهم: هذه النغمة تصلح لنا، عندما كنا طلاباً. لايمكن أن يسلم المناضل نفسه لخصمه، ويعتبر ذلك عملاً بطوليا، كم كنت أتمنى أن تبقوا خارج الوطن وتملأوا الدنيا صياحاً، وأعلاماً بالنظام السلطانى، فإنا أردتم العودة، ولتكن من خلال حدودنا الشاسعة تتصلون بالجماهير وتنظمونها وتثيرون وعيها. وتقدونها للقضاء على البغى والطغيان.

وعندما وقف إبراهيم لألقاء كلمته، وسمعت نور صوته الجهورى، طفرت فى مكانها تصفق وأندفعت إلى حارستها

تحتضنها وتقبلها، جزعت الأنباشية، تخلصت بجفاء من ذراعيها، كشرت عن انيابها:

- يظهر أن المعاملة الطيبة لا تنفع معك.

- تراخى ذراعا نور، شحب وجهها، هذه هى الصديقة التى تساعدها. وتخفف عنها عناء المعتقل، استمرت الحارسة:

- لو رأتك الشاويشة أو الضابط تعانقيننى، رحت أنا فى داهية.

أسرعت نور تسترضيها:

- أنا أسفه ياست الضابطه. أنا اعتبرك اختى

- مافيش اخوات فى السجن.

- حقك على. أخر مرة. أنا بحبك قوى. ده أنا عايزة اجوزك أخوى. عريس قمر، طول وعرض، ودبلوم صنايع كمان.

انفرجت اسارير الامباشية، لم تكن متزوجة، أوشك القطار أن يتركها خلفه. شكلها ووظيفتها والبيئة البائسه. التى تضمها، جعلت القطار يسرع كلما مر بها. بدأت تلين وتحادثها كصديقة مرة أخرى. طلبت منها نور:

- وحياة دمك اللى زى الشربات، عايزة أسمع إبراهيم.

- طيب ربع ساعة بس وتذهبى للزنزانة.

- حاضر.

عادت إلى الستارة تستمع إلى كلمة إبراهيم، وصلت كلماته إلى أعماقها: معلمها الذى ملأ قلبها ثورة، وعقلها معرفة، أصبح قريباً منها جسدياً، بعد أن ظلت صلته بها فى الشهور الأخيرة روحية فحسب.

لمح إبراهيم دياب بين المعتقلين، قلق، لم يلمح أحداً غيره من أعضاء التنظيم، اطمأن. يبدو أنهم اعتقلوا أولئك الذين كانوا يمارسون نشاطاً علنيا فحسب، دياب كان يسهم مع الشعب فى هباته ضد الظالمين. تزعم حركة تطهير قريته من الفساد. تصدى للعمدة وعصابته. السلطة القاهرة المستغلة على المستوى المحلى. اعتقله السلطان بتحريض من العمدة. سجله مع المعتقلات حافل. اعتقل بمناسبة انتفاضة الرغيف.

كان إبراهيم قد لاحظ أن دياب يجلس إلى جانب الباشا الشهير. تضمنهما منضدة واحدة. بعد أن انتهى من كلمته، ذهب إلى حيث يجلسان. قدم نفسه لهما. تولى الباشا تقديم نفسه. عقب إبراهيم:

ـ سيادتك لست فى حاجة إلى تقديم. كنا فى حزبكم، قبل أن نصبح ثواراً.

ورد الباشا:

ـ عال. هذا هو الآخ دياب، فلاح أصيل، زميلى فى الزنزانة، لو كان الفلاحون مثله، لكان الظلم قد قضى عليه تماماً.

ـ هانت ياباشا.

لم يفطن الباشا لكلمة هانت. لم يكن يدرى أن إبراهيم زميل دياب. يضمهما تنظيم ثورى ينبث بين الجماهير منذ سنوات، فى الريف والمدن والصحراء، نهض إبراهيم وسلم على دياب. كأنه لايعرفه. استأذن الباشا ليذهب لدورة المياه. ترك الزميلين الثوريين راسا الرأس تبادلا الحديث قال إبراهيم:

ـ هل اعتقل عدد كبير من رفاقنا؟

ـ بضعة أفراد فقط: أولئك الذين كانوا يتعرضون للعمل العام علانية.

وعاجله إبراهيم بسؤال:

ـ هل اعتقلوا أحداً من النساء؟

ـ طبعاً: معتقل النساء ملئ بالثوريات والمنقبات والمحجبات.

ـ هل اعتقلوا نور؟

ـ أول القائمة

ـ خسارة كبيرة.

ـ لماذا

ـ أنت تعرف دورها.

ـ وراءها بطلات سوف ينعشنك، إذا ما التقيت بهن.

ـ أين هى؟

ـ فى معتقل النساء

ـ أهو بعيد

ـ ليس بعيداً جداً، إنه فى المبنى الملاصق لنا. تفصلنا عنهن الستارة البيضاء هناك.

أشرق وجه خالد. خجل من نفسه، كيف يبتهج بأعتقال زميلة ثورية. لعله الإنسان فيه. هزه الشعور الإنسانى المجرد الهزة الأولى. هزه الشوق إليها، قبل أن تتشكل الهزة نظاماً اجتماعيا، يناضل هو وهى من أجله، أخبره دياب بالحوارات الممتعة التى دارت بينه وبين الباشا فى الزنزانة.

عاد الباشا من دورة المياه. وجد إبراهيم ودياب مستغرقين فى الحديث قال لإبراهيم:

ـ خل بالك من دياب يمكن يبلشفك، أنت استاذ جامعة بعيد عن الريف، أما نحن فباشوات فلاحين، بيننا وبين شبابنا الريفى قرابة.

ورد عليه إبراهيم

ـ لاتجر رجلى ياباشا، لا أود أن أخوض معك حواراً جاداً من أول لقاء. انا عليم بنوع القرابة بينكم وبين شباب القرى وشيوخها.

ـ قصدت أن المح إلى أننى ودياب أصبحنا «أصحاب».

- مبروك عليك دياب. ربنا يوفق.

الحراس ينادون على المعتقلين بالإسراع إلى زنازينهم. دس أحد الحراس ورقة صغيرة فى يد إبراهيم ما أن قرأها حتى عرف خطها تلألأ وجهه. قالت كلماتها: قابلنى خلف الستارة البيضاء، لا توقيع، الحارسة صديقة نور، رجت زميلها توصيلها إليها، خدمة لابد لها من ثمن. قدمته نور مقدما:

أخوى العريس القمر، حامل دبلوما الصنايع، سيدفع لك مهراً كبيراً ياحلوة.

على جانبى الستارة تم أطرف لقاء. أراد إبراهيم أن يسلم عليها مد لها يده، سلمت عليه، أحس بلمسة، لا تنم عن الأصابع التى خشنها العمل فى الحقل. كانت لمسة ناعمة أحس معها بأنفاس حارة تحتضن أصابعه. انتهى اللقاء، الحارسة وجله نور الوحيدة خارج الزنازين. الحارس من الناحية الأخرى يستحث إبراهيم ليذهب إلى زنزانته.

الدكتور إبراهيم استاذ فى الجامعة وصل إلى الاستاذية بكفاح غير مسبوق، ولد لأب فقير فلاح يستأجر فدانين من أحد كبار الملاك فى القرية، قتر على نفسه واسرته، لكى يرسلُ ابنه إبراهيم ليتعلم فى المدرسة الأبتدائية، عطشت الأرض التى كانت مزروعة قطنا. كانت مياه الرى شحيحه أنخفض انتاجها. لم يستطع أن يسدد الإيجار، عجز أن يواصل ابنه التعليم، ترك المدرسة، كان عليه أن

يعمل ليعاون والده فى إطعام أخوته، استخدم عاملاً فى وابور للطحين يمكله خواجه أرمينى نظير قرش فى اليوم. يبدأ اليوم مع شروق الشمس وليست له نهاية، فقد يوغل فى الليل إلى منتصفه، كان يقوم بأعمال مختلفة يعاون النساء الحاملات لقفف الحبوب، لانزال احمالهن، ويضعها على الميزان، ثم يزنها، ويعاونهن على حمل القفف الى قادوس الطحن.

كانت بعض الفلاحات يدفعن أجرة الطحين بالبيض. كان البيض مدفونا فى الغلال وعندما تخرجة الفلاحات يتألق بين أصابعهن دررا مضيئه، تثير اللعاب. كان غذاؤه اليومى، العيش الأذرة الحاف، أو المغموس فى الملح. لعبت الشعاعات المنبعثه من البيض برأسه. تسللت الى معدته الخاوية. تخيل بيضتين مقليتين يحيط بياضهما الناصع بصفارهما الفاقع ونز لعابه. إحتجز لنفسه بيضتين لينعم بهما وجبه شهية.

اكتشف الخواجه السرقة، كان يعرف والده. تعرض صدغاه لضرب مبرح من ابيه، لم يكتف الخواجة بذلك، بل طرده من العمل عنده. ظل البيض عقدة من عقد حياته. أنتهت قصته معه نهاية مأساوية. فعندما اصبح دخله يتيح له اكل البيض، حرمه عليه «الكولسترول» الموجود فى دمه!

تلقفته الحياة، أعصايرها عصفت به، وألقته فى مزرعة كبيرة من مزارع الباشوات، شهد ابشع صور الأقطاع. ظلماً وجوعاً

واستغلالا، تنصب عليه وعلى الفلاحين هرب بجلده وتطوع فى الشرطة، وجد أن الجندى الذى يكفل للناس الأمن ليس آمنا، ينهشه الفقر والجهل والمرتب المزرى. وتلوثه الرشوة والاستخدام المهين، ويجبر على تعذيب المواطنين فى مراكز البوليس والمعتقلات والسجون.

لجأ إلى العلم. كافح ليتعلم فى هذه البيئة، التى ينخر فيها الفساد والتخلف والهوان. بذل جهداً بطوليا، نال الابتدائية والتوجيهية وليسانس الأداب كان جهداً يغسله العرق والدموع. وتتصارع فى جنباته السعادة والشقاء، والأمل واليأس.

قرأ كثيراً وتفتح وعيه على ثورات الشعوب ونضالها، ضد اعداء الإنسانية. وأنتهى إلى أن صراع الجماهير المنظمة ضد ظالميها هو الوسيلة لتحريرها. واسهم مع الطلاب والعمال ضد الانجليز والملك. واعتقل فى النصف الثانى من الأربعينات، وقامت ثورة يوليو وأنضم إليها. حسبها ستحرر الإنسان فى مصر، فإذا بفريق منها يرث الوسية الملكية، ويضعه فى المعتقل.

ولما مات زعيم حركة الجيش، جاء خليفته ليطلق قوى الوسية من عقالها، وليقلب الوسية إلى سلطنه، ويعود الإستغلال والنهب لثروة الوطن مرة أخرى. وعندما ثار على هذا الوضع فى محاضراته فى الجامعه، كان قد حصل على الدكتوراه وأصبح استاذا، استضافته معتقلات السلطان.

انضم إلى تنظيم الشعب الكادح، وحاضر خلاياه فى السر والعلن. كان قد أعير للأمم المتحدة خبيراً فى التخطيط الاقتصادى والتنمية. لكنه استقال من الأمم المتحدة بمرتبها الكبير وامتيازاتها. وانغمس سعيداً فى العمل السياسى الشعبى.

جاء اسمه فى مجموعة اطلق عليها السلطان: «المستنقع». و«فبرك» لها تهمة قلب نظام الحكم، وصدر أمر باعتقاله، وهو يدرس فى جامعة جوبا، جنوب السودان، عاد من الخارج، أنضم إلى المعتقلين الثائرين على السلطان، كان قد ألتقى بنور فى جماعة قيادية من تنظيم الشعب الكادح. ومنذ ذلك اللقاء، والفتاة مفتونة به، رغم الفارق الكبير فى السن بينهما.

******

(١٢)

طال الاعتقال، الحوارات فى الزنازين تذيب الجليد بين المتعارضين، أفكار تتسق بعد تنافر. خصومات تتراخى بعد حدة. السلطان لم يف بوعدة، لم يفرج من زملائه فى الطبقة، مرارة تتسلل إلى الباشا والصحفى الشهير، وإلى زملائهما. يبدو أن

الصراع بين فروع الطبقة صراع مستعر، رغم وصفه فى الكتابات السياسية بأنه تناقض ثانوى، النقمة على السلطان أصبحت محتدمة، هذا الرجل قهرهم جميعاً. صار خصمهم المشترك.

قال الرأسماليون: هذا الرجل بطش بنا، رغم إنه رأسمالى مثلنا. الرأسمالية لاتزدهر فى حكم العسس، لا بد من الديمقراطية، فى ظلها يكون الحكم لنا، الجماهير كانت دائماً تنتخبنا. وصل الإسلاميون إلى نتيجة مماثلة. يجب طرد هذا الحاكم الكافر بالله، والكافر بخلقه، والضمان هو قيام الديمقراطية! والسلطة «تجرر الينا أذيالها»! والجماهير متدينة.

اليساريون: الديمقراطية عندهم هدف جوهرى. لكنها ليست تمثيل الباشوات للكادحين، أو ديمقراطية إمام مقدس،يدعى انه من عند الله. ولكنها سيطرة الاغلبية الكبرى العاملة على السلطة والثروة. هكذا كانت الديمقراطية قاسماً مشتركاً بين الفرق السياسية جميعاً.

أثار المعتقل وزنازينه المشتركه فى المقهورين فكرة أخرى: فطنت المجموعات السياسية كلها. إلى أنها تتخذ من الإنسان هدفاً ووسيلة. ينادى الجميع بحريته، وتكريمه، ورفاهيته. إذنْ فيم الأختلاف؟.

حصيلة المعتقل كانت إيجابية. الإسلاميون والرأسماليون غدوا يتساءلون: فيم الخلف بينهم وبين اليساريين. ساد السلام، والحوار الموضوعى، فى المعتقل. لم يشذ عن ذلك إلا الحادثة المؤسفة التى

طعنت فيها، فتاة محجبة أخرى سافرة.

كانت القيم البرجوازية هى المحرك للحادثة، الفتاة السافرة، هى سكرتيرة الباشا. لها نشاط ظاهر فى حزبه. جعل عيون السلطان تركز عليها، وترشحها للأعتقال معه، الفتاة المحجبة تنتمى لجماعة من الجماعات المتطرفة. تمكنت من تسريب مطواة فى اللفائف الكثيرة، التى تلتف بها، كانت تعمل فى شركة من شركات توظيف الأموال، التى تدعى بأنها شركات إسلامية، توظف أموال الناس توظيفاً حلالا. ما لبث الناس أن اكتشفوا إنها تخدع المسلمين، وتسرق اموالهم. وتستغل اسم الله والإسلام لامتصاص أرزاق الكافة.

لم تكن الرأسمالية واستغلال الرأسماليين للملايين من خلق الله. ونزف كدحهم، وتحويله إلى ثروات حرام. لم يكن التخلف الذى يرسف فيه أهل هاتين الفتاتين، ومعهم الكثرة الكثيرة من الشعب، لم تكن هذه القضايا هى التى فرقت بين الجانيه والمجنى عليها. ولكن نشب العراك من أجل قضايا برجوازية تافهة.

كانت السافرة تضع المساحيق، وتتضمخ بالعطور، حيث مستها بركات الباشا، هاجمت الحجاب هجوماً سطحياً.

قالت للمحجبة:

ـ الحجاب ليس دليلاً على التدين.

ردت المحجبة عليها.

ـ كيف؟

ـ تعال معى أريك المحجبات فى الكازينوهات والملاهى وعلى شاطئ النيل، يرتكبن حماقات لاتتفق والدين، انهن يتخذن من الحجاب ستاراً للموبقات التى يقترفنها.

اثارت هذه المقدمة عداء المحجبة فى الحال، احتجت:

ـ من الخطأ أن تعممى هذا على كل المحجبات.

ـ كلهن هكذا. رأيتهن يدخن السجاير مع الشباب فى الكازينوهات، ويشربن البيرة.

ـ هذا كذب وأفتراء.

ـ رأيت صوراً ألعن من ذلك. كن يشربن البيرة فى شهر رمضان!

ـ أنت كافرة

ـ لايهمنى هذا القول الذى ينم عن جهالة.

أحمرت عينا المحجبة، طار الشرر منهما، همت بالهجوم على السافرة، هدأتها زميلة ثالثة تشاركهما الزنزانة، جلست المحجبة المخمرة مكانها مرة أخرى. على أن السافرة لم تكن قد افرغت ما فى جعبتها كله، قالت:

ـ أنتم معشر المحجبات متخلفات.

لم يكن مقياس التخلف عندها، أن الحجاب يحول بين عقلها والتقدم، فرض الرجعيون على عقلها ستارة حديدية لاتستطيع معها أن تقوم بدورها كمنتجة، ومبدعة، وثائرة على التخلف والأستغلال. كان للتخلف عندها معنى آخر. يتفق مع سكرتيريتها للباشا. قالت للمحجبة:

- أوكد لك أن شعرك لم يكن مغسولاً، حينما جاءوا بك إلى هنا. المحجبات لايستطعن الذهاب إلى «الكوافير». تدارين فقركن خلف هذه الطرحة. ما الذى يدرينى إذا كان لك شعر أم أنت قرعة.

هاجت المحجبة، قفزت على سكرتيرة الباشا. طعنتها بمطواه فى صدرها. خرت هذه تتخبط فى دمها، حدث ذلك فى لمحة خاطفة. لم تستطع النزيلة الثالثة أن تمنع الجريمة.

******

(١٣)

باستثناء تلك الحادثة، كان السلام يسود المعتقل، والتقارب بين أعضائه يخطو رويداً رويداً. لكن السلطة لاتريد سلاماً، شنت على المعتقلين المنشغلين بحوارات بناءه، حرباً مدمرة، تابعت السلطة المعتقلين فى دنيا العبودية، بعدما حرمتهم من دنيا الحرية، وارتكبت جريمة بشعة شنعاء.

كان الحارس يوزع طعام الأفطار على المعتقلين فى الزنازين، فتح واحدة منها. وجد ساكنها ميتاً. لم يتمالك الحارس نفسه، صرخ صرخة عصبية عالية «الحقونى»: المهندس عبد العظيم مات، لم يستطع الجندى أن يكتم الخبر، ويبلغه إلى قيادة السجن فى هدؤ، رجع إلى طبيعته، تصرف كقروى، يجد جثة هامدة فجأة. لايملك إلا أن يصرخ طالباً النجدة.

كان المهندس عبدالعظيم مفكراً تقدميا، ينتمى إلى اليسار. أحتل مواقع وزارية وسياسية هامة فى فترة بناء الاشتراكية فى عهد الزعيم. وحينما حدثت انحرافات برجوازيه فى أواخر عهد الزعيم، قاومها مقاومة عنيدة، كان انساناً مهذباً محبوباً خفيض الصوت. أحتل مكانة حميمة لدى مختلف الأتجاهات السياسية. لهذا أحدث موته صدمة لساكنى الزنازين جميعاً.

زاد من تعاطفهم معه إنه كان مريضاً بالقلب، تسبب المجتمع

ونظامه فى تصلب شرايينه، القى به السلطان فى غيابة الزنزانة. هو يعلم إنه مريض. بل يعلم أن مرضه بلغ مرحلة الخطورة. اشتكى الرجل إلى إدارة السجن. أشتكى زملاؤه كذلك. كتبت الصحافة فى الخارج تطالب المسئولين بالأفراج عنه أو على الأقل نقله إلى المستشفى، أوصدت السلطات آذانها وعقولها. كل ما فعلته رأفة بالسجين المريض. أن وضعته فى زنزانة فردية! حتى لايزعجه رفيق ساءت حالة الرجل وقضى نحبه. ولم يجد حتى إلى جانبه من يسبل له عينيه.

كانت هذه الجريمة، التى ارتكبها السلطان ورجاله. ذات أثر ماحق بين المعتقلين جميعاً، جمعتهم على هدف واحد، هو التخلص من السلطان ونظامه، أضيفت هذه الجريمة، للاعتقال، وللحوارات التى دارت بينهم فاجمعوا على حرب السلطان جبهة واحدة، قروا الاضراب عن الطعام. لكن إبراهيم كان يرى أن الاضراب عن الطعام قد يطول، أزاء سلطات لاضمير لها. ويضعف من قوى الجبهة المناضلة، اكثر فعالية من الأضراب عن الطعام، أن نتفق على خطة مشتركة،ننفذها بعد خروجنا من المعتقل، لنتخلص من السلطان الغاشم.

كان إبراهيم قد أفضى لدياب بفكرة تراوده:

- أريد أن أعرض على الفرق السياسية أتفاقا، بنده الأول هو النضال لأرساء الديمقراطية. والكل متفق على هذا البند، والثانى هو

انه طالما أن الإنسان هو هدفهم جميعاً، سأقترح عليهم رحلة.

- إلى أين؟

- رحلة تطوف بالعالم، نشهد فيها نظمه المختلفة، وتفيد من احسنها لنصل الى مجتمع أفضل.

- أنت ستغرقنا فى جدل كبير، كل فرقة سترى فى النظام، الذى يعبر عن مصالحها أحسن الأنظمة، أننى أخشى أن نكون نحن الخاسرين.

- كيف؟

- فى امريكا وأوربا الغربية، سيرون التقدم العلمى، والثروة الظاهرة، وسيتمسكون بالنظام الراسمالى.

- النظام الاجتماعى الذى اعنيه هو الذى يكفل للكثرة من بنيه حياة كريمة، ومجتمعاً عادلا يتساوى الناس فيه ويمتنع فيه استغلال الإنسان لاخيه الإنسان.

- الرأسماليون سوف لايقبلون.

- ولو إن الباشا يمثل الرأسماليين، إلا أن حزبه كان اقرب الأحزاب للجماهير. فهو لن يرفض التحالف معنا وسنخاطب شباب حزبه فى تكوين الجبهة وموضوع الرحلة. وكثير منهم ينتمون إلى الجماهير الكادحة، وسيلبون الدعوة، والإسلاميون أصبح بعضهم يؤمنون بأن الأديان تحرم استغلال الإنسان، وأن الديمقراطية تحقق

أغراضهم.

فى أول اجتماع للمعتقلين بث إبراهيم فكرة الرحلة بينهم. كان يبث سريا، وإلا تسربت للسلطان وهو كفيل باجهاضها، سبيله إلى ذلك سهل: أن يطيل الاعتقال أو يمنعهم من السفر بعد الإفراج عنهم. وسرعان ما وصلت الفكرة لبقية المسجونين. أوصلها إبراهيم إلى نور، عبر الستارة البيضاء، نقلتها إلى النسوة المعتقلات.

جمع المعتقلون هذه المرة فى وقت مبكر، إنه اليوم السادس من أكتوبر. يوم النصر. أجهزة السلطان خلعت أمجاد ذلك اليوم عليه وحده، لا على جنود الوطن، عبر الجنود الأبطال القناة، طردوا العدو الصهيونى من مواقعه شرق القناة، السلطان يوقف الضرب يضيع النصر، لم تتحرر الأرض، يبدأ المحادثات مع الصهاينة والامريكيين كان الموقف محسوباً. النصر الباهر قد يجعل الجنود يثورون عليه، أملا فى مجتمع أفضل، الهزيمة تؤلبهم ضده لانه تسبب فى النكبات، التحالف مع الامريكيين والاسرائيليين، يضمن بقاء العرش الذى يتربع عليه.، إنه يضمر انهاء المسار الاشتراكى، ويقدم للامريكيين بلدا تابعا، فى هذه الحالة يبقى العرش أمنا، تحرسه أكبر قوة رأسمالية.

جمع المعتقلون ليشهدوا أمجاد السلطان فى التلفزيون، يستعرض الجيش المنتصر. لمع السلطان بكل أدوات التلميع، أرتدى البزة المخصصة للقائد الأعلى للجيش. وشح نفسه بالوشاح الأعظم

أرتدى البزة المخصصة للقائد الأعلى للجيش. وشح نفسه بالوشاح الأعظم للقضاء. تلألأت على كتفيه وصدره النجوم والسيوف والنياشين، شمخ بأنفه ليرى طيرانه يحتل السماء. الرصاص ينهمر عليه من الأرض يخر صريعاً، تسود الفوضى المنصة التى كان يتصدرها، يستولى الذعر على الحاشية، التى كانت تشارك الأحتفال.

صرعه جنود وضباط يشتركون فى الاستعراض كانوا من الإسلاميين أرتفعت أسهمهم فى المعتقل وخارجه. أحدث مصرع السطان أرتياحاً بين الجماهير الشعبية، وفرحة غامرة بين المعتقلين كان الرجل جاثما على صدور الناس، يكتم أنفاسهم. ويطلق قوى الاستغلال والنهب تسلب أرزاقهم.

المعتقلون الديمقراطيون ساورهم القلق بعد مصرع السلطان الإسلاميون اصبحوا أصحاب الفضل فى تخليص الوطن منه، من الصعب أن يتحالفوا معهم لتغيير السلطة تغييرا ديمقراطياً، العنف والأغتيال هما السبيل الفاعل للقضاء على السلطنة. فكرة إبراهيم ورحلته للبحث عن مجتمع أفضل لم تعد تغرى القاتلين للسلطان. قام الإسلاميون بحركات إرهابية فى بعض الأقاليم. تمكنت السلطة من ضربها، اشتط القهر، أعلنت الأحكام العرفية امتلأت المعتقلات بالجماعات الدينية.

فاء المتطرفون إلى أنفسهم. أخذوا يتواضعون ويتراجعون، رجعوا

السلطان مشكلة معقدة، تسببت فى قتله، واندلاع الأرهاب، واضطراب الحكم. لا تود أن تمضى فى المغامرات التى كان يقوم بها السلطان الميت. أفرجت عن المعتقلين، عدا الإسلاميين، بقى هؤلاء وقتا أطول فى المعتقل. ثم أفرج عن أولئك الذين لا علاقة لهم باغتيال السلطان.

انطلق المعتقلون سراعاً إلى منظماتهم. اضطرمت هذه اللقاءات بحوارات ساخنة، البلد وسيه كبرى، تسيطر عليها طغمة السلطان. الهبارون مازالوا يمارسون الهبر على أوسع نطاق. يشتركون مع الأجانب فى نزف موارد الوطن.

الاشتراكيون لا حدود لثورتهم على السلطة. الرأسماليون زاد الاعتقال من غضبهم على النظام. هم لايرفضون الرأسمالية بطبيعة الحال. لكهن نصيبهم الآن من الكعكة أصبح متواضعاً. «حيتان» الحكم ، تأتى على الجزء الأكبر منها. هذا أوغر صدورهم، الليبراليون يرون أن الرأسمالية تزدهر فى ظل الحرية والديمقراطية. وتتقوض فى ظل الدكتاتورية. والأحتكار زاد من سخط هؤلاء وأولئك. إن شبح السلطان مازل جاثما على المجتمع، وهو ميت، أصروا على الاتفاق الذى عقدوه فى المعتقل، الإسلاميون أصبحوا أشد الجماعات تطرفاً وغضبا شبابهم يتعرض لتعذيب وحشى، يشيب من هوله الولدان. عرضت الفرق السياسية على تجمعاتها بنود الاتفاق آثارت جدلا طويلاً ساخناً أنتهى بموافقتهم جميعاً عليه.

******

(١٤)

أختار كل فريق سياسى عشرين عضوا لتمثيله فى رحلة البحث عن نظام اجتماعى يليق بالإنسان، عدد كبير منهم من الشباب، صاحبهم نفر من المخضرمين كالباشا، شهاب، رأى اليساريون الأفادة منه أدبيا وتمويليا. كان اللقاء فى قبرص. طار إليها المشاركون فرادى، حتى لايترصدهم البصاصون من جنود السلطة. تكونت مجموعة الرحلة من ثلاث فرق: الإسلاميون، والرأسماليون والليبراليون، واليساريون. كان فيها السافرات، والمنقبات والمحجبات: مخمرات وغير مخمرات. وفيها أصحاب اللحى وحليقو الذقون، ولابسو الجلاليب والبدل.

الاجتماع الأول كان تنظيميا، دار جدل حاد حول الرياسة، انقذ الموقف اقتراحان: أحدهما من نور مؤداه أن تلغى فكرة الرياسة. أدركها إبراهيم لابد من قيادة تنظم العمل، والرحلة. أقترح لجنة ثلاثية للإدارة واحد من كل فريق أختير شهاب باشا من الرأسماليين والدكتور إبراهيم من اليساريين والدكتور عبد الصمد من

الإسلاميين. وأعطيت رياسة اللجنة للباشا.

كيف تصدر القرارات؟ اقترح الإسلاميون أن يكون التصويت بالإجماع. فغير الإسلاميين كثرة وبذلك فالقرارات غير الإسلامية هي التي ستصدر، أعترضت الفرق الأخرى على الآقتراح، لأنه غير ديمقراطي. أصر الإسلاميون أوشك المجتمعون أن يعودوا إلى القاهرة. تدخل المعتدلون من الإسلاميين أقنعوا زملاءهم بأن تصدر القرارات بالأغلبية المطلقة.

اقترح الإسلاميون أن يستهلوا الرحلة بمثل للحكم الإسلامي، مثال طازجاً: إيران جاءت الحكومة الإسلامية هناك، بعد ثورة عارمة. اسقطت أمبراطور وأقامت الحكم الإسلامي - قبل الاقتراح،

هبطت الطائرة في مطار طهران، طائرات حربية تملأه. جنود مدججون بالسلاح، منهم جنود في عمر الأطفال.

فوجئت الجماعة باجراء غير متوقع. عزل الجنود كل الملتحين، والمنقبات عن الركاب جمعوا جوازاتهم، قادوهم إلى غرفة خاصة، فتشت كل زاوية في حقائبهم وأجسامهم، جاء بعض الملتحين. تخلف البعض الآخرون كان المتخلفون المحجوزون، هم الذين أعلنوا أنهم خومينيون. لم تثق السلطات بهم، قررت المجموعة البقاء في المطار، تضامنا مع المحتجزين، ثم وجدوا إنهم لا يستطيعون السير في الطرقات بعد السابعة، فالاحكام العرفية معلنة. اقترح بعض الإسلاميين أن تمضي المجموعة في هدفها. لكن واحدا منهم

ذكرهم:

- اخواتنا المنقبات محجوزات كذلك.

ورد عليه أخ مسلم:

- لاتخف هذا بلد إسلامى، يحافظون فيه على النساء.

فى الصباح حاولوا الاتصال بالسلطات للأفراج عن زملائهم دون جدوى. همس يسارى لزميله:

- أول القصيدة...

شاركه زميله الهمس..

- حذار. أول القصيدة كآخرها، لا تقل شيئاً، دعهم يصلون إلى الحقيقية بأنفسهم.

أتفقت المجموعة مع مرشد واوتوبيس للبدء فى جولتهم الدراسية للمجتمع الإيرانى. وصلوا إلى ميدان واسع جمهرة كبيرة من الناس. نصبت فى وسط الميدان مشنقة هائلة، جئ بطابور من الشباب الملتحى وغير الملتحى. أخذ «عشماوى» العجمى، يلف حبل المشنقة حول أعناق الشباب، واحداً تلو الآخر، الجثث تعلق وتهوى فى ثانية، يبدو أن التكنولوجيا الغربية اقتحمت هذا الصرح الإسلامى، تكنولوجيا، الشنق، وقطع الرقاب.

سأل أعضاء المجموعة المرشد. كان يرتجف لم يشأ أن يقول شيئاً حاولوا أن ينطقوه:

- هل هؤلاء خونة.

- يقولون عنهم ذلك

- ماذا جنوا؟

بعد تردد قال:

- هؤلاء يخاصمون الأمام... «مجاهدو خلق» ، وغيرهم.

- كيف يقتل المسلم أخاه المسلم؟

- هؤلاء يخاصمون الأمام، ويعصونه وبذلك فهم يعصون الله، لامام معصوم، أى مخالف له يكون مخالفا لله، وجب قتله.

- يبدو أن بينهم شيعة كيف يسفك الشيعى دم شيعى مثله؟

- لا تدخل بنا فى أرض وعرة.

لخذت المجموعة طريقها إلى ميدان آخر، طلقات الرصاص لسريعة تفرقع فى الميدان، طابور آخر تحصده المدافع السريعة

- لخيه المسلم، بل أن أغلبية المسلمين فى العراق شيعة.

صاح واحد من المجموعة:

- عجل بربك إلى الفندق.

- ألا تريدون أن تكملوا الرحلة السياحية؟

- هذا يكفينا اليوم. بل سيبقى معنا لسنين طويلة.

خلال عودة الجماعة إلى الفندق، سمعوا طبول الحرب تدق فى الشوارع. صبية مازالوا براعم لم تتفتح. لم يتجاوزوا الثانية عشرة يحملون البنادق، وصورة الأمام باللون الأسود، صور الصفوة الدينية تحف بالأمام، إنهم فى طريقهم للجبهة العراقية. أولاد، لم يتموا تعليمهم الأساسى بعد، يلقى بهم فى أتون معركة الكراهية الدين منها براء.

نظر اليساريون لبعضهم بعضاً، ثم نظروا إلى زملائهم الإسلاميين. تحدثت العيون أطلق بعضها شررا، ضاقت الصدور باسئلة تريد أن تنطلق. ضبط الشباب اليسارى مشاعرهم. رغم أن المجازر سلخت وجداناتهم. لكن نور لم تستطع للسانها كبحاً. سألت إبراهيم بصوت خفيض.

ـ هل هذا نظام يعيش فيه الإنسان؟

رجاها الا تسترسل. الأمر واضح وضوح الشمس: انظرى زملاؤنا الدينيون منكسوا الرؤس، هذا أقوى من أى حوار.

فى اليوم التالى انقسموا إلى مجموعات: مجموعة ذهبت إلى السوق: الساحة التى نبتت فيها الثورة على الشاه. البرجوازية الصغيرة والمتوسطة هى المسيطرة كما كانت فى عهد الشاه. الخلاف أن الزى هو الذى تغير. طغى عليه اللون الأسود. طغى اللون كذلك على الصناعة الكبيرة. زحفت العمم والعباءات السوداء، فشاركت فى ملكية المصانع والمتاجر الكبرى، ملكية خاصة. استبعد منها كل

معارض للنظام: مجاهدو خلق والشيوعيون والاشتراكيون.

الريف كما تركه الشاه: اصلاح زراعى أدخله الشاه بنصيحة الأمريكيين، وزعت بعض الأراضى على الفلاحين، بقيت ملكيات كبيرة أخرى مملوكة للأقطاعيين وبقاياهم.

الفريق الذى ذهب للوقوف على ديمقراطية النظام عاد. عبر عنهم ذياب بقوله:

ـ الله يسود عيشتهم، كلهم لابسين اسود. حزب واحد، حزب الخمينى، يسيطر على البرلمان. مصدر واحد للتشريع هو الأمام.

الناس فى الشوارع لا تظهر عليهم آلاء الثروة البترولية. التنمية متوقفة. التخلف والبؤس والأمية تطيح فى الجماهير. الحرب الخارجية والداخلية تستنزف الموارد. النساء كذلك يلبسن السواد. الحجاب الأسود يلف رؤسهن، ويكبل عقولهن، لم تشهد المجموعة منقبات، خطوة تقدمية ! الرجال والنساء لايزالون يلبسون السواد حزناً على عليّ بن أبى طالب، والشهيدين الحسن والحسين، منذ ألف وأربعمائة عام! عبرت نور عن وجهة نظرها فى النظام الإيرانى قائلة:

ـ اخطر من كل ذلك أن الأمام ومرتديه يلبسون الرأسمالية لباساً أسود وعمة سوداء ويقيمون بذلك نظاما رأسمالياً مقدسا، حالك السواد، بدلا من القبعات والعباءات والعقالات، ذات الألوان الزاهية، والمرصعة بالذهب والجواهر، التى ترتديها الرأسمالية فى بلاد

اخرى.

كان المفروض أن تبقى المجموعة فى إيران أسبوعاً، تحاول أن تدرس هذا المجتمع دراسة معقولة. لكن الصورة الممضة واللون الأسود الذى يجلل هذا البلد، وحبس زملائهم الخومنيين فى المطار، ورائحة الدم تزكم الأنوف فى الشوارع، كل اولئك عجل برحيل الجماعة بعد أربعة أيام من وصولها لطهران.

عندما ركبوا الطائرة حمدوا الله، وباسوا أيديهم بالمقلوب، والطائرة فى السماء، كانت طائرة غير إيرانية، ليس لأيران سيادة عليها، من راديوهات ترانزستور قوية، استمع بعضهم إلى نشرة الأخبار الإيرانية بالإنجليزية.

جاءت إلى الجمهورية الإيرانية الإسلامية جماعة من مصر، التحقيق الآن يدور مع من سمحوا لهم بالدخول إلى إيران، جاؤا من بلد عدو الله «السادات»، الذى رحب بزميله عدو الله شاه إيران السابق واستضافه فى مصر، كان الواجب على حراس الإسلام الإمساك بهذه المجموعة واخذها رهائن. كانت حجة الذين سمحوا لهم بالدخول، إنهم فريق من الأحرار، الذين يقاومون حكم السادات وكان من بينهم زملاء الأبطال الذين صرعوه.

الطائرة متجهة إلى باكستان، البلد الثانى فى برنامج الرحلة، فى إسلام أباد عاصمة باكستان وجدوا ملامح متشابهة مع النظام الإيرانى: الحرية مقتولة هنا ومقتولةهناك، السجون والمعتقلات تعج

بالثورار الأحرار، من كل لون. الجيش يجوب الشوارع ليلاً ونهاراً، الحاكم هو ضياء الحق: ديكتاتور عسكرى يمسك بالسلطة، ويمسك بها رقاب الشعب. قلب نظام بوتو الديمقراطى واعدمه، ملأ الدنيا حديثاً عن الدولة الإسلامية. قبر حريات الشعب الباكستانى اغتال كثيراً من احراره أقام حكما عسكرياً سافرا البسه عباءة الإسلام. لم تكن العباءة سوداء كحالها فى إيران. اتخذت لونا آخر.

لم تناقش المجموعة النظام الإيرانى، كان الأتفاق المبدئى، أن تناقش الجماعة النظام الاجتماعى عقب الإنتهاء من زيارة البلد التى تمثله قبل أن تضيع ملامحه، وينساها الباحثون ثم يصدرون قرارا بتقييم النظام.

لكن إبراهيم فطن إلى أنه لو صدر قرار بعد زيارة كل دولة، قد يثبط ذلك من همة المتعاطفين معها، وقد ينفرط عقد المجموعة قبل أن تتم رحلتها، لذلك اقترح الأكتفاء بالأنطباع الذى ينعكس فى وجدان أفراد الرحلة. رحبت المجموعة بالفكرة، وخاصة الإسلاميون، كانوا على يقين بأن التقييم سيصدر ضد التجربة الخومينية، حتى من جانب بعض الإسلاميين.

احس أعضاء الرحلة بلون من الراحة فى باكستان، يستطيعون أن يتنفسوا بعض الشئ، حقا. أن الجند يبطشون بالحريات هنا، كما يبطشون بها فى إيران، والديكتاتورية تحتد فى البلدين. إلا أن بينهما فوارق. النظام الإيرانى يعادى الأمريكيين والإمبريالية على

الأقل فى الأونة الحاضرة. النظام الباكستانى يتحالف معهم. فى إيران أمام معصوم يمثل الله. لا كلمة تعلو على كلمته. فهو ديكتاتور مقدس. أما ديكتاتور الباكستان فجنرال من الجيش. اعتلى الحكم أثر انقلاب عسكرى. استعار الشريعة الإسلامية ليخلع على حكمه ثوباً مقدساً، لكن الثوب كان مهلهلا لم يستطع ترقيعه.

يبدو أن الأزدواجية الدينية العسكرية فى باكستان خففت من درجة القهر! القهر الدينى العسكرى قهران: أحدهما يحد من الآخر. العسكريون لايمكنهم أن يدعوا فخرين: حكم المسلمين فى الدنيا وقيادتهم لدخول الجنة فى الآخرة، الجنرالات لايستطيعون الجمع بين البدل والقبعات العسكرية، وعباءات رجال الدين وعمائمهم.

البؤس الفادح والتخلف والفقر الكالح، ترين على الجماهير فى شوارع العاصمة، لم يشهدوا مثلها فى القاهرة وطهران، لم يستطع الحاكم الذى يمسك بسيفين: سيف العسكرية وسيف الدين، أن يقتل الفقر بسيفيه، اليساريون يعرفون أين يرتع البؤس، أخذوا زملاءهم إلى الأحياء الخلفية الشعبية، ما أن أطلوا عليها حتى أقترح الإسلاميون مغادرتها على الفور.

زاروا الريف. الأقطاع مازال رابضا فى الأرض. يسترق الفلاحين. البطالة تقضى على ما لدى العمال من قوى خلاقه، يهاجرون بالآلاف للعمل بدول الخليج العربية، يشتغلون خدماً. الصناعة والتجارة يمسك بها العسكريون والكهنةوالأمريكييون. ينتزعون

..تها وخيراتها من العاملين الإسلام لا يستخدم لتحرير الإنسان ـ خليفة الله ـ من الجوع والخوف. لكنه يستخدم لأقناع الناس بقبول الفقر والقناعة بالتخلف والتطلع إلى الآخره، وترك المستغلين للبشر يحولون عرقهم إلى ثروات حرام.

الرأسماليون الباكستانيون فى غرب البلاد، كانوا سبباً فى تقسيم البلد إلى شطرين: باكستان الغربية وباكستان الشرقية، سميت الأخيرة بعد الأنفصال بنجلاديش استغلوا موارد باكستان الشرقية وأبناءها. ازداد الفقر فيها، وتعمق التخلف. ثار الشرقيون، وقاتلوا الغربيين، انتصروا واستقلوا ببلادهم، انقذوها من الاستغلال الجشع من جانب اخوانهم فى الدين والوطن.

مع هذه الصورة الكالحة للتخلف كان للديمقراطية جذور فى وعى جماهير باكستان، الحكم العسكرى دهم الديمقراطية. ضياء الحق عزل بوتو، ذبحه، وجاءت ابنته «بنازير بوتو» وقادت المعارضة والجماهير الباكستانية ضد الديكتاتورية العسكرية. هذا النضال الديمقراطى، لعب بخيالات المجموعة المصرية، انبثوا بين الناس تعبوا إلى البرلمان، ودور الأحزاب والتجمعات السياسية، المجتمع يموج بالأحتجاج على الطاغية سرا وجهراً، بنازير يعتقلها النظام، وتهب الجماهير محتجة، تفرج السلطات عنها وهكذا يمضى النضال.

الإذاعة تعلن خبرا ماحقاً: انفجرت الطائرة، التى كان يستغلها

الجنرال ضياء الحق، ومعه مستشاروه الأمريكيون، ومعاونوه من الجنرالات. أحدث الخبر ضجة ـ اختلطت فيها اصوات الفرحين بالمبتئسين. كان الإسلاميون المصريون أشد الناس حزنا ـ اطلقت نور الزغروته الفلاحى، لحسن الحظ تاهت الزغروته فى الزحام ـ كذلك ، فأهل البلد لا يعرفون مغزاها.

اغلقت المطارات، سيطر الجيش على الشوارع أضطر المصريون للبقاء حتى ينجلى الموقف. أجريت الانتخابات، فازت بنازير بوتو وحزبها، دعيت لتأليف الوزارة. كانت أول رئيسة وزارة فى بلد إسلامى. لم يبتهج الإسلاميون. استنكرت كثرتهم أن تلى امرأة رياسة الوزراء فى بلد اسلامى، المرأة عندهم هى هذه المنقبة المحجبة المخمرة. إنها ليست إنساناً يشارك الرجل تعمير الكون، لكنها مخلوق ناقص عقل ودين.

فى إفتتاح البرلمان تخطرت الزعيمة الشابه ترفل فى السارى الحريرى، تضع على رأسها طرحة هفهافة تقدمية، تتزحلق للوراء، يظهر شعرها الأسود القاحم، لقد وضعه الله على رأسها تاجاً.

(١٦)

اقترح بعض الإسلاميين الذهاب للسعودية. اعترض البعض الآخر، رفضوا اعتبارها نموذجاً للمجتمع الإسلامى، لكن نفرا منهم صوتوا مع الللبراليين واليساريين للذهاب إليها، كان الأمل يحدوهم

ل تشـهد الفـرق الآخـرى بيت اللـه وقبـر الرسـول، عـسى الله ان يهديهم سواء السبيل.

طلب الرحـالة الاجتمـاعيـون تأشيرة من الـقنصلية السـعودية فى إسـلام أباد للقيام بالعـمـرة، لايهم الآن مـاذا يقصـد هذا الفـوج، إنما الأعمال بالنيات.

برزت مـشكلة بالغة التـعقيد. النسـوة بعضـهن غيـر متـزوجات. المنقبـات والمحجبات من الجـماعات الإسـلامية محـصنات، كن يرافقن أزواجـهن. لـكن هناك مـحـجـبـة غـيـر مـتـزوجـة. وكـذلـك هـناك نور رفـيـقـاتهـا الفـلاحـات، السـعـودية تمنع دخـول الـنسـاء اللائى لايصـاحبهن مـحـرم. فكر إبراهيم فى حل سـريع عـرضـه فى شكل تساؤل.

- هل عـقـد عـقـود زواج بين العـزاب من البـنات والرجـال يحل المشكلة؟

دهشة تعلو الوجـوه، فرحة تبـرق فى عيون البكارى. لكن رهيـفة الأستاذة عارضت الاقتراح بشـدة.

- كيف ترغم البنات العذارى على زواج، لايقوم على حب وتفاهـم، سارع دياب لنجدة رفيقه.

- أنا فهمت من الأقتراح أنه زواج مؤقت، وشكلى

أحدث لفظ «مؤقت» لغطا شديدا، طلب إسلامى الكلمة.

- هذا الزواج المقترح زواج باطل، لأنه زواج متعه، أو زواج مشروط، وحكمه حكم الزنا. أثارت كلمة الزنا رجفة بين الحاضرين، الطريف أن إسلامياً آخر رد على أخيه، يبدو إنه كان من الشيعين الخومينيين.

- زواج المتعة أو زواج الضرورة حلال.

فرح اليساريون فرحة داخلية. الإسلاميون يقتتلون أفكارهم متعارضة لا ندرى من المخطئ ومن المصيب. وأيد بلبل المحامى أقتراح إبراهيم، ودعا إلى تطبيقه، قفزت نور منتصبه، لم يكن افراد الجماعة، حتى تلك اللحظة، قد فطنوا تماماً إلى قوامها السامق، وصدرها النافر، وعيونها الكحالى، لكن فى هذا الاجتماع الذى دار حول الزواج كانت عيونهم مسنونة زائغة، قالت بحسم:

- أنا لايمكن أن أتزوج بهذه الطريقة.

كانت نور رغم أنوثتها المكتملة لم تتزوج، هجرت فكرة الزواج، بعد أن فجعت فى قصة حبها لشاب زميلها فى التنظم الديمقراطى للشعب الكادح

حاول إبراهيم ودياب أن يثنيا رفيقتهما عن موقفها دون طائل.

قال إبراهيم:

- يانور، هذا اجراء مؤقت لانجاح الرحلة، لاتخافى الآزواج لن يمسوا الزوجات، وسيظل كل فى غرفته، إنه زواج شكلى فحسب.

ـ هذا كلام غير مقنع، طالما وقع العقد فالزواج نافذ، رغم أنف

سكتت نور لحظة ثم ألقت بمفاجأة:

ـ ... من أجل أهداف الرحلة سوف أتعاون معكم على إنجاحها، إذا أصررتم على زواجى، فانا أتزوج الدكتور إبراهيم!

ساد الاجتماع هرج، قام إبراهيم على الفور مذعورا، يرد على الاقتراح:

ـ أنا فى مثل سن أبيك.

وردت نور:

ـ ولو ـ أنا راضيه

حاول الباشا رئيس الجلسة أن يجد حلا:

ـ يآنسة، معنا هنا شباب كالورد، يتمنون أن يتزوجوك: عمال وفلاحون وجامعيون، حرام عليك، لماذا تركزين على رجل فى الخمسين وأنت فى العشرين.

ـ هذا هو مزاجى.

ـ الزواج مؤقت

ـ هذا كلام مرفوض، لا يقبله أغلبية الإسلاميين هنا

ابتسم الباشا المخضرم قائلاً:

ـ كأنك توافقين على راى الإسلاميين.

ـ ولم لا؟ حينماتكون القاعدة الإسلامية مقصود بها مصلحة الكافة، وكفالة حرياتهم، وحينما تحمى إنسانية الإنسان من الأمتهان أوافق عليها على الفور، والقواعد الإسلامية الصحيحة، دائما كذلك،

اقترح شاب يسارى أن تؤجل الجلسة. ربما تستطيع الفرق المختلفة أن تقنع عزابها وعذاراها بفكرة الزواج.

فى اللقاءات التى عقدت كشفت أمور عجيبة. أتضح أن الحسناوات الريفيات لم تمنعهن رحلة البحث عن نظام اجتماعى أفضل، من رحلة اخرى فى قلوب الشباب، كانت مشاعر رقيقة حانية، قد تلاقت بين كل أثنين أثنين، تلاقت احياناً على البعد واحيانا على القرب. الهوى يتسلل إلى القلوب فى اى مكان. يغزو القلوب. تحت جذوع النخل. ويشقها فى طائرة تمرق فى السماء. ويتخذ منها سكنا فى فندق فى بلد أجنبى.

الفتاة المحجبة شيرين لم تكن متزوجة، كانت بيضاء البشرة باسقة القد ترتدى حجاباً مهذباً يكون إطارا فنيا، يبرز ما فى وجهها من حسن، مصنوع من حرير هفهاف وردى، تكامل مع الورد المنبثق من خديها، رداؤها يحيط بالجسد الطرى احاطه حميمه، لايخفى الخصر النحيل، والنهدين الثائرين. كانت فنانة استخدمت وسائل التجميل فى عينيها واهدابها وشفتيها استخداماً مقتدراً، رأى فيه غيرالإسلاميين فنا رفيعاً، يعرف كيف يبرز الجمال الإنسانى، الذى ابدعه الله. ورأى فيه الإسلاميون حشمة وبعدا من ابداء الزينة!

تزعمت حركة البنات الإسلاميات فى الجامعة قامت بكفاح طويل فى هذا الصدد، كان الإسلاميون المتزمتون يرون ان ملابسها وأناقتها لاتتسق ومبادئهم، غير إنها كانت عضوا اساسيا لاغنى عنه للدعوة، ساندوها، واختاروها للرحلة.

التقت الفتاة بشاب من اليسار، الخفقة الأولى لقلبيهما كانت خفقة عذرية تسمو فوق الفكريات، وتعلو على الايديولوجيات، أعقب ذلك اعجاب كل منهما بتدخل الآخر فى الحوار، عنصر موضوعى، يبلور العنصر الرومانسى.

يبدو أن شخصية الفتاة أنعكست على نهجها الإسلامى. أخذت ما فى الدين من جوهر، اطرحت ما فى المناقشات الدينية من لغو.

عقدا اجتماعات ثنائية. امتزج فيها الحوار بالنجوى، تطورت بينهما علاقة تبشر بتقارب دنيوى وأخروى.

رغم خفقة القلب، وومضة العقل، لم يكن هذالتقارب سهلاً على الفتاة، نشأت فى بيت قروى فقير، لم يكن أبوها فلاحاً، يضرب الأرض بفأسه فيخرج منها كنوزها، ولكنه كان مقرئاً للقرآن، يطوف على بيوت القرية يقرأ فيها آيات بينات. ينفحه الفلاحون حفنة من ذرة أو شعير، يقتات بها وعائلته، الفتاة أكبر اخواتها، أخذت على عاتقها ان تعنى بأبيها، كانت أمها عليلة.

كان الرجل على فقره انيقاً يلبس جلابية بيضاء نظيفة تغسلها شيرين، وتزهرها بالزهرة الزرقاء، فتخلع على الشيخ مظهراً يفتح

له أبواب البيوت فى القرية. يتلقاه أهلها بالترحاب والقبول. لكن الرجل كان فاضلاً، لم يعبأ بما يقال، كذلك لم تعبأ الفلاحات فى البيوت، استولى على الرجل اعتقاد بأن الأهمال فى هندامه سوف يوصد الأبواب فى وجهه.

أخذت الفتاة الأناقة عن أبيها، كانت تلبس جلاليب رخيصة لكنها جميلة تنتقى ألوانها بنفسها، ألوان فرحة محتشمة فى الوقت نفسه، ساعد على أبراز أناقتها قوام ممتشق، تختال به فى شوارع القرية. وحينما تذهب مع زميلاتها لملء الجرار من الترعة، وقت العصارى.

وكان لوالدها اثر دينى وأخلاقى عليها، حينما ينهض لصلاة الفجر، تنهض معه، تقدم له الشاى، وتسخن له رغيفاً، يغمسه بقليل من الملح، قبل أن يذهب للمسجد ليؤم الناس فى صلاة الصبح، كان رخيم الصوت، يرتل قرآن الفجر، فنشأت محبة لكلام الله، وخاصة حينما ينغمه أبوها بصوته الشجى، كانت الفتاة تتشرب معانيه، مغموسه فى نغم شهى، يصل إلى الأعماق منها.

كان الرجل يكدح، يرتل القرآن فى المسجد والمآتم والبيوت، يؤم الناس فى الصلاة، ويؤذن فيهم، وذلك ليكفل لأسرته هذه الحياة الفقيرة، وسط هذه المعيشة الضنك، واصلت الفتاة دراستها، نالت الابتدائية والأعدادية من مدرسة القرية، ثم حصلت على الثانوية التجارية من مدرسة المركز، كانت طموحه، التقت باستاذ جامعى من أبناء القرية شجعها وحثها على التفوق، لكى تلتحق بكلية التجارة،

وتحصل على شهادة جامعية وهذا مافعلته.

فى الجامعه اتسع افقها، وتفتح وعيها، تساءلت: هل قراءة القرآن فى البيوت عمل حقيقى، يكسب الإنسان منه عيشه؟ عائده هزيل: حفنة من الإدرة والقمح، لاتكاد تشبع لهم جوعاً، أو تقيم لهم صلبا، إنه أقرب إلى الشحاته، الفلاحون يمنحونها، وكأنها صدقة. الصدقات ليست مصدراً دائماً للرزق، المانحون لها قد يمنعونها فى أى وقت. وهى لاتمنح إلا للعاجزين وأبى ليس عاجزاً. إنه صحيح البدن والعقل. يمكنه أن يعمل عملا منتجاً. يسهم فى عيش اسرته، وفى الثروة القومية.

هذه الفتاة الذكية التقية الأنيقة جمعت حولها الزميلات والزملاء فى كليةالتجارة. اكتشفت أن حال كثير منهم ليس بأحسن من حالها، ملايين الأسر تقاسى نفس المعاناة، ويشوه الفقر قواها للبدعة، كما شوه قدرات أبيها.

فى هذا الجو النفسى، التقطتها إحدى الجماعات الإسلامية، وجدوا فيها خامة جيدة يمكن تشكيلها، لم يكن أمام الفتاة قناة أخرى للعمل السياسى، جفت القنوات البديلة وبصفة خاصة قنوات اليسار، التى تناضل لتحرير الملايين من الفقر والقهر كانت الفتاة سافرة. ولكنه سفور الفلاحة المحتشمة بنت الشيخ المقرئ. ملابس وأكمام طويلة، على أن الملابس روعى فيها أن تتناغم مع غصنها الفارع، استجابت إلى دعوة الإسلاميين الذين يتحدثون عن الدين

والفساد والفقر. كان عليها أن تتزيا بما اطلق عليه الزى الإسلامى وهو الحجاب.

دخلت الفتاة معركة حقيقية تريد لجمالها الذى أبدعه الله أن يتجلى، الأناقة أسلوب من أساليب اسرتها الفقيرة. عزيز عليها أن يتوارى هذا الجمال، خلف لفائف واسمال. وصلت الفتاة إلى حل وسط. استعارته من البنات الفلاحات فى القرية: الجلاليب الطويلة الحشمة التى لا تشوه قوام الأنثى، الطرحة الفلاحى، ليس من الضرورى أن تكون سوداء دائماً. لاتخنق انفاس الفتاة، ولاتلتف حول رقبتها كحبل المشنقة، ولكنها يمكن ان تغطى شعرها. وتهفهف طليقة حول جسدها.

وهكذا، وصلت الفتاة إلى حجاب معتدل، لايقلب المرأة رجلا، ولايعرقل قواها كعاملة، تسهم فى زيادة دخل اسرتها، وكذلك الدخل القومى لوطنها.

لم يكن الحجاب المعدل مظهراً فحسب بل كانت افكار الفتاة مستنيرة، لم تقبل أفكار الجماعات الإسلامية على علاتها، انكرت ما فيهم من عنف وتعصب، ليس الدين كل شئ، كما يقولون: الله خلق الدنيا للتأمل فيها والأخذ بنصيب منها، وما الدين الا تجميل لأخلاقيات الإنسان وسلوكه. حتى لا تصبح الدنيا غابة، دعت لاستيعاب العلوم الحديثة، التى وصل إليها الإنسان بعقله، الذى أودعه الله رأسه. وأصبحت الفتاة شخصية محبوبه، زانها العلم

والدين.

اعتقلها السلطان فيمن اعتقل من الشباب الجامعى، الدينى، والوطنى والاشتراكى، أوقعها حظها فى زنزانة مع سكرتيرة الباشا الضمخة بالعطور والملطخة بالمكياج. ومع المحجبة المخمرة، الموظفة بإحدى شركات توظيف الأموال. وشهدت الجريمة التى كانت ثمرة لشجار تافه بين الفتاتين. تحسرت الفتاة على تلك القوى الشابه المستغله: الأولى تعمل فى حزب الباشا، وتعاون فى أضفاء الشرعية على الطبقة التى تستغلها وأهلها والشعب العامل كله، والثانية يخدعونها بأن شركات التوظيف الإسلامية تطبق الاقتصاد الإسلامى. وهى فى الحقيقة تستغل المسلمين مستخدمة مقدساتهم: الله والدين والنبى.وضعت الجانية فى زنزانة انفرادية. وذهبت المجنى عليها الى المستشفى، تركت شيرين وحدها فى الزنزانة، مع تأملاتها: هل يقتتل الشعب الفقير من أجل مستغليه؟ الفتاتان جاءتا من الطبقة الكادحة العاملة. خدعتا بأفكار صبها الباشوات التقليديون والباشوات الإسلاميون فى صدور الشباب، اختلطت بمكاسب مادية تافهة: هذه تتبرج، وتتنعم بالاء الباشا وتلك تعطى فتات من «بركة» الشركات الإسلامية.

حركت الحادثة تلك المعانى، وغيرها فى ضمير فتاتنا، انضمت إلى رحلة البحث عن مجتمع أكرم من الذى تعيش فيه. اندمجت فى الحوارات التى دارت اثناءها. رأت النظم السياسية والاجتماعية فى

البلاد التى زارتها المجموعة. تسربت إلى اعماقها قنوات من المعرفة والوعى، جديدة عليها قارنت بين المجتمعات التى زارتها، والقيم الجديدة التى شاغلتها، وبين حال اسرتها وأبيها ومجتمعها. مازالت قراءة ابيها للقرآن للشحاته من البيوت تثير تساؤلاتها: هل هذا عمل يرضى الله، ويكرم الإنسان، هل يمكن أن يقوم مجتمع على التسول؟ القرآن حافل بكلمات حول شرف العمل الإنسانى، لماذا يمتهن الإنسان فى مجتمعنا هذا الإمتهان؟ لماذا يسلمنا الباشوات القدامى إلى باشوات جدد، بعضهم يلبسون الكاسكتات، والآخرون يلبسون العمائم؟.

كانت هذه هى حال المحجبة الأنيقة، إلى أن التقت بالشاب الاشتراكى لاندرى، هل رفة القلب بالحب، يتفتح معها العقل، ويتطهر الوجدان، الفتاة تتحول تحولا جذرياً نحو الاشتراكية، هل يرجع ذلك إلى الحوارات التى دارت بينهما. أم أن الفتاة، كان لديها استعداد مدفون فى وجدانها، حركته البأساء فى مجتمعها، واضاءته الرحلة بومضاتها.

أما إبراهيم ونور فكانت حالهما مركبه. نشأ إبراهيم فى الريف بين أحضان الطبيعة أمضى طفولته وصباه وجزءا من شبابه فى القرية. أرتشف من هذا المعين الجمالى، ما شكل وجدانه وأرهف مشاعره، مسته القرية بلمساتها الرومانسية. العذارى المختالات على الترعة. لعبن بمشاعره. يحملن الجرار على رؤوسهن. تسهم الجرار فى امتشاق القوام. وسموق الجسد، ونفور الصدور.

أصبحت البنت الفلاحة هى نموذجه الجمالى، أخذ بعد حصوله على الدكتوراه يبحث عن فتاة تشاركه حياته. يريد الزواج بريفية، بنات الأعيان والعمد غير مثقفات، حتى لو كن متعلمات، العقلية البرجوازية الحياة الكسول، الربربة، هذا النمط لايستهوية، البنات الفلاحات «القح» الفقيرات اللائى يغرينه، غير مثقفات وغير ثوريات.

درس الأدب الثورى دراسة متعمقة لا كمحترف فحسب، ولكن كهاو، كتب فصلاً فى رسالته بين فيه، كيف تقوم الثورة فى بلاده، آمن بالأشتراكية إيماناً مزدوجاً: دكتوراه فى الفكر الثورى، ودكتوراه أخرى فى العمل والكدح، أمسك بالفأس وأنبت سنابل من ذهب، وقبض على المحراث وأنتج قطناً من فضة وأمتشق القلم وصاع فكراً من درر.

كان يحلم بلقاء فلاحة، تعكس له خصوبة مصر، وسمرة النيل، وخيلاء النخيل، غير أنه يريدها فلاحة ثورية، حينما فاجأته نور باقتراح الزواج، اندلعت فيه عاطفة شعواء، كان قد دفنها فى قاع

قلبه، حينما التقى بها لأول مرة فى التنظيم الثورى وكان غريباً أن تجمح هذه الفتاة القروية بمشاعر استاذ الجامعة. اخترقت عيونها البقرية اعماقه، وسكنت فيها، حنا عليها بين جوانحه، لم يستطع البوح باحاسيسه. قدمه قائد المجموعة الديمقراطية الثورية إلى الأعضاء، كأستاذ فى الجامعة، ومناضل ضد الملك والأقطاع والاستعمار، انتصاره لثورة يوليو. ثم انتكاسها عليه، جهوده فى بث الفكر الاشتراكى فى افريقيا، وهو يعمل بالأمم المتحدة، إسهامه فى الفكر القومى، وعمله فى الجامعة العربية، كيف يقدم للجماعة بهذه الصفات، ثم يقع فى غرام فتاة، عضو فى الجماعة، من أول نظرة؟ ياللفضيحة.

كتم هواه، لكن العمل المشترك قرب بينه وبين الفتاة، وزاده أعجاباً بها. الثوار فى الماضى، حينما كانوا يتحدثون عن الفلاحين، فإنهم يعنون الفلاحين الرجال، وكانوا ينسون هذا الحشد الكبير من النساء فى الريف. السن قوة ثورية هائلة. وقوة عمل كبيرة، وجاءت نور لتثبت هذه الحقيقة، أفكار الفتاة، طريقتها فى الحوار، الأعمال التى تضطلع بها، امتزجت كلها، بجمالها الأنثوى. وقلبت عاطفته نحوها سعيراً.

المعركة داخله تحتدم، مع كل اجتماع للجماعة. حاول تخفيفها بالحديث إلى نفسه: هذه الفتاة تجمع بين فكر ثورى وجسد ثورى كذلك. هل يمكن تجزئتها «احترم فكرها وأعشق جسدها، هل

يتضمن العشق لونا حميماً من الأحترام؟ وما هى الوسيلة للتعبير عنه. هل التقى بالفتاة لقاء خاصاً غير ثورى «ياعيب الشوم» استاذ جامعى مناضل يحب فتاة ثورية، عضو فى مجموعة قائدة، ويلتقى بها سراً، إنها عذراء وفلاحة، الدين والتقاليد والبكارة عوائق أمامك. يمكن الا تخدش هذه المسائل، وتكتفى باللمم يا للعار.

لقد بلغت الخسمين واللمم لايشبع ولا يليق. العائق الأكبر هو ان الفتاة ثورية حققت حلمك، بأن تسهم «بنت النيل» فى القرية فى معركة التحرير، هذه الفتاة توقظ نساء نياماً، أن الفتاة تضعك فى مكانة عليا كيف تنحدر أفكارك إلى هذا الدرك؟

الفتاة لم تتركه وحده مع هذا المنولوج، نظراتها تمسك دائما بعينيه، يشع منها مزيج جميل من الطهر، والثورة، وشقاوة شابة فى العشرين.

إذا كان الطريق الحرام إليها مرفوضاً، هل من طريق حلال؟ فكرة الطريق الحلال تبعثر عقله «الفتاة فى العشرين وأنا فى الخمسين، فى سن أبيها، الفارق ثلاثون عاماً جيل كامل بأسره، على أن أرفض الفكرة، حتى لا أكون إنانيا. دعها تستمتع بحياتها، مع شاب مثلها.

ثم لاتلبث افكاره أن تتراجع: «لكن هذا الفرق بين عمرينا هل هو كبير؟ إننى أشعر بقدرة فائقة، البنت كذلك عاشقة، لا تعبأ بالسن».

ثم يطوف بذهنه خاطر ما كان يجب أن يشاغله: «أنت استاذ فى الجامعة وهى بنت فلاحة، تعليمها أولى، هل ما يهمك هو مستوى

التعليم فحسب، أم أن هناك سبباً خفياً آخر، سبب طبقى، ورثته من المجتمع البرجوازى من حولك، هل تقول لزملائك الاساتذة ولطلابك، إن زوجتك فلاحه؟ فكرة، ربما تنغص عليك حياتك. وأسفاه: قائد من قادة الفكر الاشتراكى. مكافح، عزق أرض القطن بأظافره مع الفلاحين، يفخر بأنه واحد منهم. مثقف كادح يملأ الدنيا صياحاً عن الطبقات الكادحة. ويكتب اقتصادا، وأدباً ضد الطبقات المستغلة. ثم يسقط فى أول امتحان تطبيقى.

لابد من ان تطرد هذه الهاجسة، وإلا سقط فيك الثورى المناضل. تقول أن الفارق كبير فى المستوى العلمى. هل تريد زوجة حاملة للدكتوراه، هبها تافهة، برجوازية، تنغص عليك حياتك الفكرية اليست المثقفة فى نظرك هى التى تستخدم ما جمعت من معرفة إنسانية فى سبيل الإنسان، وتحرره من القهر والإستغلال؟

كان يكابد هذا المونولوج الداخلى، حين فجأته نور باقتراح الزواج، نكأت جراحاً، كان يريد أن يداريها، اقترح عليها ان يتناقشا فى جلسة تجمع بينهما فحسب، قال لها:

ـ هذه مفاجأة غير متوقعة.

قالت له، وكأنها على علم بالمنولوح الذى استغرقه:

ـ لا تحزن، ولا تفرح للأقتراح سأتزوجك مؤقتاً لخدمة غرضنا من الرحلة، ولن أعاشرك معاشرة الازواج.. وسأنقلب من سنية إلى شيعية لنبرم زواج متعة.

لاندرى أن كان هذا الكلام قد أبهجه أم احزنه قال:

ـ يا ابنتى، أنا فى الخمسين وأنت فى العشرين.

ـ هذا مزاج يا أبت!

ـ ارجو أن تجدى.

ـ انا راضية بفارق السن، سعيدة به، وأنت غير راض، لو كنت مكانك لرضيت وسعدت، زواج المتعة الذى قصدته، ليس ما دار بذهنك، إنه نوع آخر من البهجة يربط قلبى وعقلى بانسان أود دائما أن اكون بقربه، ألا تشعر بهذا الشعور؟

تردد خالد، نظر إلى العينين الكحيلتين وأجابها:

ـ أجل

ـ إذن، نتزوج.

ـ بشرط أن يكون زواجاً مؤقتاً، ينتهى بأنتهاء الرحلة إلى السعودية شأن بقية الزيجات.

ـ هو مؤقت لا شك، ولكن ألا ابقينا عليه إلى نهاية الرحلة كلها؟ أؤكد لك اننى سأبقى بكراً. سكتت نور هنيهة، ثم ودت أن تداعبه:

ـ انا لا أسعى لجنس. ولو أردت جنساً لاخترت غيرك!

ـ كده برضه يانور يخونك العيش والملح والثورة.

اتفقا على الزواج بهذه الشروط، كان دياب وإبراهيم قد عرضا

عليها من قبل زوجاً إسلاميا مستنيرا» «هيمانا» بها، علقت قائلة:

ـ أنا لا أعرف ما هى النسبة فى عقله بين النور والظلام، ما الذى يجبرنى على الزواج بإنسان بين بين . يبدو إننا فى رحلة توفيقية، سواء فى السياسة أو الزواج. هناك بنت لبرالية تليق به ساقدمها له.

هكذا تمت اتفاقات عاطفية مهدت السبيل لهذا اللون من الزواج. وبدأ وكأنه إجبارى، ثم ما لبث أن رقصت له القلوب، وأشرقت فى العيون الأمانى.

عقد «الرحاله» اجتماعاً. كأنه جلسة لمحكمة شرعية أقترح دياب أن يقف الرجل، الذى أختار رفيقته ويقدم نفسه. ويقدمها، هكذا توالت الزيجات: الفلاحون والفلاحات. المحجبة الأنيقة، الآخت المسلمة والشاب الاشتراكى، الإسلامى المستنير والليبرالية. الدكتور إبراهيم ونور وهكذا....

صفق لهم الجميع، غنت النساء: سافرات ومنقبات ومحجبات:

«اتمخطرى ياحلوه يازينه»

سارع إبراهيم حتى لايعتبرونه حفل زفاف بتحديد شروط العقد:

ـ الزواج مؤقت ينتهى بزيارة السعودية، أو بأنتهاء الرحلة.

ـ يظل ترتيب الإقامة بالفنادق كما هو: النساء مع النساء، فيما عدا المتزوجين من قبل الرحلة.

ـ يمكن أن يتلاقى المتعاقدان، أثناء النهار، على أن يفترقا قبل

الذهاب إلى غرف النوم.

طفرت نور كالعصفور قائلة:

ـ لماذا نقيد حرية الازواج؟ إذا ما أحبوا بعضهم بعضا. لماذا يبقون خارج غرف النوم. لماذا لايتحولون إذا شاءوا إلى أزواج دائمين، هذا يسعد أنصار السنة، فيكون الزواج شرعياً.

رمت نور إبراهيم بسهم من عينيها، أقلقته عبارتها. ابتسمت له مطمئنة. قرأ فى عينيها أنها عند وعدها.

وافق المتعاقدون على اقتراحها على الفور لكنهم أجلوا التنفيذ لظروف مواتية. «زغرودة» نور الشهيرة، تختتم الاجتماع. حملت إلى المجتمعين موسيقى الريف وجزالته. هبت على المجتمعين نسمات الوطن. اصبح الاجتماع عرسا، رددت الزغاريد حسان الريف اللائى أصبحن عرائس مصونة.

******

(١٧)

هبطت الطائرة فى المدينة المنورة. إذان الفجر، كأنه تغريدة الكون. الشـفق الوردى يحف بحـواشى السمـاء. استـجـابت الجماعة لدعوة الإسـلاميين: الذهاب رأساً إلى مسـجد الرسـول.. زاروا قبره، صلوا الصـبح فى الحـرم النبـوى الشـريف. سـاد همـس بين الإسـلاميين: الإشتـراكيـون العلمـيون يؤدون الصـلاة خاشـعين. كيف يتـهمـونهم بالألحـاد؟ لعن الله الرأسـماليين والرجـعيين، إذ أشاعـوا هذه الفكرة بين الناس.

بعـد أن حطوا رحـالهم فى الـفندق، أخـذوا يتـجـولون فى المدينة المنورة يبدو إنها «منورة» فحسب، حول المسـجد النبوى على مسافة قليلة تجد الشوارع مكسرة، والزبالة متناثرة، البيوت عـدا العمارات العالية. التى يملكها الأمراء والتجار ـ اشبه ببيوت القرى فى مصر.

حاول الإسـلاميون أن تكون أيامهم فى المدينة المشرفة، أيام عبادة لاتجوال فى الشـوارع، الاشتراكيـون لم يقتنعوا. إظهـار التخلف فى البلد الذى اتخـذ منه الرسـول (ص) مهـجراً ومـقبـراً، يعـتبـر عبادة وفـيه ابراز لرسـالة أعظم نبى، أرسـل للناس ليـحـررهـم من الجاهلية والفقر والتخلف.

كان بين المشاركين فـى الرحلة مفكر اشتراكى، جسـور عالم، من الرعـيل الأول، من القلائل الذى أبقى على ثـورته نقيـة، واشتـراكيته

طمية. لم يمسسها إنحراف، أو مراجعة، أو سيجار، دار حديث بينه وبين عبد الصمد الإسلامى الأصولى. بدأ الأخير الكلام:

- هل رأيت عظمة الحرم النبوى الشريف؟

- العظمة فى ساكن الحرم، الرابض فى القبر.

- صلى الله عليه وسلم. لقد هدى البشرية إلى طريق الخير والحق، والسلام.

- كأنك تقول إن الذين يثيرون الفتنة بين المسلمين خاصة. وبين الشعوب عامة بعيدين عن هدى النبى وروح الإسلام.

- أجل.

- هذا كسب كبير. لكن طريق الخير والحق، لايقتصر على عبادة الله بالشعائر المحددة. حقاً إن التوحيد الذى يربط الإنسان بربه. هو هدف الرسالة الدينية. لكن محمداً عليه الصلاة والسلام، كان زعيماً شعبياً إلى جانب كونه رسولاً نبياً، أختاره الله من العشيرة الفقيرة فى قريش. اختياره من الفقراء. وهم الكثرة الكبيرة من خلق الله - يتضمن حكمة الهية عميقة. حقاً أن النبى أرسل للبشر كافة. ولكنه زعيم الفقراء. جاء لتحريرهم، وجعل الحكم لهم، فهم يمثلون الكثرة الساحقه من عباد الله. وهذا هو جوهر الديمقراطية. ولايمكن أن يكون الحكم للقلة التى تستغلهم.

دهش عبد الصمد لسماعه هذا التفسير. ذكره بحواره مع

الشيوعى فى الزنزانة المشتركة ورد عليه:

ـ هذا صحيح

وواصل الإسلامى:

ـ هيا بنا هيا، ننضم لصلاة الجماعة.

اقامت الجماعة فى المدينة يومين. ثم ارتحلوا إلى مكة فى أتوبيس فخيم، ينساب على طريق ناعم كالحرير، وصلوا مكة.. نزلوا فى فندق يطل على الكعبة الشريفة. استيقظ الجميع فى الفجر. كان اليساريون اسبق المجموعات إلى العبادة ـ بدأ همس مجدد فى المجموعة الإسلامية. قال أحدهم لرفيق، الإسلامى المستنير.

ـ اصحابك يسبقوننا لأداء الصلاة.

ـ هداهم لله.

ـ كيف يطلقون عليهم «الملحدون»؟

ـ الطبقة الرأسمالية. والرجعية، هى التى تتهممهم.

ـ وما رأيك أنت؟

ـ أنا لا أحكم إلا بما أرى. ها هم أمامك، لايقلون عنا إيمانا.

ـ قد يكون ذلك تمثيلاً.

ـ ما الذى يجبرهم التمثيل؟ الرسول الكريم يقول «على أن احكم بالظاهر والله يتولى السرائر».

كان الجو صيفا، بدأ الرحالة أداء العمرة بعد صلاة العشاء. فى جو معتدل. تلطفه نسمات الليل. نسمات لاتهب، إلا حين تختفى الشمس، وما أدراك ما شمس الحجاز انتهوا من شعائر العمرة عند منتصف الليل - فى الصباح، بدأو الجولة الاجتماعية، على مسافة غير بعيدة من الحرم الشريف، كانت أكوام القمامة مبعثرة فى شوارع قذره، لاتليق باقدس مكان. تؤمه ملايين المسلمين من كل فج، ولا بدولة غنية قفز البترول بدخلها، فأصبحت من أغنى دول العالم.

أمضى المعمرون اياماً ثلاثة فى مكة المكرمة، ثم ارتحلوا إلى جدة، الأوتوبيس الفخيم مرة اخرى. الطرق السريعة على أحدث طرازجالوا فى جدة. مدينة غريبة؛ ناطحات الشمس الحارقة، ليس فى السعودية سحاب الشوارع تبرق كالزجاج. المحلات التجاريه حافلة بالسلع الاجنبية، تأتى من كل الدنيا عدا السعودية نفسها.

المرأة سافرة متبرجة، وتلبس المينى جوب، والفساتين القصيرة. السيقان عارية، تشبه سيقان الماعز هل هذه سيقان محلية. تعرت تنتهز فرصة وجودها فى جدة؟ هناك ايضاً سيقان مدملجة، كقماع السكر. هل هذه سيقان مستوردة؟؟

يلف الرحالة إلى الشوارع والاحياء الخلفية. لم تكن جديدة عليهم. رأوا مثلها فى عشش الترجمان. وبولاق الدكرور، الفارق فقط فى الفن المعمارى هنا طراز عربى، أكواخ مفتوحة، فى مصر

تقفل الأبواب، حتى لاتظهر عورات المجتمع.

ذهبوا للتفرج على المطار فى تاكسيات امريكية فارهة. أين تتضاءل امامها مطارات «اورلى» وديجول» فى باريس و «هيثرو» فى لندن، ابنية فخيمة ملكية.

فى اليوم التالى، قاموا برحلة طويلة بالأتوبيس، وصلوا إلى المناطق، التى تشرف على اليمن، وجدوا الإنسان العربى، كما هو يسكن اكواخاً وخياماً بدوية. لم تمسه بركات البترول، يرعى الماعز والإبل الضامره، تشاركه ضمور جسده، التخلف يغشاه فى معيشته وغذائه وعقله، الأمية تفرد اجنحتها على الناس، المستوى الصحى متدهور. يبدو أن الدولة تصر على الجمع بين الثروة والتخلف، القادة يؤمنون بالأخوة العربية.. حال السعوديين على حدود اليمن. يجب أن يتماثل مع حال اليمنيين، اشقاءهم، التضامن العربى، يتطلب أن يشاركوهم التخلف.

كان يرافق الجماعة «مطوف سعودى» كان لهم بمثابة مرشد سياحى، قادهم إلى الجنوب الشرقى للمملكة، المتاخم لسلطنة عمان، من الجنوب الغربى إلى الجنوب الشرقى، ياقلبى لاتحزن سألوا الرجل: أين النفط وريالاته، ودولاراته، لماذا لا تنفقونه على تقدم الناس وتنميتهم بدلا من هذه البنايات والطرق المظهرية؟ رد المطوف.

- ألا تعلمون إننا نزرع القمح ونكتفى ذاتياً فى إنتاجه؟

وتساءل واحد من المجموعة.

ـ ما هى التكلفة فى زراعة القمح؟

وأجاب آخر

ـ هو لايعرف.

عاد الركب إلى جده ـ استراحوا يوماً من الرحلة الشاقة ـ أخذهم المرشد لزيارة مصنع للبتروكيماويات، ما أن اقتربوا من المصنع، حتى لفتهم سحابة كثيفة من الدخان تعلو إلى السماء وتسد الأفق، أخذ أفراد الجماعة يسألون المرشد فرادى، وهو يرد على اسئلتهم.

ـ هذه الموجات من الدخان مختلف الألوان تلوث الصحراء العذراء التى تشتهر بهوائها النقى.

ـ الصحراء الواسعة تستوعب هذا الدخان وغيره.

ـ اين يذهب ناتج هذه الصناعة؟

ـ إلى الخارج. نحن شركاء فيه مع الولايات المتحدة.

ـ الا تستخدمون جزءا منه لتنمية الصناعة الوطنية؟

ـ لا

ـ من الذى يدير هذا المصنع؟

ـ مدير امريكى.

ـ من الذى يشرف على الجانب التكنولوجى؟

- فنيون ومهندسون اجانب.

- ألا يستخدم فيه مهندسون وفنيون سعوديون؟

- ليس لدينا الكادر المتخصص لكننا سوف ندربهم.

- ما عمر هذا المصنع

- نحو خمسة عشر عاماً

- ألم تدربوا المهندسين والفنيين فى هذه المدة

- ليس بعد

- هل يشغل المصنع يدا عاملة وطنية؟

- السعودية ليس لديهم قوة عاملة صناعيه هذه المشروعات توظف قلة من العمال اليدويين، وهى تعتمد على الآلات البالغة التقدم. والعمالة اليدوية ضئيلة، موظف فيها بعض الاخوة العرب.

- من يجرى الحسابات فى هذا المصنع؟

- الحسابات معقدة. يقوم بها محاسبون امريكيون.

- ماهو نظام التسويق لمنتجات هذه الصناعة؟

- ينقل الناتج بطبيعة الحال على السفن الامريكية ويقوم بتسويق المنتجات وكالات للشركة وفروعها فى امريكا وأوربا.

- وتقول ان هذه صناعة سعودية؟ ثمراتها كلها تنف للأمريكيين وتترك لكم التلوث والمرض والتخلف.

ـ كيف تقول ذلك؟ الحمد لله لم يسمعك أحد من السلطات أو من إدارة المصنع.

ـ هذه ملاحظة أخوية

ـ لا أخويه، ولا غيره. لا ترددها ثانية. وأعدك بانني لن أنقلها لأحد.

ـ أشكرك.

*****

فى اليوم التالى، شهدت المجموعة فاجعة، كانوا يجوبون شوارع المدينة فى جولة حرة. انتهوا إلى ميدان فسيح، جمهور كبير من الناس يملأ الميدان على سعته. فى وسطه منصة، وقف عليها إنسان هزيل. يحيط به حراس يحملون سيوفاً واسلحة اوتوماتيكية. الرجل نحيل شاحب الوجه ـ عظامه تكاد تخترق جلده، قذر الثياب، زرى المنظر، تجمعت عليه امراض التخلف جميعاً.

امسك الحراس بيده اليمنى وضعوها على حافة منضدة، رفع احدهم سكيناً ثقيلاً مسنوناً، يبرق منه الشرر. هوى بها، ليقطع يد الرجل، كان هذا سارقاً، النظام يفخر بتطبيق شريعة الله. اى يقطع يد السارق. حتى لو كان جائعاً متخلفا، كهذه الضحية.

شئ عـجيب: سـمعت صـيحـات: الله أكبـر، الله أكبـر، وصرخات استـحسـان من الـجـمـهـور، وجوه بعض الأعـضـاء، تنضح بالتقزز والغضب، قالت الاستاذة رهيفه.

ـ هذه وحشية.

رد عليها إسلامى تشرق السعادة فى عينيه:

ـ هذه شريعة الله.

ـ هذه ليست شريعة الله.

غـضب الإسـلامـى. أخـذ شـكـله ينقلب، ووجـهـه يتـقلص، وهم بالاعـتـداء على السـيـدة، لحـقـه الإسـلامى المسـتنيـر رفـيق، هدأ من ثائرته. ذكره بروح الإسلام السمح. تحول غضبه إلى عبارة:

ـ كيف تجرؤ هذه المرأة على هذا القول؟

ـ لابد أن تستمع إليها لعل لديها حجة.

وردت السيدة:

ـ حجـتى استـمـدهـا من منطق الإسلام وتاريخ قـادته: الحدود، بما فـيـهـا قطع يد السـارق، لا تطبق إلا فى مـجـتـمع عـادل. انتـهى من مشكلته الاجتماعية، يحظى الإنسان فيه بغذاء صحى، وتعليم كاف وعمل مـنتج، ودخل يكفل له الحيـاة، كإنسـان كرمه الله ثم بـعد ذلك نحاسبه.

خذوا مثلا الخليفة القائد عمر بن الخطاب: أوقف حد السرقة فى أعوام المجاعة. والمجاعة فى التعبير الحديث هى الأزمة الاقتصادية، يستوى ذلك الجوع البحت، أو الغذاء المتردى، كيف «تقطع اليد العاملة الشريفة، التى تنتج الخير، وتترك أيدى الطبقة لحاكمة المترفه، التى تغرق فى الرجس والظلم والسرقة.

علق رفيق.

ـ أرأيت أن الحلم والسماحة أفضل؟

وعقب إسلامى آخر:

ـ هذا ما كنا سنفعله بالذين يحكمون هذا النظام، كنا سنقطع أيديهم لو نجحت حركتنا، لقد احتل زملاؤنا الكعبة. وأردنا أن نمسك بالحكم. لكن وا أسفاه فشلت الحركة. وتعرض الذين قاموا بها لأهوال وأهوال. قذف بهم من طائرات تحلق على أرتفاع عشرات الآلاف من الأقدام.

طلب الإسلاميون أن تزور الجماعة الأماكن المقدسة فى عرفات ومواقع رمى ابليس بالجمرات. ذهب الجميع شوقاً إلى تلك الرحاب الطاهرة. فجعوا! القذارة تغطى الأمكنة الشريفة ـ القمامة وزجاجات الكوكاكولا وعلبها الفارغة. بقايا عبوات الورق الخاصة بفراخ كنتكى الأمريكية. فضلات الإنسان. كانت اللطمه كبيرة. كيف تترك هذه الدولة هذه المناطق دون عناية ونظافة؟

كان أكثر المصدومين إبراهيم، لم يستطع أن يعبر عن لواعجه. راعى شعور زملائه المسلمين، لم يقل لهم إنه عندما زار مدينة الفاتيكان فى روما، مقام البابا، وليس مقام المسيح.، رأى الأناقة والنظافة والفن الرفيع، كيف يقبل المسلمون أن تعامل الحكومة اماكنهم المقدسة هذه المعاملة؟

*****

(١٨)

فى الصباح، أخذ الركب طائرة امريكية متجهة إلى جنوب الولايات المتحدة، إلى كارولينا الجنوبية. لم يجدوا امكنة لهذا العدد الكبير فى الطائرة المقلعة إلى نيويورك، فرصة لرؤية أماكن أخرى غير تلك المدينة.

عقدوا اجتماعاً لأعداد برامجهم فى الولايات المتحدة، قدم الذين تزوجوا لدخول السعودية، طلباً عاجلاً: تعديل الأتفاق، الذى ابرموه فى اسلام أباد، وإلغاء البند القائل: بالا يتصل الزوج بزوجه، إلا بعد الرحلة، وحددوا الليلة لتكون ليلة «الدخلة» بعرائسهم!

علق بلبل اللبرالى:

ـ هذا سيعوق مهمتنا، هذه رحلة للبحث عن مجتمع أفضل، ليست رحلة للزواج وشهر العسل.

أراد شاب من المتعاقدين أن يشاركه التهكم:

ـ شهر العسل سمة من سمات المجتمع الأفضل.

وأضاف شاب آخر.

ـ أنت آخر من يحد من حريتنا فى تقرير مانشاء، فأنتم لاخير فيكم غير الدفاع عن الحرية والديمقراطية.

وقال إبراهيم.

ـ نحن لانقيد حرياتكم، ولكنكم ستعقدون الأمر، وتقللون من قدرتنا على تحقيق الهدف من الرحلة.

تدخلت شيرين، المحجبة الأنيقة:

ـ لاتوجد تعقيدات، على العكس، أنني أرى فى الأقتراح حافزا على مواصلة البحث عن مجتمع أسعد، يعيش فيه أبناؤنا، الذين ستنجبهم من هذا الزواج.

يقظت الملاحظة نور فأشتركت:

ـ أرجو من المعارضين «لليلة الدخلة» أن يوفروا جهودهم، هذا الوصال بين المتعاقدين سيتم رضى المعارضون أم أبوا.. الخوف من معوقات لا أساس له. أعضاء هذه الرحلة ثائرون وساسة. وعيهم

عال، إنهم يعدون أنفسهم لقيادة شعب، كيف لايستطيعون قيادة أنفسهم؟

صفقت رهيفة للفتاة وعقبت:

- أنا أؤيد نور تماماً. أول بند من بنود النظام الذى نبحث عنه، هو الحرية والديمقراطية لشعبنا،كيف نمنعها عن زملائنا؟ وهى حرية مشروعة معقودة فى عقد شرعى.

أنقلب الاجتماع ليكون حفلا للزفاف. كان حفلا مصرياً فى وسط امريكى. رقصت نور رقصة أثارت المحتفلين من كل عمر. حاول إبراهيم الا يركز كثيراً على العود المتأود والخصر المخنصر والأرداف الثقال، زغرتت البنات الفلاحات. ملأن الفندق بالنغم الريفى الشجى. قامت العرائس يرقصن، والعرسان يتحنجلون: كانت المفاجأة، أن رقصت المحجبة الأنيقة. كانت رائعة فى تثنيها المحتشم، وفى رعشات جسدها المحسوبة. أمضى الجميع وقتاً ممتعاً. لم يشوه جماله، غير إنسحاب بعض الإسلاميين عندما بدأت شيرين الأنيقة، ترقص، غير أن أنسحاب الإسلاميين لم يغير من التطور الذى حدث للمحجبة. أفكارها الإسلامية مستنيرة. أناقتها وشت عن رغبتها فى التحرر، قالت لعريسها اليسارى صبيحة ليلة الزفاف فى الصباحية:

- أريد أن أتحرر من الحجاب.

أبتهج اليسارى العريس للمفاجأة لكنه حكم عقله:

ـ أنا سعيد بقرارك، لكنك تعلمين أن معنا مجموعة إسلامية بعضهم شديد التزمت، قد يفسر القرار خطأ، نريد أن نظل مجموعة موحدة إلى أن نعود للوطن، فلنؤجل قرارك الآن.

******

احتفل العرسان والعرايس بالدخلة، فى غرفة خاصة بكل زوجين، عدا نور وإبراهيم. كان العهد بينهما أن الزواج مؤقت، ينتهى بنهاية الرحلة، الحق أن كلا منهما كان عاشقاً للأخر، لكنه كان عشقاً غريبا، الثورة سداه ولحمته، الفرحة بالريفية الحلوة، التى تمثل حلاوة مصر وريفها وكادحيها. الفلاحة الأولى التى تسهم فى الثورة على الظلم، عيون الغزال، الأهداب التى تجمع بين القوس والسهام، العود السامق، النهود «تطرف عينيك». كل هذا يجمل الرابطة. لايشكلها جنساً، لكن يصقلها عاطفة متكاملة، مازال إبراهيم يعارى، هى كذلك تهيم به، وجدانا ثوريا، كنزاً نضالياً، وقمراً منيراً، يعطى للثورة وهجها.

التقت به بعد أن انفض مولد الزفاف، قالت له بلغة فيها ضراعة، بقدر ما فيها من قوة:

- أعتقد أن من حقى أن أحتفل بالرابطة بينى وبينك هذه الليلة. لن أخلف وعدى. ولن أطمع فى زفاف من حقى شرعاً. لكنى أتطلع إلى خلوة معك. أروى فيها عطشى إليك. وأطلق العنان لعواطفى التى مابرحت وجداً فى ضلوعى، ونورا فى عينى.

رد عليها:

- الرابطة بيننا أزلية، تسرى مع دمائنا، كيف نحتفل بها؟

- سأريك.

- أذكرك بالعهد

- لاتخف، أنا عند وعدى

- ماذا تريدين؟

- نذهب معاً إلى غرفتك

- لماذا نسعى إلى حتفنا بظلفنا؟

- اطمئن لن تموت، بل ستحيا

- أنت تمنحينى الحياة عن بعد

- وسأحافظ على حياتك عن قرب.

اصطحبها إلى غرفته. جلست إلى جواره على الكنبه قالت له:

- لى أمنية.

ـ ماهى

ـ أن تضع رأسك على صدرى، طالما غازلتنى هذه الأمنية فى المنام واليقظة. كانت تلك الرغبة تلح على. وددت لو اصارحك بها. كنت خجلى. خشيت أن تفسر رغبتى، كما يفسرها سائر الناس، امتنعت عن البوح بها، رغم لهفتى الشديدة عليها.

وفاجأها خالد:

ـ هذه الرغبة نفسها عصفت بى كذلك سنوات طوالا، طالما وددت أن أضع رأسى على نهديك السخيين. أنهما يمثلان لى خصوبة مصر: النيل يجرى معطراً بين نهديك، تمنيت لو اتلقى عن قرب، الشعاعات التى تنسال من عينيك. ألمس فيها عزم شعبنا الكادح على التحرر.

بادلته نور النجوى:

ـ أما أنا فتمنيت أن تسمع وجيب قلبى، يصلصل بالثورة. أحببت كذلك أن يكون نهدى مضطجعاً لرس عبقرى. يختلج بحب الإنسان. يهيم فى النضال من أجله.

أرقد رأسه على صدرها، أحتضن نهديها. هاماً فى دنياهما الحافلة بالخيال والنضال والحب، اصبح تحقيق الأمنية حلالا، يسرها عقد الزواج الذى تطلبته الرحلة. نعموا بزفاف من نوع خاص، ثم قادها إلى غرفتها، وعاد هو إلى غرفته.

توزعت الجماعة إلى مجموعات صغيرة. اليوم جولة حرة. يتوق الرحالة إلى الأستمتاع بيوم سياحى، فهم فى امريكا، زعيمة العالم الرأسمالى الديمقراطى الحر بشطريه المتقدم والمتخلف. اكبر الدول ثراء وتقدماً تكنولوجيا، فليستمتعوا بالاء ذلك المجتمع. هذا مبرر من جانب المزفوفين بالأمس. وهو اكثر تبريراً بالنسبة للمزفوفين بالأمس البعيد.

قرروا ركوب الأتوبيسات اللوكس، التى تنساب على طرق، تبرق كالزجاج. هذه الحافلات لا تعج بالناس، كما هو الحال فى القاهرة. حيث البشر يحشر بطينه وعرقه، فى علب من صفيح صدئ جاء الأتوبيس فخيماً يتهادى. وقف على المحطة. أندفع بعض أفراد المجموعة. قفزوا إليه قبل أن يتوقف تماماً كأنهم فى القاهرة. توقف الأتوبيس بعد بضعة أمتار لم يكن التوقف بسبب معاملتهم للأتوبيس الأمريكى وكأنه أوتوبيس مصرى كان هناك سبب فاجع أخر. قال الكمسارى بلهجة أمريكية زاعقة.

ـ هذا الأتوبيس مخصص للبيض ممنوع ركوبه على السود والملونين.

الدكتور المحامى اللبرالى يفاخر دائماً بالديمقراطية الأمريكية كان اول من سأل السائق.

ـ ما المقصود بالملونين؟

كان الأجدر به أن يسأل : كيف يفرقون هنا فى هذا البلد

الديمقراطى بين الناس حسب لونهم: أبيض وأسود وملون.

يبدو أنه كان مشغولاً بقضيته هو. قال:

ـ انا لست أسود ولا ملوناً أنا بشرتى بيضاء!

رد عليه السائق الذى يبدو أنه متعلم:

ـ انا اسف أقصد أن هناك فارقاً بين الاجناس البيضاء الراقية والاجناس السوداء والملونة المتضعة.

حاول السائق «يكحلها فعماها». ثار الشباب المصرى عليه صرخوا فى وجهه. قال أحدهم:

ـ أن لنا حضارة منذ آلاف السنين، فى الوقت الذى كان مستعمروكم من الإنجليز شعباً من البرابرة.

أنهى السائق المناقشة بعبارة بسيطة

ـ أما أن تنزلوا أو احضر لكم البوليس.

ركب المصريون رؤوسهم ضاعت وسط الصخب، كلمات العالمين بطبيعة الديمقراطية الامريكية والغربية عامة.

حضارة بنيت على استعباد الشعوب ونزف عملها ومواردها. من الطبيعى أن تئول إلى أمتهان شعوبها والتحقير من اجناسهم. صرخ أحد الشباب فى وجه السائق.

ـ لن ننزل من هذا الأوتوبيس ولا بالبوليس.

أجرى السائق من تليفون لاسلكى بجانبه محادثة تليفونية. بعد دقيقة واحدة جاءت شلة من الجند يبدو أنه أبلغ عن مظاهرة أجنبيه ضد النظام الأمريكى.

صعد بعض الجنود إلى الحافلة أحاط البعض الآخر بها، تبينت المجموعة أن الأمر جاد وسوف تتعقد الأمور. قال لهم قائد الجند.

- يجب أن تغادروا الأوتوبيس فوراً أنه مخصص للبيض فحسب.

رد عليه إبراهيم.

- حسبنا تزعم الأمريكيين للديمقراطية فى العالم، قد عالج التفرقة العنصرية بين البيض والسود

رد رئيس العسكر رداً عدوانياً:

- أنتم لا تأتون إلى هنا لتعلمونا درساً فى الديمقراطية. عليكم أن تحترموا نظام هذا البلد وتتعلموا منه، ثم رفع صوته وأنهى النقاش أنهاء باتراً:

- أنا لم أحضر هنا لأتناقش «هيه كلمه» أما أن تغادروا الأتوبيس وأما السجن.

نزل المصريون من الأتوبيس فرداً وراء فرد، تسببت الحادثة فى تقزز واضح بدأ على الوجوه. أقترح بعضهم إنهاء الرحلة فى هذا البلد. ورد المعتدلون جئنا هنا لندرس لا لنغير أنظمة الكون وبينما هم يتبادلون الرأى جاء أتوبيس ثان أقل فخامة من الأول. عليه لافتة

تقول «للملونين فقط» قسمة عادلة: حافلة للبيض، وحافلة للسود
كان الأتوبيس كامل العدد لا مكان فيه للفريق المصرى انتظروا
اوتوبيساً آخر وصل حاملاً للافته مكتوب عليها «أتوبيس مشترك»
عال خطوة ديمقراطية. صعدوا سلم الأتوبيس أغلب المقاعد للبيض.
ترك فى الخلف صفان فقط كتب على أحدهما للكلاب وعلى الثانى
للسود.

لم تكن المقاعد كافية لجلوس المصريين، لن يجلسوا فى هذه
للقاعد احتجاج صامت على هذا الأذلال للأجناس الملونة وقفوا فى
للمر بين المقاعد. وقف الأتوبيس صاح السائق فى ميكروفونه
ممنوع الوقوف زاد الطين بلة قوله «هذا الممر مخصص للبيض،
المصيبة الزرقاء أن السائق كان زنجيا أمريكياً أسود ينفذ تعليمات،
ويصدر أوامر بتحقير عنصره، تسلل المصريون من الحافلة إلى
الشارع نزلوا منكسى الرؤوس لم يقتصر الأمر على الليبراليين
والرأسماليين، الذين صدمهم النظام الأمريكى، كانت رأسماليته
وديمقراطيته تغازل الكثيرين منهم لدرجة العشق.

ضيعت هذه الأحداث على الفريق فترة الصباح كلها، كان صباحاً
من العسل الأسود للمزفوفين بالأمس، عادوا إلى الفندق ألتقوا
بالفريق الآخر: لم يكن أسعد حالا من الفريق الأول، قال بعضهم
قررنا أن نتجول على الأقدام ـ بهرتنا السلع الحديثة الغالية،
تعرضها المحلات التجارية ـ والسيارات الفارهة عرضها شهر وطولها

عشر ـ الأناقة والصحة والرخاء تتبدى فى وجوه الناس فى الشوارع استغرقنا الأبهار إلى أن جاء منظر بدده: مبنى كبير، مدرسة للتعليم الأساسى . دارت حولها معركة حربية استخدمت فيها كل فنون القتال. الأسلحة متنوعة: الطوب والحجارة، العصى الغليظة ـ المطاوى ـ البنادق والمسدسات. الحبال التى يستخدمها رعاة البقر فى أفلام االكاوبوى الأمريكية اجاد التلاميذ فنونها، ما الخبر؟ استقيناه من امريكى زنجى، جاء يتفرج على المعركة:

ـ هذه معركة بين السود والبيض.

ـ ما سببها؟

ـ سببها أن طفلا أسود دخل المدرسة ليتعلم مع الاطفال البيض كانت المدرسة قد سمحت بقبول عدد قليل من ابناء الزنوج الامريكيين، ثار التلاميذ البيض واهلوهم، طردوا الطفل اعتدو عليه، ذهب إلى حيه، اثار أهله وزملاءه. جاءوا إلى المدرسة ونشبت المعركة.

ـ أليس التعليم ديمقراطياً للجميع سود وبيض فى هذا البلد؟

ـ من قال هذا؟

ـ الدستور الأمريكى.

ـ الدستور لا يطبق. الذى يطبق هو شريعة البيض العنصرية هذا انتم ترون بأعينكم، قولوا لعشاق الديمقراطية فى بلدكم ..

يكفوا عن الحديث فى الديمقراطية الأمريكية.

أما الفريق الثالث، فقد جاء برواية أنهت زيارة المصريين لجنوب الولايات المتحدة. شهدت هذه المجموعة جرائم قتل جماعية وفردية. تقوم بها العصابات الأمريكية البيضاء فى وضح النهار منها جماعة تسمى «الكوكلوكس كلان» أخذت على عاتقها تخليص البشرية من العنصر الأسود.

تساءل البعض: ماذا فعل الزنوج ليكرههم البيض هذه الكراهية؟،

جاءوا من افريقيا، عمروا أمريكا، مهدوا الأرض، وزرعوها. أخرجوا كنوزها، سلموا ذلك كله خالصاً للبيض، يثرون منه ويكفل لهم السيطرة على الحكم.

سببت هذه الحوادث رعباً لافراد الفريق المصرى جعلتهم يعزفون عن البقاء فى هذه المدينة غادروها فى الصباح إلى نيويورك.

ناطحات السحاب تتجاوزه لتنطح السماء منظرها يبهر كل من يهبط إلى نيويورك. وقف افراد المجموعة مشدوهين. هذا الجمع بين الروعة والرهبة والهندسة هذه البنايات الباذخة، تجعل الإنسان يبدو صغيراً امامها، لعل الرأسمالية الأمريكية تريد ان تسمو فوق أهل الأرض جميعاً. هذه هى تطاول السماء. وتبقى الشعوب الآخرى قريبة من الأرض.

مـرت لحظات الـرهبـة والإبهـار والتـصـغـيـر، بدأ أفـراد الجـمـاعـة يفيقون من صـفعة اللقاء، ليس الإنسـان صـغـيراً. فهو الذى بنى هذه القـلاع البـاسـقة المهـندسـون صـمـمـوهـا عـمال البناء اقـاموا عـمـدها وحوائـطها. وارتفـعوا بهـا هذا الأرتفـاع. لو جـمع الرسمـاليون امـوال الدنيا وكومـوه فى مواقع هذه العمائر ما قامت ولا علت شـبرا واحدا العمل الإنسانى وحده هو الذى أبدعها اليس هؤلاء الزنوج والملونون الذين يحتقرهـم البيض هـم الذين شيدوها؟ العمل اليدوى فى امريكا مـعظمـه أسـود أو ملون. سـواعـده هـى التى اقـامت هذه الابـنيـة الشامخة، المهاجرون البيض جاءوا من أوربا وعمروا امريكا، حصلوا على التمويل من نزف موارد المستعمرات. الشعوب الملونة والسوداء هى التى شيدت هذه البنايات التى يتخذها الرأسـماليون الأمريكيون وسيلة لتصغيرها.

عندمـا ترددت هذه الخواطر فى أذهان المجـمـوعة، رفـعوا هامـاتهم اخـذوا يضـيـقـون بهـذه الأسـوار المرتفـعـة. كـتل عـاليـة من الحـديد والاسـمنت تطبق على صـدورهم. كـأنهـا مـعـتـقل شـاهق الأسـوار. تحـجب ضـوء الشـمس، ونور السـمـاء. ترهـق النسـيم فى صـعـوده وهبوطه وتفقده عذوبته، لم يعد عليلا، بل غدا ميتا.

يبـدو أن عقدة الثـراء والتعـالى، امتـدت من العمـائر إلى السـيارات تسد الشـوارع بطولهـا وعرضـها وضـخـامتها، حضـارة أوربا ولمساتها الجـمـاليـة، لم تنـتـقل كـلهـا إلـى هذا البلد، الضـجـيج الصـارخ فى

الشوارع، موتورات، العربات الكبيرة، الكلاكسات الزاعقة الغرامل تمسك بالعجلات فى صراخ مزعج، سيارات البوليس والأسعاف والحريق والطوارئ وسيريناتها وسرعتها الرهيبة.

الشارع ملوث: السيارات تطلق سمومها، هذه السموم تبقى على الأرض تعجز أن تعبر ناطحات السحاب احتاجت الجماعة لاستنشاق هواء نقى، اسرعوا إلى حديقة من الحدائق الواسعة. كانوا فى شوق

لرؤية السماء وجدوها مربدة، تغشاها سحب متجهمة. عادوا إلى الفندق، لم تستطع المحلات التجارية العملاقة ان تغريهم بالتفرج عليها، لم تفلح فى ذلك ملابسها الفاخرة، وأثاثها الرائع، ولاسلعها العالية التكنولوجيا، سرى إلى نفوسهم تجهم السماء، وتلوث الأرض. زاد من ذلك التجهم أن أسعار السلع، كانت فوق قدراتهم الشرائية.

ـ تود الجماعة أن تزور الكونجرس، لكنه يوجد فى واشنطن الرحلة إليها شاقة ومكلفة. وجد الباشا حلا له اصدقاء من الشيوخ والنواب من الحزبين الجمهورى والديمقراطى فى نيويورك. أتصل بهم اتفق على لقاء فى ناطحة من ناطحات السحاب المشهورة «الأمبير ستيت» فى الطابق الثمانين وفى قاعة فاخرة، عقد اللقاء المنظر يطل من عل على المدينة كلها، يخلب اللب ويلهب الخيال، ويرجف القلب، بدأ الباشا الاجتماع.

ـ نود أن تأخذ فكرة عن نظامكم الديمقراطى نحن نعرفه من

الكتب نريد صورة مباشرة.

أخذ عضو الشيوخ يشرح الديمقراطية الأمريكية ومجلس البرلمان وتعدد الاحزاب وحرية الناخبين وكذلك الحريات التى يحظى بها المواطنون الامريكيون دون تفرقة بسبب الدين أو الجنس او اللون هب فى وجهه شاب يسارى قائلا:

- هذه الديمقراطية العظيمة التى يتمتع بها السود الأمريكيين وغيرهم من الملونيين فى هذا البلد.

نظر السياسى الأمريكى إلى الباشا.

خاطب الباشا هذا الشاب باللغة العربية:

- ليس من الحكمة أن نخاصم هؤلاء الساسة.

وتساءل إسلامى:

- ما مظاهر الحرية الدينية فى بلادكم؟

- كل إنسان يختار دينه، وله حرية ممارسة شعائره هذا هو عنوان جماعة من أكبر الجماعات الإسلامية فى بلادنا.

اكتفى الإسلامى بهذا السؤال. تولى إبراهيم المناقشة:

- وجود حزبين: حزب جمهورى وحزب ديمقراطى لايعنى تعدد الأحزاب والأتجاهات فهذا فريق رأسمالى واحد قسم نفسه إلى قسمين الجمهوريون رأسماليون وكذلك الديمقراطيون وهم

يحكمون الولايات المتحدة بالتناوب. الولايات المتحدة محكومة بفريق واحد هم الرأسماليون بغض النظر عن انشطاره إلى شطرين.

ـ هذا مايريده الشعب الامريكى

ـ حينما انقسم الحزب الرأسمالى إلى فريقين، احتكرا الحياة السياسية والاقتصادية ولاتستطيع أية جماعة أن تنافسهما فى الانتخابات هما اللذان يستطيعان خوض المعارك الانتخابية، الباهظة التكاليف، أين أحزاب العمال، والسود والملونين، والطبقات الفقيرة الكادحة فى امريكا. الحزب الرأسمالى الواحد بفرعيه، هو الحاكم.

ـ إن ما يميز نظامنا أن فيه حزبين، وليس كالنظام الروسى، الحزب الشيوعى الوحيد الذى يحكم.

ـ الديمقراطية الامريكية حين تسيطر عليها الطبقةالرأسمالية مقسومة إلى فرعين، لاتختلف عن نظام الحزب الواحد فى الاتحاد السوفيتى: هناك حزب يمثل الطبقة العاملة والفلاحين يحكم. وهنا حزب يمثل الطبقة الرأسمالية يحكم امريكا.

ازداد وجه عضو السنت هاوس احمرارا اجاب بصوت مرتفع ولهجة غاضبة:

ـ كيف تسوى بين الديمقراطية عندنا والشيوعية هناك؟ هل تستوى الحرية والديكتاتورية؟

ـ أرجو الا تغضب، وأن يكون الحوار ديمقراطياً، هل يمكن أن

أسأل عما إذا كان عندكم حزب شيوعى؟

- لا الدستور يحرمه.

- إذن الوضع متساو بينكم وبين الاتحاد السوفيتى، انتم تحرمون الشيوعية والرأسماليون يحتكرون الحكم وهم يحرمون الرأسمالية والشيوعين يحكمون.

هب الباشا لنجدة السناتور الامريكى. حول الحديث. اعطى الكلمة لبلبل اللبرالى. لاريب أنه سيقول كلاماً صديقاً، تساءل المحامى:

- لماذا لا يوجد لديكم حزب للأحرار او الليبراليين كما هو الحال فى إنجلترا مثلا:

- هذه مسألة تاريخية لم يستطع الليبراليون ان يكونوا حزبا، لهم الحرية فى ذلك، على أن هناك بعض الشرائح الليبرالية فى الحزب الديمقراطى.

الاء الباشا مازالت تترى على المجموعة، عضو الشيوخ صديقه يدعو الجماعة إلى قضاء يوم فى مزرعته، وتناول الغداء، وافق الباشا، لم يستشر زملاءه، إنه يعلم أنهم سيلبون أية دعوة للغذاء؛ حملهم إلى المزرعة رتل من السيارات الفاخرة. المزرعة لانهاية لأراضيها: آلاف الهكتارات محصولات تقليدية كالقمح والقطن، بساتين فاكهة من كل نوع، مراع يهوم فيها بقر اصحاء، خيل

واغنام، غـابات وانهـار وجـداول، بـحـيـرات «لازورديه» تصـطف على شطئانها قوارب بخارية وشراعية وأدوات التزحلق على الماء، غواصه زجاجية تغوض فى قاع البحيرة، تنقل لركابها قطعاً من مرجان البحر الأحمر واسماكه، واصدافه، قصور وفلل، تصور معمار القرون الوسطى وعصر النهضة والعصر الحديث، تبز القصور المترفه التى تعرضها مسلسلات دالاس وفالكون كرست.

جاء الغداء، تلاعبت البطون، قبل ان تنبهر به العيون، احتج الإسلاميون على وجود الويسكى والخنزير، استبعدا فى الحال، أسف الباشا ومعه كثيرون، كبتوا اسفهم.

نور هالها هذا الثراء، تساءلت:

ـ كل هذا يملكه شخص واحد؟

كان بجوارها دياب، يجيب:

ـ أيوه ياست نور.

سمعها إبراهيم فتدخل:

ـ اتفقنا على أن يكون هذا يوم ترفيه لا يوم حوار.

فى العودة اخذت السيارات طريقاً أخر شق حقول القمح الشاسعة سألت نور إبراهيم:

ـ أين يذهبون بهذا القمح كله؟

- يبيعه صاحبه ويحوله إلى رأسمال.

ثم تذكر إبراهيم مجالا آخر

- ويصدرونه لمصر ومثيلاتها يتسعبدون به حكوماتها وأهلها، يدفعون ثمنه وفوائده فى شكل قروض باهظة تقتضيهم كرامة بلادهم واستقلالها، ويمنحون الأمريكيين امتيازات وقواعد عسكرية فى بلادهم.

وهنا ردت نور:

- ألم تقل أن هذا يوم للترفيه لا يوم للسياسة؟

******

(٢١)

كانوا يتجولون فى شوارع نيويورك. تلاشت رهبة الناطحات للسحاب، لم يعودوا يعبأون بها، مضوا يشهدون المحلات التجارية،

تعرض سلعاً، غالية الثمن، الثراء المعروض فى واجهات المحلات، والسيارات الاستفزازية، تلعب بخيالات بعضهم.

فجأة نضب الثراء. ذوت الأبهة، وبليت التكنولوجيا، ماهذا الذى نرى؟ ما الذى جاء ببولاق الدكرور وعرب المحمدى وغرز الطالبية إلى قلب نيويورك؟ كان الركب قد وصل إلى حى هارلم، حى الزنوج الأمريكيين.

اصطبلات الخيل، وحظائر الماشية، فى مزرعة عضو الكونجرس نظيفة صحية، شتان بينهما وبين اكواخ الإنسان، الأسود، الشوارع قذرة، تهوم فيها حشرات تفتك بالسكان الملونيين، وتسهم فى عملية الفتك العنصرى التى يمارسها البيض على السود.

المواخير السوداء تعج بالزنوج، يتناولون فيها الحشيش والهيروين والماجونا، كل السموم التى تهدم الإنسان، البغاء فى الشوارع والأكواخ، يعرض نفسه عرضاً رخيصاً. يذكر المخضرمين من المصريين بالبغاء الفقير، الذى كان يسكن كلوت بك فى القاهرة. ويذكر الشباب بالبغاء التعيس الذى يتسكع حول مواخير الهرم وعماد الدين.

صدم المنظر بلبل اللبرالى، اكثر مما صدم غيره. الرأسمالية الامريكية الديمقراطية، كانت حلماً من احلامه، الحلم ينقلب كابوساً، سأل إبراهيم.

ـ كيف يترك الامريكيون هذه الوصمة فى قلب عاصمتهم؟

ـ إنى اذكرك بحديث دار بيننا فى تونس، عنمدا نفانا السلطان، قلت لك أن الصورة النظرية فى ذهنك عن اللبرالية والديمقراطية فى ظل الرأسمالية لا وجود لها، وإن الرأسمالية تئول بطبيعتها إلى الاحتكار. وها أنت ترى التناقض الحاد بين ثراء المحتكرين، وفقر هذه الفئات العاملة.

لم تكن الصورة على ترديها، قد اماتت نبض اللبرالية فى صدر اللبرالى، قال فى رد يشبه الدفاع:

ـ لكن هذا ينطبق على الملونيين فحسب. وهذه قضية معينة، قضية العنصرية.

ـ الاستعمار الأبيض قهر شعوب العالم الثالث واستغلها، تجار الرقيق البيض، جلبوا السود من افريقيا ليعملوا فى المزارع والمشروعات فى امريكا. اصحاب تلك المشروعات هم البيض. النين هاجروا من دول اوربا الاستعمارية إلى امريكا. نظروا إلى الأجناس الملونة، على إنها وضيعة، وجدت لخدمة الجنس الأبيض، الذى يستعبدهم فى المستعمرات. كما يستعبدهم فى امريكا. بهذا تكون التفرقة العنصرية جزءا اساسيا من الفلسفة الاستعمارية الرأسمالية.

ـ أنتم تقولون أن الرأسمالية تستغل العمال من كل لون، ولم نر حتى الأن استغلالا للعمال البيض.

ـ صبرك بالله، سوف نرى.

قابلت الجماعة زنجيا يبدو من ملابسه واناقته ومحفظة الورق الجلدية التى يحملها، إنه مثقف، تقدموا منه يرجونه فى حديث قصير، رحب الرجل خاصة عندما علم انهم من مصر، جلسوا فى كافيتريا تشبه مقاهى القاهرة البلدية. الفارق أن البيرة التى يعبها الزنوج، تبعث فى المكان رائحة غير مستحبة. افتتح بلبل الحوار:

ـ كيف تسمحون ان يعيش زملاءكم هذه المعيشة المتدهورة، وسط هذا الثراء الفاحش؟

ـ هذا هو النظام الامريكى.

واستدرك:

ـ أنتم تقولون زملاؤكم.. أنا أعيش هنا

ـ لكن حلتك انيقة.

ـ لأن لدى موعداً مع فتاة صديقتى.

ـ سوداء أو بيضاء.

ـ سوداء طبعاً يقتلوننى لو قابلت بنتا بيضاء واحببتها.

ـ من يقتلك؟

ـ هناك عصابات بيضاء مهمتها قتل الزنوج. وهى تقوم بهذا الدور بأسم المجتمع والحكومة.

ـ كيف؟

- الحكومة بنظامها ومؤسساتها والقيم التى تبثها تحرض البيض ضد السود.

وتدخل شاب يسارى فى الحوار:

- لماذا لاتؤلفون عصابات مضادة لتدافعوا عن أنفسكم؟

- هناك عصابات سوداء تنتقم من العصابات البيضاء، لكن العصابات البيضاء اقوى واغنى.

- لماذا لاتثورون على هذا التمييز العنصرى والاجتماعى؟

- الرأسماليون البيض وحكوماتهم مزقوا الحركة السوداء، ثم احتووها، هناك بعض السود فى الحزبين الحاكمين، ويعطون بعض المثقفين السود مناصب مغريه ماليا، لكنها ليست استراتيجية. اقتنع السود، بشكل غريب، بما يزعمون من ديمقراطية وحرية، العمال السود لم يؤلفوا نقابة سوداء، أو إتحاد أسود، ولا حزباً سياسياً، الدستور الأمريكى يحرم ذلك.

قال بلبل:

- لكنى لاحظت كراهية وتعصباً من السود ضد البيض.

واجابه الزنجى المثقف:

- هذا رد فعل، وكراهية سطحية، لا تتجاوز اللون إلى التنظيم الاجتماعى، الأبيض يحقر الأسود، وهذا يبادله التحقير، على الأقل بينه وبين نفسه، لكن الأسود حريص على النظام الأمريكى حرص

الأبيض عليه.

ورجع الشاب اليسارى ليؤكد:

- فى تاريخكم حركات سوداء قوية كحركة لوثركنج، وغيره،

- لوثركنج لم يكن ثائرا اجتماعياً، ينافح عن الجماهير السوداء الفقيرة. كانت حركته تدعو للمساواة فى الحقوق المدنية بين البيض والسود، ومع ذلك قتلوه. خشوا أن تتطور الحركة إلى مساواة حقيقية.

- أليس لديكم حزب شيوعى؟ وهل ينضم السود إليه.

- الحزب الشيوعى الامريكى سرى تحت الأرض، وبه بعض السود، لكنهم قلة.

- كيف يكون سرياً؟ أين الديمقراطية والحرية؟

- كلام فى الدستور.

سأله المحامى اللبرالى:

- ماهو فكرك السياسى

- أنا لبرالى

وسأله إسلامى:

- هل لديكم تجمعات اسلامية.

- انا مسلم

ـ الله أكبر.

صيحة من الإسلاميين، تحمسوا وتجمعوا حوله، وأخذوا يغرقونه بالإسئلة أنقذه إبراهيم بقوله:

ـ يا جماعة: الرجل لديه موعد مع صديقته الحسناء.

******

(٢٢)

كانت رحلة الجماعة إلى حى هارلم مقبضة موجعه، يريدون أن يعوضوها برحلة للترفيه، الباشا هو الذى جال خلال المدينة من قبل. يعرف اسرارها ويعلم فجورها وتقواها، أسر بكلمةٍ فى أذن بلبل المحامى، ضحك هذا فى قهقهة عالية. وعلق دياب:

ـ أضحكونا معكم. أنت ياباشا: يا أخى الأكبر نسيتنا تماماً.

ورد الباشا عليه:

ـ هو أنا أقدر؟ أنت زميل الأيام الحلوة، سأفتكرك اليوم بفسحة جميلة.

ـ الله يخليك الحقنى، المجتمع الأمريكى دوخنى بين المزارع الشاسعة والغنى الفاحش، وحى هارلم.

خاطب الباشا المجموعة:

ـ الفسحة اليوم ياجماعة مقصورة على الرجال.

تدخلت نور كالمعتاد:

ـ هل هذاهو المجتمع الذى نبحث عنه، مجتمع يفصل بين الرجال والنساء؟

ورد عليها الباشا رداً ذكيا:

ـ لا نحن هنا فى المجتمع الأمريكى. وليس المجتمع الأفضل، الذى نجرى وراءه.

واحب الباشا أن يتخفف:

ـ ... اللهم الا إذا اعتبرتموه المجتمع الأفضل، أنا ماعنديش مانع وإذا كان الأمر كذلك نذهب إلى هذه النزهة سوياً.

وتدخل بلبل

ـ اسمعى ياست نور، الباشا يمزح معك. أرجو الا تصرى على المساواة بين الرجل والمرأة هنا، ليس هذا فى صالحك.

فى شارع من اكبر شوارع نيويورك، عدة دور للسينما تعرض أفلاماً معينة. دخلوا أحداها عندما اطفئت الأنوار، وبدأ العرض اكتشف الرحاله أن هذه سينما جنسية. رفض بعض الإسلاميين البقاء. غادروا الدار، حتى لايروا هذا الرجس، بقى بعضهم، وضعوا ايديهم على أعينهم، حتى لايشهدوا المنظر المحرم، كانت الأصابع التى وضعوها على اعينهم منفرجة! كان الفيلم تفصيلاً صارخاً للعملية الجنسية. ظلت الأصابع متباعدة طول الوقت.

استخدم الفن السينمائى لأظهار دقائق العملية الجنسية. ولعرض مناظر من داخل الجسد الإنسانى لا يراها المرء حينما يباشر الجنس، أختير للعملية رجال كالبغال لهم أعضاء كالحمير، كانت العملية مثيرة ومقززة فى آن واحد.

التواصل الجنسى يعتبر سر هذا الكون واساس عمرانه تتجمع فيه انبل احاسيس الإنسان. ما بالهم يبتذلونه هذا الابتذال؟ استخدمت فى العملية الجنسية اعضاء ليس الجنس من وظائفها. اشتركت فى هذه الملحمة الجنسية الأجناس جميعاً من كل لون. المجتمع الأمريكى تقسمه التفرقة العنصرية. لكن أفلام الجنس تجمعه، تسودها الديمقراطية والحرية والمساواة، كانت العمليات تجرى بين اثنين من جنس ولون واحد، أو بين أسود وبيضاء واصفر وسمراء، أمر يلفت النظر، لم يكن هناك أبيض وسوداء، لون من الانتقام من البيض وأعتزاز بالزنجية. الزنجى يعلو البيضاء، بينم

الزنجية لا يعتليها أبيض.

عندما خرجوا من السينما رأوا غادات حسناوات يتخطرن على رصيف الشارع، يبتسمن لهم، هؤلاء هن البغايا المتقدمات الأنيقات. البغى تعكس ثراء المجتمع: تلبس أغلى الثياب، العطور من باريس، السيارات الفارهة من أمريكا تنتظر الزبون. تتقدم إليه قائلة:

ـ أتحب أن آتى معك

تسمع هذه الجملة منطوقة باللغة الإنجليزية بلهجات متنوعة: أمريكية، زنجية، فرنسية، يابانية، ومن جزر الهاواى.

أراد إبراهيم أن يبرز للمجموعة ظاهرة البغاء فى البلدان الرأسمالية. وصلت تلك البلاد إلى قمة الصناعة. ومع ذلك لم توفر عملاً منتجاً شريفاً لبناتها. عرض عليهم كتاباً عنوانه «إمبراطورية البغاء والمخدرات» شركات أمريكية كبرى تتجر فى البشر، تبلغ رؤس اموالها مئات الملايين. لم يعد الاصطلاح مقصورا على الرقيق الأبيض بل أصبح يضم الألوان كلها: البيض والسود والسمر والصفر والحمر، لهذه الشركات مجالس إدارة. تملك دوراً للسينما. ومكاتب للسمسرة، ووكالات وكباريهات ومواخير للبغاء ومتاجر للمخدرات، يعمل فيها قوادون على درجة فنية عالية. ومتخصصون فى الاقتصاد يدرسون صناعة الدعارة وتجارتها واسواقها حسب العرض والطلب، وقوانين الاقتصاد الرأسمالى ظاهرة غريبة وصل إليها الباحثون: بنات العالم الثالث، الطلب عليهم، فى أمريكا عال،

اسعارهن مرتفعة. هذا رغم أن البشر الذى يعمل فى المشروعات الاجنبية فى تلك البلاد اسعارهم بخسة.

عادوا إلى الفندق، واتاهم زملاؤهم الإسلاميون الذين أنسحبوا من السينما، جاؤا بنبأ فاجع: كنا عائدين من جولتنا مشاة. أردنا أن نكتشف المدينة، فجأة هاجمتنا عصابة مسلحه بالخناجر والمسدسات، طلبوا منا اعطاؤهم كل ما معنا من نقود، أخرج بعض نقوده فى هدؤ تركوهم يمضون فى حالهم، لكن أخين منا رفض طلب العصابة. كان الرد عاجلاً: طعنات قاتلة بالخناجر، خر يتخبطان فى دمائهما، فتشهما أفراد العصابة أخذوا نقودهم أختفت العصابة فى طرفة عين.

ـ أين البوليس؟

ـ لم يكن له أثر. كأن الأرض ابتلعته

ـ والجمهور

ـ بعضه كان يتفرج. وبعصه ماض فى طريقه

ـ هكذا ببساطة فى قلب نيويورك. العاصمة الفعلية لأمريكا زعيمة الرأسمالية، والعالم الحر.

ـ هكذا

ـ ألم تقاوموا؟

ـ كيف نقاوم ونحن عزل من السلاح وهم مسلحون؟

وقال إسلامى فى حسرة شديدة

ـ ياخسارة ـ تركنا المطاوى والخناجر والجنازير فى القاهرة!

ـ ثم ماذا حدث

ـ أبلغنا الاسعاف والبوليس من تليفون بالشارع ـ أخذوهما إلى مستشفى قريب، هذا هو عنوانه...

ذهب فريق من الجماعة ومعهم المنقبتان، الجريحان زوجاهما الطعنات، لحسن الحظ فى كتف احدهما، وفى ذراع الآخر، وهما يلقيان عناية طيبة، فى مستشفى مجهز تجهيزا تكنولوجيا، متقدما، وسيغادران المستشفى بعد يومين.

كانت الحادثة غمامة قاتمة، حلقت فوق رؤوس المجموعة، لم تعد لديهم رغبة فى المضى فى اكتشاف هذا المجتمع. ولا الوقوف على سر ثرائه وفقره، تحضره وهمجيته، أن ما رأوه كافياً للحكم عليه.

خرجت الضحيتان من المستشفى، اقترح الإسلاميون مغادرة أمريكا. قال المحامى الليبرالى.

ـ وددنا لو نعرف مزيداً عن الديمقراطية فى هذا البلد.

كان فى جراب إبراهيم كتاب آخر عن الحياة السياسية فى امريكا دفع به فى يد بلبل.

ـ هذا الكتاب يشبعك ديمقراطية امريكية.

لكن إبراهيم استرد الكتاب مرة أخرى. وقرأ منه:

- الكونجرس الأمريكى بمجلسيه «الشيوخ والنواب» تحتل مقاعدة، منذ نشأته حتى الآن (١٥٠ سنة) نحو ٢٠٠ عائلة، هم كبار ملاك الأراضى والمصانع والمتاجر والبنوك....

ثم عرض على المجموعة احصائية تبين أن هناك فى المتوسط ستة ملايين عاطل بين القوى العاملة. هذه البطالة فى حالة ما يسمونه العمالة الكاملة أما فى حالة العمالة غير الكاملة فالعدد يتجاوز تلك إلى عشرة ملايين أو اكثر.

قال بلبل

- لاتنس أن هناك نظاماً للتأمينات الاجتماعية والتأمين ضد البطالة العمال العاطلون يأخذون أعانات.

ورد إبراهيم

- هذا صحيح لكن أعلى نسبة لأعانات البطالة تبلغ نحو ٥٠٪ من الأجر. وبهذا فالبطالة التى ترين على هذه الملايين تنخفض بمعيشتهم وأسرهم إلى النصف.

واكمل شاب يسارى:

- أسوأ ما يصيب العامل هو تبطله، البطالة تقضى على قوى الخلق والأبداع فيه، وتحرمه من أعظم مهمة للإنسان وهى الأنتاج وعلى ذلك فالبطالة تخرب القوى العاملة وتنحط بالأنتاج القومى.

البطالة العمال العاطلون يأخذون أعانات.

ورد إبراهيم

- هذا صحيح لكن أعلى نسبة لأعانات البطالة تبلغ نحو ٥٠٪ من الأجر. وبهذا فالبطالة التى ترين على هذه الملايين تنخفض بمعيشتهم وأسرهم إلى النصف.

يرU بـU iqLو:

- أسوأ ما يصيب العامل هو تبطله، البطالة تقضى على قوى الخلق والأبداع فيه، وتحرمه من أعظم مهمة للإنسان وهى الأنتاج، وعلى ذلك فالبطالة تخرب القوى العاملة وتنحط بالأنتاج القومى.

وأراد إبراهيم أن يصعد من الدراما الأمريكية فقال لبلبل:

- هل تريد مزيدا

- هذا كتاب لأستاذ أمريكى آخر يقول لك: أن هناك نحو خمسين مليوناً من الأمريكيين يعيشون تحت خط الفقر.

******

(٢٣)

الطائرة تشق الجو إلى هافانا، الثورة الكوبية تحتل مكانة خاصة في بلدان العالم الثالث. تتلاعب بخيالات الثوريين والأشتراكيين أول ثورة اشتراكية في أمريكا اللاتينية، جزيرة صغيرة في مية العملاق الأمريكي الشعب الكوبي يهزم الأمريكيين والرجعيين الكوبيين في معركة خليج الخنازير المشهورة، الجماهير الكوبية تساند حركات التحرير في كل مكان، وخاصة في أفريقيا. ثوريوه يحاربون الاستعمار والعنصرية في انجولا وموزمبيق وناميبيا، هذه الدولة الصغيرة تتفاوض هي وأنجولا مع قوة عظمى الولايات المتحدة ومع قوة عنصرية «جنوب أفريقيا». وتنتزعان استقلال ناميبيا، بعد أن عاونا ابناءها في نضالهم لأستقلال بلادهم.

كل هذا أغرى المجموعة على السفر إلى كوبا، بلد صغير يبني نظاماً اجتماعياً جديداً، على الجماعة المتطلعة إلى مجتمع أفضل، أن تبحث ما إذا كان هذا البلد في الطريق إليه.

هبطت الطائرة بهم في هافانا، بلد جميل، عاصمة من عواصم العالم الثالث عمائر متناثرة متوسطة الأرتفاع اكثرها ينطح الأرض بعضها يتطلع لأن ينطح السحاب، من شرفات الفندق، ألقوا نظرة بانورامية على المدينة، أخذوا فكرة عجلى عن معمارها. وربما هيكلها الاجتماعي.

نزل الركب يتجول فى شوارع المدينة، الأنطباع الأول لايبعث على البهجة، أمر منطقى، هبط الفريق إلى بلد فقير، جاء لتوه من تحت بلد رأسمالى فى العالم. لم يغير الأنطباع تلك الغلل الأنيقة، التى كانت الرأسمالية الأمريكية تحتلها قبل النزاع السياسى، والقطيعة الاقتصادية التى فرضتها امريكا على كوبا.

الرأسماليون والليبراليون المصريون سعدوا بمنظر الفقر فى بلد شيوعى، هذه هى الاشتراكية لم تعالج فقر الجماهير، الإسلاميون كانوا اكثر انتعاشاً. البسمات تشرق من خلال اللحى، وكان اليساريون اكثر الرحالة ابتئاساً، على أن بأساءهم أخذت تنقشع رويدا رويدا، الطرقات نظيفة الأرصفة لا تغطيها الزبالة. لفت بلبل نظر المجموعة إلى طابور طويل أمام كشك يبيع الفاكهة والخضار:

ـ حتى الخضار والفاكهة يقفون طوابير لها.

لم يجد إبراهيم بدا من الرد عليه

ـ المهم وجود السلعة. وقوف الناس فى طابور منظم للحصول عليها أفضل من اختفائها وبيعها فى السوق السوداء، بأسعار فاحشة.

عندما أوغل الركب فى المدينة، توقفوا عند دار للسينما أفلام جادة، تتناول مواقع الأنتاج ومشكلات الشباب، ونضال الشعوب ضد الإستعمار ذهبوا إلى دور آخرى، بأن فى أعين البعض خيبة أمل.

قال لهم دياب:

ـ لا أعتقد أنكم ستجدون هنا ما رأيتم فى نيويورك. هذا مجتمع جاد يربى أبناءه على البناء والتقدم. ولا يوجهه إلى الدعارة والجنس ولا يتخذ منهما مادة للثراء، وتكوين رأس المال.

وعلق بلبل تعليقا فكها.

ـ هذه نقطة ضد الاشتراكية. أليس فى الأشتراكية ترفيه؟

وأجاب إبراهيم أجابة جادة:

ـ فيها ترفيه، يكرم الإنسان، ولا ينحط به.

ـ يغنينا ربنا ياشيخ، عنك وعن اشتراكيتك!

الليبراليون والرأسماليون مصرون: انطلقوا فى شوارع هافانا وحواريها يبحثون عن البغاء الحى، لا المصوّر. كان جهدهم ضائعاً.

فى صباح اليوم التالى، أخذت المجموعة تتأهب لجولتها، جـ ثلاثة كوبيون يتحدثون إليهم ويعرضون عليهم مرافقتهم. كان ذلك موضع دهشة البعض. تولى عبد الصمد الإسلامى سؤالهم:

ـ هل أنتم عاطلون، اليوم عمل، كيف تأتون لمرافقتنا؟

ورد عليه أحدهم:

ـ نحن عمال فى مصنع الجرارات، تعمل فى وردية المساء.

ـ ما الذى يجبركم على ذلك؟

ـ الأمر تطوع لا اجبار فيه، أنتم تتشابهون معنا فى اللون، الدم العربى نقله الينا الأسبان المستعمرون، لقد وجدوا فى المكسيك بجوارنا أهرامات تماثل اهرامات الفراعنة.

يبدو أن الكوبى قد اقنع عبد الصمد، بل ربما يكون قد أفحمه عندما قال:

ـ هب اننا ذهبنا إلى القاهرة والتقينا بكم هل ستفرجوننا على بلدكم أم لا. أنتم مشهورون بالشهامة وقد تكون لنا صفات تقرب من صفاتكم.

كان من بين الثلاثة مهندس وعامل فنى وعامل عادى. وكان المهندس هو الذى يتولى الحديث. ولم يكن هو وزميله الفنى عضوين بالحزب الشيوعى، وكان العامل العادى هو العضو، لهذا تجد عبد الصمد، يواصل اسئلته:

ـ ما بالك تتولى الحديث. والآخ العامل لايسهم فيه؟

تصدى العامل للأجابة:

ـ احببنا أن نثبت لك أن الحزب الشيوعى هنا، لايحتكر الحديث، الناس جميعاً يتكلمون.

لم تكن الإجابة شافية لعبد الصمد، أبان عن قصده:

ـ ربما يكون السبب إنه المثقف الوحيد بينكم.

لم يستشعر العامل حرجاً قال فى هدوء.

- لا أفهم ماذا تقصد بالمثقف، هناك فرق بين المثقف والمتعلم. المتعلم هو الحاصل على شهادات دراسية. وتخصص فى موضوع معين. أما المثقف فأمره مختلف، هو الذى ضرب فى المعارف الإنسانية بسهم وافر، شحذت المعارف وعيه الإنسانى وحفزته على تطبيقها لخير الإنسان وتحرره.

فوجئ عبد الصمد برد العامل الذى أستمر:

- اما موضوع المثقف، فكلنا مثقفون. منذ أن جاءت الثورة الإشتراكية والكتب والمجلات رخيصه جداً. فى متناول الناس جميعاً. المكتبات أنتشرت فى الشوارع والحوارى. المؤسسات الفنية والثقافية والحزب الشيوعى تعمل على إزاحة الأمية الثقافية. والدولة قضت على الأمية التعليمية.

واندفع إسلامى آخر يسأل العامل:

- هل انتم ملحدون؟!

هم العامل بالأجابة، لكن الباشا، بقامته الطويلة، واكتافه المليئة وأناقته التى تدل على ذوق قديم، قال لهم:

- أنتم ستضيعون علينا جولة اليوم. كفى مناقشة، هيا بنا إلى الشارع.

سار طابورهم الطويل فى شوارع هافانا، لم يمض بهم الطريق طويلا، حتى رأوا جمهرة كبيرة تسد الشارع تهتف عالياً، وتحمل

لافتات، عليها عبارات بالأسبانية: سألوا الكوبيين الرفاق ما الخبر؟ كانت الأجابة: هذا يوم فلسطين، خرجت جموع الشعب الكوبى تناصر الشعب الفلسطينى - تحيى الانتفاضة وتنادى بسقوط اسرائيل، الشعب كله هنا: الطلبة والعمال، وحتى ربات البيوت، انظروا: أترون حملة المناجل والفئوس؟ هؤلاء هم الفلاحون الكوبيون يسهمون فى يوم فلسطين.

- هل الحزب الشيوعى، هو الذى جمع هذه الجماهير؟

- الحزب الشيوعى ليس المؤسسة السياسية الوحيدة فى البلاد، هناك تجمعات سياسية كثيرة.

لمح المصريون لافتة عربية كبيرة تقول «عاش ابطال الحجارة. عاشت فلسطين مستقلة» حملها العرب التجار والطلبة والمهاجرون، اشتركت المجموعة المصرية فى المسيرة. أنتهت الجماهير إلى ميدان فسيح يطل عليه قصر الرياسة. كاسترو سيخطب فى الجماهير.

كان إبراهيم سعيداً بالجماهير الكوبية، ثم فجأة أربد وجهه وركبه هم مقيم لاحظ زملاؤه ذلك سأله أحدهم:

- ما خطبك يا إبراهيم؟

- ألا ترى؟ هذا أمر يجللنا بالعار. أرأيت إلى شعوبنا العربية لم تساند الشعب العربى فى فلسطين. لم ترم حجرا واحدا ولو فى الهواء، لا ضد الصهاينة ولا ضد حكوماتها، التى تقهرها وتمنعها

من التضامن مع فلسطين، ولو بالتظاهر.

كانت عبارة إبراهيم موجعة، فى يوم بهيج، عندما ألتقت هذه الجموع الصاخبة بزعيمها، سكتت كأن على رؤوسها الطير، خطب كاسترو بالأسبانية كانت كلماته لهيبا، استمع إليها الفريق المصرى نغماً عربياً جميلاً.

عاد الركب المصرى إلى الفندق منتعشاً كله ، الفرق السياسية فى مصر تتفق فى القضية العربية، وتختلف فى القضية الاجتماعية.

فى اليوم التالى، رافقهم الفرسان الثلاثة إلى المصنع الذى يعملون فيه: مصنع الجرارات. استقبلتهم لجنة إدارة المصنع فى الموعد المحدد، استقبالا حميما. جلسوا حول منضدة طويلة. أدار الاجتماع رجل فى منتصف العمر يلبس أوفرولا كالعمال، أعضاء اللجنة جلسوا على يساره ويمينه وإلى جانبه مترجم. ينقل كلامه إلى الإنجليزية من الأسبانية، طلب إلى إبراهيم أن يقوم بالترجمة من الإنجليزية إلى العربية حاول أن يكل المهمة لغيره أعتذروا. قال لهم:

- ذنبكم على جنبكم، لكن لا تتهمونى بالتحيز فى الترجمة!

ضحك الجميع كان بدءا بهيجاً زاده بهجة أن الكوبيين قهقهوا عالياً. بعد أن ترجم المترجم عبارة إبراهيم إلى الأسبانية. كانوا ينافسون المصريين فى الضحك العالى.

ألقى رئيس لجنة الإدارة كلمة عن المصنع وتاريخه وإنتاجه: توجد عدة مصانع للجرارات فى كوبا، وتصدر الجرارات الزائدة عن احتياجاتنا إلى البلاد المجاورة. كان الرجل يلقى بالمعلومات والأرقام فى تواضع جم، تحدث عن سنوات الأخفاق وسنوات النجاح.

وبدأت الأسئلة:

ـ تتحدثون فى البلدان الأشتراكية عن الديمقراطية بينما يحكمكم حزب واحد.

ـ هناك حقلان من حقول الديمقراطية حقل الإنتاج، والحقل السياسى أنا يمكننى أن أشرح لك الديمقراطية فى مجال الأنتاج. أما الديمقراطية بالمعنى السياسى، فاقترح عليكم زيارة الحزب، هناك متخصصون فى هذا المجال. أما نحن هنا فعلى قدنا.

ـ هل أنت عضو فى الحزب الشيوعى؟

ـ لا.

ـ كيف تكون مديرا ولست عضوا فى الحزب؟

ـ أنا لست مديراً أنا عضو فى لجنة الإدارة انتخبنى زملائى لأرؤس الاجتماعات. وأقوم بأعمال فى الإدارة كلفونى بها. اللجنة تنتخب من عمال المصنع لمدة سنة. وتختار رئيساً من بين اعضائها. وتدير المصنع، وتكلف رئيسها بالقيام بالإدارة اليومية للمشروع. ورياسة اللجنة ليست وقفا على أعضاء الحزب تلك هى ديمقراطية

الأنتاج.

- والديمقـراطيـة السـيـاسـيـة؟ نود أن نسـألك أنت، لا مـتـخـصـص الحـزب.

- الثورة الكوبية كـانت ثورة وطنية ديمقراطية اسـقطت الدكتاتور باتستا ونظامه. الشـيوعيون يمثلون فريقاً واحداً من القوى الوطنية، كاسـترو والشـعب الكوبى، تعمقـوا الديمقراطية. الديمقراطـيـة ليست مجـرد حق للفـرد فى إنتخـاب من يمثله ولكنها وسـيلة تستطيع بـهـا الأكثـرية فى شـعب من الشـعـوب أن تحكم نفسـهـا سـياسـيـاً وتسيطر على ثروتهـا اقـتـصـاديـاً. ولا يتـحـقق ذلك إلا بمـلكيـة الشـعب ملكية جـمـاعـيـة لـوسـائل الإنتـاج. الراسـمـاليـون يحـتكرون الحكم فى الدول الرأسمـالية فهم يسيطرون على الانتخـابات وهـم الذين يستطيعـون الأنفاق الباهظ عليها، أبناء الشعب العامل لا يستطيعون منافستهم. إنه أحتكار ديكتاتورى للسلطة. ديكتاتورية رأس المال.

وأخذ بلبل يتخفف:

- وبتقول إنك مش شيوعى.

- أنا لم أتحـدث عن الشـيوعـيـة. كنـت أحاول إن اعطيكم مـفـهومـاً حقيقياً للديمقراطية.

حاول المحامى اللـبرالى أن يواصل الحديث فى موضـوعه المفضل، لكن الباشا تدخل:

ـ هذه النقطة استوفيت. دعنا نتحدث عن المصنع: هل الغنيون فيه روس أم كوبيون؟

ـ المصنع كوبى كله: عماله وفنيوه، لا شأن للروس به الخبراء من المجر وألمانيا الشرقية، عاونونا على بدء الصناعة، دربونا فنياً، ثم عادواإلى بلادهم. ونحن نذكر لهم ذلك.

ـ هل تصنعون اجزاء الجرار كلها، أم تستوردون الموتورات؟

ـ اجزاء الجرار كلها تصنع هنا، بأيد وعقول كوبية.

ـ ما هو مستوى الاجور عندكم؟

ـ الأجور العادية تكفل دخلا معقولا للعامل. المعيار للأجر المرتفع هو التفوق فى العمل. على أن أجر العامل لايعتبر وحده مقياساً لمستوى معيشته. الخدمات الأساسية هنا مجانية: كالتعليم والصحة وبعضها رخيص جداً كالاسكان والمواصلات والخدمات الثقافية. ولا اخفى عليك أننا مازلنا نكافح الفقر والتخلف، الذى فرضه الأستعمار والحكم الرجعى علينا، ومازلنا نقاوم الحرب الاقتصادية الشرسة التى تشنها الولايات المتحدة ضدنا. على أن الغذاء رخيص لدينا للغاية. وسوف ترون غذاء العمال. ونوعيته وثمن الوجبة.

هنا سأل أحد الضيوف سؤالا فكها:

ـ هل يعنى ذلك إننا سندفع ثمن الوجبة؟

ـ لا. لا تقلق

ضحك الجميع واستمرت المناقشة:

ـ يبدو أن الأجر عندكم، حسب عمل العامل كما وكيفا. أين مبدأ من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته.

ـ هذا فى الشيوعية. ونحن لسنا شيوعيين بعد. ومع ذلك لاتخف سنعطيك احتياجاتك من الطعام.

ضحكة أخرى. أحدثت جوا صديقاً.

دق جرس الغداء توافد العمال زرافات إلى المطعم، وقفوا طوابير دعى الضيوف، توقع البعض إنهم سيتقدمون إلى موائد فخيمة خاب أملهم، وجدوا المديرين والمدارين يقفون فى الطابور، وقفوا خلفهم.

فى المساء رغب الرجال فى الأنعزال بعيداً عن النساء. وقد عبر بلبل عن هذه الرغبة بقوله:

ـ أرجو من السيدات أن يسمحن لنا بالأنفصال عنهن. لأننا نريد أن ننكت. وبعض النكت لا تلقى أمام النساء.

وعقبت نور:

ـ بينى وبينك هذه هى النكت التى تثير الضحك!

وبعد ضحكة جماعية واصلت:

ـ إننا نسمح لكم بشرط واحد أن نستقل نحن النساء كذلك نريد

أن نتبادل نكتا لايجوز أن يسمعها الرجال.

جفل الإسلاميون اعترضوا على الاقتراح. قالت لهم نور:

ـ لما كنا نبحث عن الديمقراطية يجب أن نطبقها على أنفسنا.

ورد عبد الصمد الإسلامي.

ـ الديمقراطية فى نطاق الإسلام.

ـ الإسلام لايضرب نطاقاً حول الديمقراطية. الإسلام تكفل بحرية المرأة. أرجو أن توافقوا على أن نسأل النساء الإسلاميات عن رأيهن فى فكرتى.

تردد الإسلاميون ثم وافقوا. كانوا على ثقة فى أن نسوتهم، سيرفضون فكرة نور. ولكنهن وافقن عليها بالأجماع. بهت الإسلاميون. النسوة يشققن عليهم عصا الطاعة. لكن شيرين الأنيقة حاولت إقناعهم.

ـ مم تخافون؟ سنكون نسوة لا رجال معنا، نحن اللائى نحمى كرامتكم وكرامتنا، كنتم معنا أم لم تكونوا، الحق أن أختبار الوفاء والأمانة والدين يكون أصدق حينما يكون الزوج غائباً.

انتصر النسوة «لأول مرة فى هذه الرحلة العجيبة. عندما أنعزل الرجال عن النساء وذهب كل وجهته عاد الجميع إلى الفندق: شباب متجدد انتعاش لون الخدود واشراق فى العيون. كانت فكرة تلقائية افادت الطرفين كثيراً.

******

(٢٤)

اليوم يوم الأحد، بشر المرشدون الرحالة بأنهم سيقضون اليوم كله معهم فى الريف الكوبى استقل الفريق حافلتين، العامل الشيوعى، أتصل بهيئة النقل العام، فوافقت على منح الضيوف أوتوبيسين مجاناً الحافلتان ليستا فاخرتين، لكنهما جيدتا الصنع، كان أول سؤال يطرح:

ـ هل هذا الأوتوبيس صناعة كوبية.

ـ الأتوبيس كله صناعة كوبية

ـ هل تصدرونه للخارج

ـ لا الأنتاج فى هذه المرحلة لتغطية حاجة السوق المحلية.

ـ هل لديكم صناعة سيارات؟

ـ هذه سيارات لكنها حافلات.

ـ أقصد سيارات ركوب خاصة.

ـ لا مواردنا لاتكفى لصناعة سيارات خاصة إننا نعطى أولوية

للحاجات الأساسية للجماهير، المهم أن نوفر مقعداً مريحاً للراكب فى المركبات العامة. هذا يتسق مع فلسفتنا القائمة على المساواة بين المواطنين، السيارات الخاصة تسبب التلوث والزحام والحوادث، وتنال من صحة المواطنين ومن كفايتهم الإنتاجية.

كذلك فهى سلعة إستهلاكية لاتنتج شيئا. بينما الجرار مثلا، يمكن أن يزرع خمسين فدانا ويستصلحها ويقدم عملا لخمسين فردا يعولون خمسين أسرة، ينتجون خمسمائة أردب من القمح أو خمسمائة طن من الموز أو القصب، ينمو بها الدخل القومى، وتتقدم التنمية.

ـ رأينا فى شوارعكم سيارات خاصة

ـ هذه بقية من النظام الرأسمالى

أنقذ المرشد أحد أفراد المجموعة قائلا:

ـ كفى اسئلة، كى نبدأ الرحلة.

انطلقت الحافلتان فى الريف الكوبى، مساحات شاسعة من اشجار الموز ، وورق الموز العريض يصفق للضيوف. وكأنه علم أن هذه الجماعة تجهد نفسها للبحث عن نظام يسعد الإنسان، تصفيق الأوراق وحفيفها ينعش الرحالة. رقعة فيحاء من الخضرة. تنبثق من خلالها أصابع الموز، كأنها شموع، علقت بين الغصون، ونسقت على جانبى الطريق احتفالا بالزائرين.

همس رحالة لزميله.

ـ يلا يا عم سنشبع موز اليوم

ورد عليه زميله، الذى غلب عليه الخيال لا الجوع

ـ هذه اشجار الموز تقدم لك اصابعها الرشيقة وأنت حر أما ان تأكلها أو تلثمها.

من ميكرفون الحافلة أخذ الرفيق المرافق يشرح لضيوفه تاريخ المزارع.

هذه الاراضى الشاسعة التى تحف بكم من يمين ويسار كانت ملكاللأسبان أولا ثم للشركات الأمريكية يشاركهم الملكيه، ملاك اللاتيفونديا.

لم يفهم ركاب الحافلة معنى الكلمة، قال إبراهيم

ـ اللاتيفونديا تعنى الوسية

وتساءلت إحدى المنقبتين:

ـ وما هى الوسية.

ـ الوسية هى الأقطاعية الزراعية الكبرى التى تأخذ شكل العزب والتى يملكها الأمراء أو الباشوات والخواجات وأمثالهم.

وعقبت المنقبة الثانية:

ـ أه الوسية لقد رأينا مسلسل الوسية فى التليفزيون المصرى.

كان هذا السؤال والتعقيب عليه حول الوسية أول ماصدر عن النقبتين خلال اجتماع عام. وقد لوحظ أن زوجيهما قد احتجا احتجاجاً صامتاً عن طريق التحرك القلق فى مقعديهما لكنهما لم يفصحا بالكلام عن عدم رضائهما. ولا ندرى أن كان هذا الموضوع قد اثير فى لقاء خاص. وماذا دار فى ذلك اللقاء.

استأنف المرشد حديثه

ـ أنتم لا شك تعرفون الاستغلال الذى أنصب على الفلاحين فى زراعة هذه اللاتيفونديات.

ـ هل تزرعون شيئاً غير الموز؟

ـ سوف ترون مزارع القصب فى طريقنا ـ تعلمون قصة صادراتنا. كان فلاحنا يزرع القصب والموز وتصدر إلى أمريكا وأوربا، تدر الملايين أرباحاً للخواجات والأقطاعيين. وتقدم فاكهة جنيه وحلوى شهية للناس فى بلاد الخواجات، وتترك العلقم والجوع لفلاحينا.

دارت الحافلتان إلى طريق فرعى، مزارع القصب على اليمين والموز على الشمال ـ الباشا يتحرك فى كرسيه:

ـ الا تأخذونا ـإلى مزارع التبغ والسيجارْ الكوبى الفاخر

ـ بعد أن تروا المحاصيل الرئيسية.

ـ عجل بنا، أعمل معروف.

وصل الركب إلى إحدى القرى التى تدار منها إحدى المزارع الكبرى للموز ذهبوا إلى الجمعية التعاونية التى تدير هذه المزرعة الجماعية. استقبلهم الأعضاء بحرارة. تقدم إليهم فلاح، شاب عارضاه وشاربه الجمعية مبنى متواضع، ليس هناك مقاعد كافية، جلس المتعبون ووقف القادرون شرح الرجل لهم تكوين الجمعية: هذه المنطقة كانت لصغار الزراع ومتوسطيهم. تركت الثورة لكل أرضه. انضموا إلى جميعات تعاونية تسهل الزراعة العلمية للأرض. والكل هنا يعمل.

ـ هل يعمل الملاك المتوسطون؟

ـ إنهم يعملون كالآخرين المهمة كانت صعبة أول الأمر. ثم بالتثقيف، وبصغر الإيراد الذين يحصلون عليه من ملكية الأرض، دفعوا للعمل كالآخرين. الصعوبة كانت مع الجيل القديم. أما الشباب، فلم تكن هناك صعوبة. الثقافة الإشتراكية جعلتهم يعتقدون أن العمل هو أشرف مصدر للعيش.

ـ كيف توزعون ناتج الأرض؟

ـ مالك الأرض يأخذ جزءا حسب مساحة الأرض التى يدخل بها فى الجمعية التعاونية، ثم يعطى جزء حسب العمل وهو الجزء الأهم. والأجر هنا بالقطعة.

طافت المجموعة بالقرية شاهدوا الملاعب والنوادى والمكتبة والمسرح وقاعة الموسيقى ودار السينما. ذهبوا لرؤية عملية جمع

الموز.

اسهمت نور وزميلاتها فى قطف الموز وحمله إلى نقطة تجميعه. فرح الفلاحون التعاونيون. تبع البنات الرجال فى الأشتراك فى هذا العمل اليدوى. كانت له لدى بعضهم نكهة خاصة.

فى نهاية الجولة، قادوهم إلى مصنع الحلوى. الموز مادته الخام يقوم بتشغيله عمال المزرعة. منح كل من أفراد المجموعة صندوق من الحلوى، وبادج باسم الجمعية تذكارا للزيارة.

انطلق الركب إلى مزرعةالقصب يمتلكها الشعب ملكية عامة. كانت إحدى اللاتيفويديات المترامية: الف فدان.

سأل بلبل مدير المزرعة سؤاله المفضل.

ـ ما حال الديمقراطية عندكم؟

ـ تسأل طبعاً عن الديمقراطية فى المزرعة كل القطاعات الزراعية تديرها لجان منتخبة من الفلاحين. والإدارة العليا للمزرعة، منتخبة بواسطة هذه اللجان.

كان الحديث عن الديمقراطية معادا رغبت الجماعة فى اكتشاف المزرعة صحبهم مدير المزرعة إلى مصانع إقامها العمال لتحويل عصير القصب إلى شكولاته، ثم إلى مصنع للسماد، يعتمد على المصاصة، وبعض عناصر العصير. وثالث لصناعة الورق، ورابع يستخدم المصاصه فى صنع نسيج جميل.

تناولوا الغداء. قدم لـهم عصير القصب على الطريـقة المصرية. ثم طوف المدير بهم فى القرية الكبيرة شاهدوا مـساكن العمال البسيطة الانيقة. ليس فـيها فلل ولا قـصـور للإدارة العليـا. سـمع الطائفـون صليل أجراس يأتى من مـبنى صغير. كنيسة معمـارها قديم، الناس يدخلون من أبوابها أفواجاً. تساءل عبد الصمد الإسلامى.

- هل الأديان عندكم مباحة؟

- تماماً، كما ترى.

- يقـولون عنكم إنكم مـلـحدون، تضطـهـدون أصـحـاب العـقـائد السماوية

- لعلـك تشــهـد بـنفـسك النسـاء والرجـال والأطفـال يهـرولون لحضور الصلاة،

لاحظ أن الناس هنا كلهم عمال.

- هل لديكم مسجد.

- لا. للأسف الأهالى هنا مـسيحـيون. يمكن أن تجد مسـجداً فى هافانا وهو مفتوح على مصراعية للركع السجود.

تشـاور الإسـلامـيون فى صـوت خـفـيض. قـرروا إقـامـة الصـلاة بجـوار الكنيسـة أدوا الصـلاة جـمـاعة، بعـد أن تيمـموا، إدارة المزرعة أعدت لكل واحـد من المصريين هدية من مـنتجات مـصانعـها، حلوى مشكلة. مـغلفة فى قطع من قمـاش مصاصـة القصب مكتوب عليـها

«مرحباً بالمصريين فى كوبا».

وعندما أنتهت الزيارة أرتفع صوت الباشا:

ـ إلى مزرعة التوباكو والسيجار أيها الرفيق المرشد.

كانت مزرعة الدخان قريبة. الشمس تتهادى إلى الأفق الغربى، سحابات المنطقة شبه الاستوائيه تتناثر فى السماء. صبغتها الأشعة الغاربة بصبغة قانية. انارت الغسق. وقدمت للرحالة لوحة رائعة، غسلت الأرهاق الذى غشيهم طول النهار.

فى مزرعة التبغ، لم يعبأ الباشا بفضول المجموعه! كانوا يسألون عن زراعته، وحصاده، وتصنيعه، أقترح الباشا الذهاب رأساً إلى المصنع وإلى متجره:

ـ ناولنى بربك سيجار هافانا الفاخر!

اشعل شهاب باشا السيجار. أغمض عينيه، أستلقى فى كرسى قريب أسترخى. عب السجار عبا، قال لهم:

ـ تفضلوا أبحثوا ماشئتم من أنظمة، وصناعات وزراعات، أنا باق هنا مع سيجارى!

كانت متعة الباشا الأولى تدخينية، هكذا ظهر عطشه للسيجار، بثه أشواقه، حينما أشعله، كان يبتلع الدخان، يحتفظ به قليلاً، ثم ينفثه. وهو فى عبه ونفثه. كأنه يتعبد ثم زالت الفرحه الأولى للقاء. تلفت حوله وجد كثيراً من العاملين فى المزرعه، يدخنون السيجار

الفاخر السميك، قال لنفسه: ياخسارة. لم يعد هذا السيجار رمزا للعلو الطبقى.. كان حاضر النكته. لم يكتمها عن اللبراليين، ولاحتى عن إبراهيم الاشتراكى قال لهم:

- إلى مصر، كى أتنسم عبق الطبقة!. إلى جانب العنبر، المنبعث من هذا السيجار.

ابتسموا معه فى ضحكة خفيفه، حتى لاتلتقطها الجماعه، وتصبح قضية عامة.

وزع المضيفون على كل ضيف «باكو» به سيجاران فاخران، قال الباشا لزملائه:

- أود أن اكون صريحاً معكم، ومخلصا فى نفس الوقت.

أصوات تفضل.

- أنتم لاتدخنون - عدا زميلى الدكتور بلبل - والسيدات قطعاً لايدخن لذلك يجب أن تعطونى السيجار الذى وزع عليكم! كذلك فأنا أخشى بأن هناك إتجاها - اكاد أشمه: أن التوزيع فى المجتمع الذى نطمح إليه سيكون طبقاً لمبدأ «المرء وحاجته» وأنتم جميعاً، ليس بكم حاجه إلى السيجار.

انطلق الإسلاميون والليبراليون والرأسماليون فى صوت واحد: ومن قال لك إننا نوافق على هذا المبدأ؟ وضحك اليساريون، فالتفت إليهم قائلاً:

- وأنتم دللوا على أنكم صادقين، مؤمنين بمبادئكم.

وأجابه دياب، صديق الزنزانه.

- يا أخى الباشا. دعك من هذا الذكاء. هذا فى الشيوعيه، ونحن نحاول بناءالأشتراكية.

- يا أخى دياب: قدموا مايدل على «بعد نظركم».

ثم ألتفت إلى الإسلاميين:

- وما تقدموا من خير، تجدوه عند الله هو خير، وأعظم أجراً

ورد عليه إسلامى:

- يا باشا: هل تحفظ من القرآنماينفعك فقط، وتترك ما ينفع الناس؟

كان منظر السيجار مغريا. جعل الباشا يصر على أن يثير حماسهم:

- نحن جهدنا أنفسنا. وأنفقنا أموالنا، لنبحث عن المجتمع المنشود، وهو يتطلب تضحيه وعطاء. وأنتم تضنون بالسيجار. ماذا ستصنعون، حينما ننظم المجتمع الكبير؟

قفز دياب «ليقفش» الباشا:

- أنا موافق على أن نعطيك السيجار كله. لكن العطاء ينتظرك عندما تعود. ويطلب منك أن تعطى المزرعه للفلاحين. ورأس المال

للعمال. ليمتلك بأسم الشعب.

- ياعم دياب. أنا عندى نقطة ضعف بالنسبة لك. بيننا عيش وملح وزنزانه لاياعم هذه قسمة ضيزى.

ضحك الجميع. تلقف المضيفون هذا الجو الضاحك، ودعوا الزوار إلى حفل للترفيه. تعرض عليهم فرقة المزرعة للفولكلور فنونها يبدو أن مزرعة «التوباكو»، لاتنتج سلعة ترفيه فحسب ، بل تف جوا ترفيهيا كذلك.

رقصت الفلاحات الكوبيات، رقصة فاجأت الجميع: رقصة السيجار الكوبى الفاخر. تتبع البنات النبات، منذ زراعته إلى حصاده. ثم لاحقوه إلى تصنيعه. كانت اللوحات رائعه، عصفت بأكف المتفرجين. أحتار الفريق المصرى: هل بهره فن الكوبيات، جمالهن. أم هو مزاج من الجمال والفن جميعاً. على أن الفن ك هادفا. ومثيراً للضحك. عرض الفتيات قصة الطبقة الغنية التى تدخن السيجار، وتعتبره رمزا للأرستقراطية. مازال الفلاح الكوبى - فى ظل الاشتراكية - يضحك عليها. ويصدر لها السيجار الفاخر ويحصل منها على إيرادات كبيرة. تستخدم فى تنمية بلده. وكانت هناك لفته ماكره: الفلاح الكوبى. أصبح يدخن نفس السيجار. أنتزع منه النكهة الطبقية التى كانت تتصاعد مع دخانه، من أنوف الطبقة الغنية.

بلغت الأثاره مداها. حين رقصت الكوبيات الرقصة المصرية

الشهيرة اهتزت البطون والإرداف الكوبية. دفعت الإثارة «نور» وزميلاتها الفلاحات شاركتهن المحجبه الأنيقة. عرضن على الكوبيات كيف تتثنى الخصور، وترتعش النهود. عندما أنفضت الرقصة الجماعية. أخذ المصريون يصفقون «لنور» فى رقصة «سولو» وحدها. أبدعت وأثارت الأشجان. وكان من نصيب إبراهيم أكبر جرعة من الشجن.

عندما عادوا إلى الفندق، ذهبوا فى الحال إلى غرفهم، اليوم الطويل الشاق، عجل بالكرى لرؤوسهم. ناموا جميعاً إلا واحدا: إبراهيم.

كان أرقاً لايدرى أن كان سعيداً أم محزونا. لم تكن الهموم. التى شاغلته فى تلك الليله، متعلقه بالثورة، أو بأهداف الرحلة ـ فالرحلة تمضى فى طريقها. لتثبت للجماعة، إن الديمقراطية، فى شطريها السياسى والاقتصادى، هى الحل لقضايا التخلف والقهر والاستغلال. ولكن الهموم تسربت إليه من مصدر آخر، كان دائماً يمنحه سعادة، وبهجة، وآملا، كانت «نور» سبب أشجانه كيف يمكن أن تكون هذه الدرة الريفية، مصدر شقاء له؟

العجيب إنها أثارت لواعجه فى مناسبة بهيجة، فى حفل الفولكلور فى مزرعة التبغ. قادت زميلاتها للأشتراك فى العرض الفولكلورى الكوبى. رقصت رقصة «السولو» المصرية الشهيرة. تبدى أمامه ـ ربما لأول مرة ـ الجسد العبقرى، تراجعت أمام الجسد

الثائر، تلك المعانى الحلوة: الفلاحة الرامزة لخصوبة مصر. الثورة التى تتقدم جيشاً من بنات الريف لتحرير المجتمع.

كانت نور تتاود. وتتأود معها أعطاف الحاضرين جميعاً. أما إبراهيم فكان يتلوى. استولى جسدها عليه، واستسلم له هنه مى الفتاة التى أحبها. واحب مصر والثورة فيها. اصبحت زوجته بعقد صحيح. مهما كان الجدل، حول زواج المتعة، أوزواج الضرورة. الذين تعاقدوا مثله انقلبت عقودهم جميعاً لزواج دائم الاه.

أشعل جسد نور في عروقه حريقاً، هل هذا معقول؟ أيكون هذا الكنز فى يدى، وأفرط فيه؟ كيف أشذ عن الطريق، الذى يسلكه كل الناس حولى؟

انتفض من سريره. أبرم أمرا. غادر غرفته بعصبية. سار فى ممر طويل طرق باب غرفة طرقاً ضعيفاً. صوت هامس كهديل اليمام: من..؟ أنا إبراهيم. استقبلته بأحضان دافئه. استمدت دفئها من حناياها. كان «السرير» كذلك قد إستعار دفئه من جسدها. ثم أعاده إليها.

فى الطريق إليها، كان أمر واحد يسيطر عليه.. كان يعربد فى داخله، منذ رقصتها فى حفل الفولكلور.

فرحت الفتاه بزيارته، فرحة اشرقت فى عينيها. لم تنم مثله كانت تفكر فيه، لكن تفكيرها لم يبلغ الذروة، التى صعدت إليها عواطفه. إنها لم تر جسدها. الذى يثير اللعاب، وهى ترقص، كر

تشتط غرائزها! صورته تتخايل أمام عينيها. حلوة كالطيف. تدغدغ جسدها. وتناغى قلبها. هى على عهدها. عقدها معه مؤقت، الورقة التى تسجله هى المؤقته.

لكن حبها له سر مدى.

حينما سمعت دقاته وصوته، تبخرت تلك المعانى، التى تجعله يملك عليها لبها: الثورة والعلم وحب الكادحين. صوته أثار فى أوصالها صورة الرجل فحسب لم يكن إبراهيم فى تلك اللحظة كهلا فى الخمسين. لكنه شاب فحل فارع، عريض الكتفين، جاء يشبع فيها غريزة الأنثى هذا أمر لاجدال فيه. ألست امرأته أمام الله والناس؟ أليس هو حبى قبل العقد وبعده؟

تجسدت هذه المعانى فى اللقاء الحميم الذى لقيته به. تشبثت به، وكأنها تريد الا يفلت من يدها هذه المرة طال العناق، أتجهت به إلى السرير استوقفت عينيه شفتاها. لعله يرى لأول مرة، مافيهما من اكتناز وجمال وضراعة. تاها فى قبله طالت بقدر ما فى صدريهما من جوى ووجد. قادته القبلة إلى جسدها، فتحت عينيه على أنوثتها. كان قد شغف بجسدها راقصا يتثنى، اشتد شغفه به، مستسلما بين يديه، مستخذيا.

تخيلت نفسها عروساً تلبس الطرحة. تزفها بنات القرية إلى عريسها الموعود. هاهى تخلع فستان العرس، جسدها الفج يبوح بأسراره. يعرض الحقيقة الكونية عارية! مجرى العبير بين نهديها.

يضمخ رجولته. الليل المنسدل من شعرها، يخفف الوهج، الذى يومض من صدرها. كان صدرها نافرا قلقاً تحت القميص، عندما تحرر منه، بدأ أشد نفوراً واستسلاماً لم يعد نهداها مضطجعا لرأسه فحسب، بل اصبحا معبرا لغاية أشد أمتاعاً، وأكثر خلودا.

******

(٢٥)

قال شهاب باشا :

ـ أظن أننا زرنا بلادا كافية تحقق هدفنا من هذه الرحلة السياسية

كان اول معترض على هذا الرأى بلبل اللبرالى :

ـ زيارة الهند مسألة حيوية. البلد الوحيد فى العالم الثالث ، الذى يوجد فيه حكم ديمقراطى . وتمثل النموذج اللبرالى . ونحن لم نزر بلدا لبراليا حتى الان . بالأضافة الى انها توجد فى خطة زياراتنا .

وعلق الباشا :

ـ الا تكفيك زياراتنا لأمريكا ؟

ـ لا أمريكا بلد رأسمالى بحت .

ـ الله ها الله . يبدوا ان اليسارين استدرجوك.

ـ ماتخافش على .

وجاءت فكرة اخرى من اليساريين :

ـ كيف نذهب للهند ، ولا نذهب للصين ؟ وهى على حدودها . الصينيون ربع البشرية ، وهى جزء من العالم الثالث . ذات حضارة ترافق حضارة الفراعنة . بلد متخلف من أسيا ، حقق تقدمات فى العلم والتنمية . وقوة كبرى فى مجلس الأمن . تجربتهامفيدة لنا .

وتدخل الباشا :

ـ لابد لى من مصارحتكم . انا لا استطيع أن أمول هاتين الرحلتين . الليبراليون سيعرضون علينا ديمقراطية الهند ، واليساريون سيكتشفون الأشتراكية فى الصين . فعليهم ان يتحملوا النفقات.

ثم داعب رفيقة المحامى الليبرالى :

ـ أنت يامتر . لديك من خيرات الله والمحاماه ، ما يمكنك من

يتحمل كل فرد من فريقهم نفقاته . بقيت مشكلة اليساريين. قال الباشا لهم: أنا تحملت حتى الان معظم نفقات الرحلة، اعذرونى لايمكنني تمويل الرحلة الى الصين . سكت برهه ثم عقب :

ـلو كان حبيبك عسل ، ما تلحسوش كله .

وعلقت نور :

– ياباشا . أنت الزعيم . احنا عايزين لحسه واحده كمان!

– غالى وطلب رخيص يا أنسه نور .. انما حقيقة لم يعد معى فلوس . واشترك دياب :

– انت ياباشا اخونا الاكبر. اين ذهب العيش والملح فى الزنزانه ؟

– لا يأخى دياب . أنا اخوك انت بس . وانا مستعد احتمل نفقاتك .

وجد ابراهيم حلا :

– الهند مجاورة للصين . أجرة السفر فى الطائرة بسيطه . اقترح أن نتقاسم مع الباشا وزملائه ثمن التذاكر . وفى الصين . اعتقد انهم سوف يستضيفوننا ، حين يعلمون بمهمتنا فى البحث عن نظام اجتماعى يكرم فيه الانسان .

وعقب الباشا ،

– أنا اقبل هذا العرض . ولكن من يدفع نفقات الاسلاميين ؟

سكت الباشا لحظه ثم كبا كبوة قاتلة :

– ... اليساريون مفلسون على الحديدة. اما الاسلاميون فميسورون . على البترول!

قنبلة اوشكت ان تدمر الرحلة عولجت بطريقتين : الاولى اعتذر الباشا والثانية ـ وهى الاهم ـ اسهم الباشا فى نفقات الاسلاميين .

اقلعت الطائرة من هافانا ، قاصدة نيودلهى . الرحلة طويلة

قررت المجموعة أن تلقى نظرة عجلى ، على هذا البلد ، الذى قاد الاستعمار والثروة الصناعية فى العالم .

استأجروا اوتوبيسا . يطوف بهم شوارع لندن : حى وسط المدينة التجارى يعرض صورا باذخة من الثراء . لا تقل عن أمريكا . المحلات الكبيرة تعرض سلعا تبهر البصر . لكن اسعارها تشوى الوجوه والجيوب .

وقفت نور وزميلاتها الفلاحات والمنقبات والمحجبات ، أمام فاترينة تعرض ملابس للنساء . فستان ثمنه سبعمائة جنيه استرلينى . تساءلت نور عن ثمنه بالجنيهات المصرية ، أجابتها المحجبه الانيقة :

ـ اكثر من اربعة الاف جنيه .

لطمت نور خديها بيديها . تلفظت بكلمه تقال فى الكوارث . ثم قالت :

ـ دانا جلابيتى باربعة جنيه . هو فيه مرة ، تلبس فستان باربعة الاف جنيه وتساءلت:

- هى المره اللى حتلبس الفستان ده ، زينا كده ، لها رجلين وسدر ، وخلقة زى خلقتنا كده .

أجابتها المحجبه الانيقة ، وكانت افكارها قد تطورت كثيرا :

- الحقيقه انت اجمل من الست اللى حتلبس الفتسان ده . والحقيقه انها بنى أدم زينا يمكن الفرق بينا وبينهم ان الدم فى عروقهم مختلف عروقهم مليانه استغلال للبشر . حصيلة الاستعمار والرأسمالية ....

- هل الشعب الانجليزى كله بيلبس هذه الملابس ؟

وتجيب شيرين .

- لا طبعا . الشعب العامل له محلاته فى الاحياء الشعبيه يشترى منها ملابس اغلى قليلا من جلابيتك . هذه الفساتين يشتريها الاثرياء والسياح وبصفه خاصة من بلاد الزفت البترول .

تعب الركب من الفرجة فحسب ، على المحلات . قرروا تناول سندويتشات خفيفه فى مقهى . الميزانيه اخذت تنضب . لا يستطيعون تناول وجبه كامله . خواجه انجليزى شاب احمر الخدين عريض المنكبين ، يقترب منهم . خاطبهم انا متعطل ، واريد معاونة . امتنع اليساريون عن اعطائه ، وكذلك الاسلاميون . منحه الباشا والليبراليون شيئا . بعد عشرة دقائق جاء أخر . فى نحو الاربعين من عمره . يفور صحة ، وحيوية . قال بلهجه انجليزية اصيلة

خرجت من المستشفى بالامس . اريد شيئا لاسافر به الى بلدى . منحه الباشا فحسب .

رغب شهاب باشا فى الذهاب لاستشارة طبيه فى شارع هارلى . الشارع الذى يعالج الاطباء البريطانيون فيه اصحاب البترول . واثرياء العالم الثالث . صحبه ابراهيم ، وبعض اللبراليين . انتظروا على كافتيريا قريبه من لندن كلينك. اثناء انتظارهم جاءت سيدة انجليرية . تجر طفلين فى يديها : مات زوجها . ولاتستطيع ان تنفق على هؤلاء الاطفال . تطلب معاونه ، لكنها اشترطت ان تكون سخية . جمعوا لها مبلغا متواضعا . نظرت الى المبلغ . لم تكن نظرة رضا واحترام . كررت انه غير كاف . ولما لم تجد فائدة من زيادته ، اخذته وانصرفت .

عندما ذهبوا الى مترو الانفاق للتفرج عليه ، سمعوا انغاما موسيقية بعضها صاخب ، وبعضها حالم . تصاحبها اغنيات زاعقةواخرى هادئة. اعجب بعضهم : ياسلام الناس هنا سعداء . يغنون ، ويعزفون الموسيقى فى كل مكان . ثم تنبهوا الى ان فرقا كامله من الشباب يتسولون على انغام الموسيقى التى يعزفونها . نظر ابراهيم الى زملائه اللبراليين قائلا : .

ـ هذه هى إنجلترا ، البلد الرأسمالى . بلد المليارديرات والشحاتين . شاركه واحد من اللبراليين :

ـ هذا البلد استنزف موارد المستعمرات ، اكثر من مائتى عام .

كيف لم يستطع ان يقضى على الشحاتين فيه ؟

أحب ابراهيم أن يثرى زملاءه بمعلومات من كتاب الفه استاذ إنجليزى عن البطالة فى انجلترا . فى الاوقات العاديه ، يوجد اربعه ملايين عاطل . كان اللبراليون قد سألوا الشحاتين عن اعانات البطاله ، التى تمنح لهم . كان ردهم انها صغيرة لا تكفى . اذا كان العمال الذين استجدوهم يمثلون العاطين ، فانه يوجد فى انجلتر اربعة ملايين شحات .

******

(٢٦)

الطائرة ترفرف فوق ارض مهيبة : غابات استوائيه ، كثيفة خضراء . وديان فسيحه . مساحات منبسطه شاسعه . سنابل القمح تتموج كالمحيط تجرى وراء حقول الارز. التى بدأت سنابله تغلق

بالذهب، حبات من الفضه. جبال شامخه تصعد الاشجار الى قممها. فتشارك القمم عمائمها البيضاء وتيجانها الثلجية لفتت هذه الصور المتنوعة من جمال الطبيعه انظار نور. سألت ابراهيم:

ـ ماهذه البلاد الواسعة الجميلة؟

ـ هذه هى الهند. قارة كبيرة، وبلاد جميلة، كما ترين.

ـ كيف يمكن لهذه الأرض العظيمة، إلاتطعم بنيها. المجاعات فى الهند معروف أمرها.

ـ الأراضى كانت مملوكة للمهراجات، ثم جاء الإستعمار، وحول الأراضى الخصيبه إلى مزارع للشاى، اللازم للمستهلك الإنجليزى،

هبطت الطائرة فى نيودلهى عاصمة الهند. ذهبت المجموعة إلى فندق من الدرجة الثالثة. «الفلوس» لاتتحمل الفنادق الأغلى. تلك مصادفة سعيدة. تمكن الفريق من أن يعيش فى قلب الشعب الهندى. الفندق يشبه فنادق «الحسين» والسيده زينب والفجاله.

قلقت المجموعة على الباشا من هذا المستوى المتردى للفندق. اقترح بعضهم أن يذهب الباشا لفندق خمسة نجوم. دياب يعترض:

ـ نحن ضيوفك. كيف تتركنا. أنت رئيس الرحلة. هل نبقى بغير رئيس؟

بان على وجه الباشا انه يوافق دياب. انتهز الاخير رضاءه

الضمنى . واطلق قفشه.

- على كل حال هذا الفندق احسن حالا من الزنزانه ذات الخمس نجوم التى استضافتنا فى معتقل القلعة !

ورد الباشا على الفور :

- انا باق معكم !

كان وصولهم الى نيودلهى وفندقها ليلا . والليل يخفى عورات كثيرة ما ان اصبح الصباح حتى كشفت العورات الاجتماعية عن وجهها. فى اليوم الاول ذهبوا للتجول فى المدينة . فى الطريق وجدوا منظرا ملفتا : على جانبى الشارع اقتعد الارض فريق من الآدميين الفكير الهندى . والفكير فى اللغه الهنديه هو الفقير فى اللغه العربيه . على أن هناك فارقا الفكير الهندى اشد بؤسا واعمق فقرا تستطيع ان تعد عموده الفقرى، فقرة فقرة من اعلى الرقبه الى اسفل العجز الجلد يلتصق بالعظام التصاقا حميما لا يسمح بلحم او شحم. لا ترى له شرايين او اورده. فليس فيه دماء لتحملها العروق!

يجلس على جانب الطريق فى انتظام وسكون. يذكرك بطريق الكباش فى الاقصر. حتى عنصر العباده يبدو مشتركا. الكباش كانت تحرس.. وتبارك موكب الفرعون المقدس والفكير الهندى يبدو متصوفا هائما فى بأسائه لا يسألك احسانا. معتدل القامه فى جلسته. يخيل اليك أن به كبرياء. او انه متعبد صامت فيلسوف!

الجماعه تختار ميدانا من الميادين. رأوا عددا من الهنود يجرون وراءهم الماعز. اعتقد البعض ان الهنود يصطحبون الماعز كما يصطحب الارستقراطيون والخواجات كلابهم فى نزهاتهم. لكن منظر البشر والماعز لا يوحى بهذا الترف. فالمتنزهون من الكلاب واصحابها، يتمتعون بالصحة ويمشون فى خيلاء واناقه. وليس هذا حال الماعز هنا. ولاحال ساحبيها. ماعز هزيل جائع. يجذبه بشر يشاركه الجوع والهزال. على ان الماعز كانت طيعه متعاونه مع ساحبها. تدرك انها مصدر رزقه ورزقها، فهو يستخدمها وسيله للشحاذه والتسول.

فى ميدان آخر كان المشهد رهيبا، بقدر ما كان فنيا. مجموعة من البشر ، تعزف الفلوت. أنغام مختلطه. تتقاطع مع بعضها. ولكنها تكون كلا فيه رقه. عشرات من الثعابينالكوبرا تتراقص على تلك الانغام كان الاداء فرديا فى اغلبه ـ يبدع العازف بقدر ما اوتى من موهبة. وبقدر ما تلسعه الحاجه ، ليعطيه الناس، ما يجعله قادرا على العزف. كانت الكوبرا تتثنى فى حماسه وصداقه للمتفرجين. فهى الاخرى تعتمد على الدخل الذى يحصله صاحبها من هذا العمل.!

وكانت هناك فرقه من العازفين، تعزف عزفا جماعيا ـ وتتراقص الثعابين معا فى رقصات جماعيه معبره. استغرق المصريون فى التفرج على تلك الرقصات. استمتعوا بها. نسوا أنها مأساه من

مأسى الشعب الهندى.

لمح الرحالة ظاهرة ملفته. رافقتهم فى الشوارع والميادين: البقرة الطليقة . البقر يهيم فى الشوارع الكبيرة والصغيرة. ويتخذ منها حظائر. لا أحد يعترض سبيلها ولايعنى بها كيف يعنون بالآلهة وهى التى يجب ان تعنى بهم.

كان بعض المصريين على علم بموضوع البقرة المقدسه. ومكانتها فى الديانه الهندية. تجنبوا الخوض فيها مع المارة. لكن نفرا من الفلاحين نكش الموضوع مع احد الهنود فى الشارع. قال بانجليزيه مكسرة جدا لكن الهندى فهمها :

ـ البقرة.

اجاب الهندى فى تعال:

ـ هذه هى البقرة المقدسة

ـ هل هى الهكم ؟

أجاب الهندى باحتقار.

ـ انت لا تعرف شيئا عن الديانه الهنديه. يكفيك ان تعلم انها جزء من العقيده.

تحمس شاب مصرى للرد على الهندى. لم تعجبه الغطرسة التى كان يتحدث بها.

لكن ابراهيم اوقفه. فهو يعلم مدى حساسية الهنود، لموضوع البقرة . خصوصا إذا كان المتحدث مسلما. افرغ الشاب حماسه فى سؤال لابراهيم :

ـ كيف يتركون البقرة تهوم فى الشوارع تلوثها وتنشر الاوبئه بين الناس؟ كيف لا ينقذون هذه الثروة الحيوانيه الضائعه. التى يمكن ان تسهم فى تنمية الهند.

لحسن الحظ كان السؤال بالعربية. رد ابراهيم عليه بالعربية ، ردا مختصرا :

ـ هذا عنصر من عناصر التخلف يذكر دائما فى كنف التنمية : بعض القواعد الباليه، التى تنسب للدين، تعتبر عقبه من عقبات التقدم فى البلاد الفقيرة.

تقدم الركب الى ميدان آخر من ميادين المدينة : ميدان القرود. كأن المدينه، وميادينها قد انقلبت الى سيرك كبير. اللاعبون والحيوانات فيه، يمنعهم الهزال من اداء حركاتهم برشاقه.

كانت القرود مسلاة لبعض اعضاء الجماعه من الفلاحين، والفلاحات والشباب، وكان المجتمع الهندى كريما. نقل اليهم نماذج من حديقة الحيوان، لاتكلفهم شيئا للفرجة عليها.

******

اقـتـربوا مـن وسط المدينة. العـمـائر الشـامـخـه، على النمـوذج الامـريكى ... تتطلع فـقط للتطاول على السحـاب لكنـهـا لاتطوله.. المحلات السـوبر ماركت تـعج بسلع مـترفـة. بعض الفلل، وقـصـور المهـراجـات مـا زالت تحـتل مكـانهـا فى الضـواحى الارسـتـقـراطيه للمـدينة. الـسـيـارات الفـاخـره يركـبـهـا هـنود.... شـبـاب هندى انيق مصـفف الشـعـر. يشـمـخ بأنفه للـسـمـاء فـلا يرى التعاسـه التى تغطى الجـزء الاكـبـر من مـواطنيـه. الفـتـيـات الهـنود الحـسـان يـرفلن فى السـارى، فى عـيـونهـن سـهـام، تثـيـر، تنعش وتقـتـل! لماذا لم تظهـر الفـتيـات فى الاحـيـاء الـفقـيـرة الشـعـبـيـة : الا يـحظين بـنفس الجمـال وسـحـر العيون ؟ لعل الجـوع قد شـوه جمـالهـن، وأطفأ عيونهـن. فأثرن البـقـاء فـى بيوتهن. ا، لـعلهـن يعـملن، ليكسبن عـيشـهـن. ولايجـدون وقتـا للنزهه، والقاء الشباك على الرجال.

هذه الحـيـاه الـزاخـره فى قلب المـدينة، انعـشـت صـديقنا بـلبل اللبرالى ظهر فى الصـورة بعد ان كان قـد اختفى خلال الجولة.. واتنه ثقة كـانت قـد غـاضـت مع مناظر السـيـرك،ْ اصـبح الان قـادرا على الدخـول فى حـوار. غـيـر ان احـدا لـم يشـأ أن يـحـاوره : اليـسـاريون مازالوا يأملون فى صداقـتـه وتحـوله الى جانبهم. الاسـلاميون المناظر التى رأوهـا، ودين هـذه الـدوله جـعلهـم يعـزفـون عن الحـوار بشـأنهـا.

الرأسماليون حلفاء اللبراليين.

اقترح بلبل زيارة البرلمان الهندى. قرأ فى الجرائد أن هناك جلسة فى الغد . ارتفعت معنويات اللبرالين حينما ذهبوا للبرلمان.. ودخلوا الى المبنى دون حواجز .. اخذوا مكانهم فى الشرفة فى يسر. التفت بلبل، ليقول فى اعتزاز لزملائه :

ـ أرأيتم الى الحرية والديمقراطية، حتى بالنسبة لنا نحن الاجانب. كم واحد فيكم دخل البرلمان عندنا. وكيف دخل؟

الصورة التى شاهدوها فى البرلمان غير متسقه تماما مع ما رأوه فى الشارع. الفكير ليس هناك من يمثله. فكل النواب انيقون. الحزبان المسيطران على الحياه السياسية، هما حزب الكونجرس. وهو حزب رأسمالى لبرالى وحزب المحافظين، وهو حزب رأسمالى بحت. نواب هذين الحزبين يمثلون الطبقة التى تتبادل الحكم. لايقرب من الفكير الا الشيوعيون. ملابسهم غير انيقة. ليست لهم اغلبية. حالت دونهم الثروات الرأسمالية ، والبقرة والجهل وربما الشيوعين انفسهم، اذ ينقسمون الى طوائف كثيرة.

كذلك لم يظهر اى نائب يمسك بمعزة، او بقرة، او ينفخ فى الناى ليتراقص الثعبان. جزء كبير من السيرك الهندى الاجتماعى لا يمثل فى البرلمان. افدح من ذلك ان المناقشات، لم تتعرض للتخلف، وفقر الاكثرية الكبرى من الشعب الهندى. قضاياه الانسانيه الفاجعه التى رأها الرحاله لا اثر لها. اللهم الابعض الصيحات ، يطلقها

الشيوعيون لا تلبث الاغلبية أن تشوشر عليها، وتصوت ضدها.

موضوعات المناقشه مفيده. لكنها بعيده عن المهانه التى تغطى الاكثرية الفقيرة من الشعب الهندى. دارت المناقشات حول انجازات التنمية والصناعات الخفيفه والثقيله. سيارات الركوب، يصنع منها الهنود ٧٠٪ ،تبحث عن ال ٣٠٪ الباقية، تجدها اهم شيء فى الصناعةوهو الموتور. كانت الجلسه صاخبه : فيها وجهت انديرا غاندى، رئيسةالوزراء صفعه للديمقراطية. حلت برلمانكيرالا الشيوعى. ولايه من ولايات الهند الهامه. ذلك لانه أصدر تشريعات تقاتل الفقر والتخلف. لم تشاركهم فيها برلمانات الولايات الاخرى ولا الحكومه المركزيه.

******

حدثت كارثه : اعتدى مسلم هندى على البقره المقدسة بالضرب لانها القت بمخلفاتها امام منزله . قامت مذبحة بين الهنود الهندوس، والهنود المسلمين . وتركت عشرات القتلى والجرحى. استخدمت فيها الاسلحه البيضاء والنارية.

على أن الكارثه، أوشكت ان تجتاح الفريق المصرى. أصر بعض

الاسلاميين على إن يشاركوا فى المعركه ضد الكافرين. والكافرون هنا هم الجزء الاكبر من الشعب الهندى. الهندوس يحكمون هذا البلد. ظهرت الخناجر التى كان بعض الاسلاميين يخفونها فى امتعتهم. واندلع الشرر فى العيون.

ذهب الباشا وابراهيم وبلبل الى عبد الصمد يستنجدون به. قال عبدالصمد للذين يريدون الاسهام فى المذبحة :ـ باسم الله وبأسم رسوله وبأسم الاسلام ادعوكم ان تحكموا عقولكم ودينكم فيما انتم مقدمون عليه. رد عليه واحد منهم :

ـ هذا ما شرع الجهاد من أجله. لا يمكن ان نترك اخوتنا يقتلهم الكفار. ونحن ساكتون.

ـانني اشارككم الحماس للاسلام والمسلمين. لكن الاسلام يقول : لا تلقوا بأيديكم الى التهلكه. نحن وسط خمسمائه مليون هندوسى. ولانستطيع أن نحاربهم.

سكت عبدالصمد قليلا. ثم القى قنبلة :

ـ ما تريدون الاقدام عليه لا يعتبر جهادا. انه انتحار وهو محرم وكفر. نحن وانتم هالكون. معركة الاسلام، لن تكسب بهذه الطريقة. حرام عليكم ان تعرضوا حياة أخوتكم المصريين للهلاك.

أحدث تدخل عبدالصمد التأثير المرجو. اقلعوا عما كانوا يريدون.

فى اليوم التالى قامت مجزرة اخرى. بين الهندوس والسيخ.

سقطت ارواح كثيرة من الجانبين. لهذا اقترح الاسلاميون وايدهم الجميع، مغادرة الهند. كان بلبل يود ان يرى الريف الهندى. يريد ان يرى ريفا لبراليا. اعطوه يوما واحدا. اخذت الجماعه طريقها الى قرية من قرى الجنوب. قيل لهم الطريق مقفول. هذه المنطقه تنتشر فيها الكوليرا. فكروا فى رؤية الجبال وقراها فى الشمال. قيل لهم أن اقرب منطقة جبليه موبؤه بالتيفود، وممنوعه على الزوار. والغرب والشرق؟ هناك فيضانات مدمره فى هذه المناطق، لا تطرقها السيارات.

تساءل ابراهيم :

ـهذه الاوبئه والكوارث، كانت موجوده فى عهد الاستعمار. ماذا صنعت الحكومه الوطنية للقضاء عليها؟

وكانت اجابة الهندى الذى سأله :

ـ الحكومه مشغوله بمشكلة الحياد الايجابى؟ ومشكلة النزاع مع باكستان على الحدود فى كشمير وغيرها تعوقها عن محاربة التخلف والفقر.

ـ اليست حكومة ديمقراطيه وطنية.

ـ بلى هى كذلك. لكن ما هو المقصود بالوطنيه وبالديمقراطية اعضاء الحكومه والبرلمان ليسوا فكراء اهتماماتهم ليست اهتمامات الكادحين.

(٢٧)

الطائره تحط رحالها فى مطار بكين. ذهب وفد من ابراهيم ونور ودياب الى سلطات المطار. كانت ابرز ما فى الوفد نور : المنديل بأويه المزركش. الطرحه السوداء الهفهافه. الفستان البلدى الفلاحى، يحدد سموق الجسد. الجمال المصرى، ،عيون الفراعنه. كان اختيار الفتاه اختيارا ذكيا. لا لانها اشتراكيه. تترافق مع الصينين المحدثين. ولكن لانها مصرية فرعونيه تذكر الصينين بحضارة الفراعنة. الصينيون يفاخرون بأن الحضاره الصينيه والفرعونيه، أنارتا الطريق للبشرية.

ذهب الفريق الى رئيس المطار. اخبروه بهوية الجماعة وهدفها : البحث عن نظام اجتماعى افضل. يناضلون لتحقيقه فى بلدهم. كان الحديث صريحا : أموالهم نفذت . وهم يرجون ان تستضيفهم حكومة الصين. بعد اتصالات سريعة جاء صينى . يبدو انه من المغول، شد على ايديهم فى حماسه واضحة،

قائلا : الشعب الصينى يرحب بكم ضيوفا عليه. احدثت الجمله

انتعاشا خاصا لدى الثلاثة. لم يسعدوابنبأ الاستضافة فحسب، بل تهللوا لان الجملة كانت باللغه العربية.

كانت هذه العبارة مقدمه لزيارة حافله . بدأها الباشا بعبارة استفزازيه وجهها الى ابراهيم :

ـ يالله ياعم ، ورينا النظام بتاعكم.

لم يكن ابراهيم سياسيا مخضرما كالباشا. لكنه كان عنتيلا علميا رد عليه :

ـ النظام بتاع الصين، مش بتاعنا.

تراجع الباشا باقتدار :

ـ ياسلام عليك يادكتور انا اهزل معك. اين روح النكته التى تشتهر بها؟

لم تؤثر هذه الدعوة الى الهزار فى رد ابراهيم الجاد :

ـ أه . اذا كنت بتنكت معلهش.

اصطحبهم الدليل الصينى المغولى فى جولة فى المدينه. اول ملاحظه ابداها بلبل. قال متأففا :

ـ ماهذا ؟ ابنية متماثلة. ،على نمط واحد. ليس فيها جمال.

اثارت ابراهيم هذه العبارة .. رغم أنه آل على نفسه أن يسهم فى نقاش هادىء فى الصين. رد عليه فى صوت خافت واثق :

ـ هل تريد الا تكون المبانى متماثله . فترى قصورا وقـ
وعمارات سامقه. ثم عششا واكواخا، وقبورا كما هو الحال عنـ
وفى نيويورك.

رد بلبل، فى صوت يبعد كثيرا عن صوت البلابل قال :

ـ انت يادكتور ابراهيم تقلب الامور دائما. أنا لم اقل ذلك.

احتفظ ابراهيم بصوته الهادىء . ولكنه لم ينس المعنى الذى يريد أن يوصله لزميله :

ـ الاسكان، كالغذاء، والصحة، والتعلم، حقوق للانسان. يتساوى فيها مع اخيه الانسان. جمال المساواه عندى يبز كل جمال.

تدخل الباشا، لينهى جدلا قد لا ينتهى. وخاصة انه بين محام واستاذ فى الجامعة. ،فتح للحوار صفحة جديدة بالمرة :

ـ اريد أن اعرف، كيف قضى الصينيون على الذباب فى بلادهم. الشوارع ،المبانى نظيفه. بلد متخلف. تحرر من الاستعمار والافيون قريبا. خاض معركة شرسه بقيادة الشيوعيون ضد النظام القديم والامريكيين. انتصر عليهم. ثم يصنع هذه المعجزه التى ينفرد بها فى العالم كله.

وجه الباشا سؤاله للمرافق الصينى الذى أجاب :

ـلم يترك لنا الاستعمار والرجعية، الفقر ،التخلف فحسب، بل تركا لنا مدنا وقرى قذره . يعيث فيها الذباب والامراض. الوطن

اصبح بعد التحرير ملكا للناس. فلابد من تنظيفه، لينعكس على صحتهم.

ونجحت الحمله، لان الشعب الصينى شعب نظيف بطبيعته.

وهنا تدخل شاب من اليسار.

ـ هل هناك شعب نظيف بطبيعته. وشعب قذر بطبيعته؟ ان النظافه او القذاره، صفات ترجع للنظام السياسى الاجتماعى الذى يعيش فيه ذلك الشعب ؟

اعتذر الصينى على الفور :

ـ إنا اسف، اذ تدفعنى الوطنيه الى هذا الشطط الحق انك على حق. أنا قصدت ان الشعب الصينى، اشترك مع الدوله فى هذه الحمله: استخدمت الدولة اموالها وادواتها للقضاء على هذه الحشرة. اجهزة الاعلام اسهمت. وزعت ملايين من مضارب الذباب على المواطنين. توبع الذباب ويرقاته فى مواطنها. لاقمامه ليعشش فيها. الطرق والبيوت صحيه نظيفه، حتى الاصطبلات.

فرحت البنات الفلاحات : هذه دولة الاشتراكيه تقضى على الذباب، قالت احداهن :

ـ الباشا يقول انكم قضيتم كذلك على الافيون :

ـ هذا موضوع مختلف.. ادخل الانجليز الافيون الى الصين، بكميات ضخمه. وذلك لتخدير المارد الصينى العملاق. ،ذلك لكى

يثبوا عليه. هب الشعب بقياداته. وهزم الانجليز فى حرب الافيون

وسألت البنت الفلاحة :

ـ هل لا يهرب الافيون الى داخل هذه القارة الكبيرة بواسطة الصينيين انفسهم ؟

ـ لابد أن اعترف بان هناك بعض محاولات تهريبيه على الحدود ،اهمها ما يوجد على الحدود فى الجنوب والغرب بالقرب من افغانستان وباكستان وايران والهند، وبنجلادش. وهى محاولات ضئيله. ،احب إن اقول لك. وهذا ليس فخرا : ان التربية الاشتراكيه للشباب خير سلاح فى ايديهم للقضاء على المخدرات.

كانت المجموعة المصرية تتجول فى شوارع بكين. مأخوذين بفكرة اختفاء الذباب ونظافة المدينة. لكنهم احسوا بهواء نظيف يستنشقونه. خال من الدخان والعوادم، والتراب . لفت نظرهم عدم وجود سيارات بالشوارع هناك عدد محدود من الاوتوبيسات العامه.. اغلبية الناس يركبون الدراجات! منظر طريف : الوف الدراجات، تملاء الشارع، فى انتظام غريب. الراكبون يسرعون .. لكنهم لا يتصادمون.

تساءل دياب :

ـ هل لديكم سيارات ؟

ازدادت دهشة المجموعة، عندما اجاب الرجل الصينى :

ـ لا !

مرت فى هذه اللحظه سيارة وحيدة. قال احدهم

ـ هذه هى سيارة.

ـ اجاب الرجل :

ـ لابد أن تكون سيارة من سيارات السفارات الاجنبيه !

سكت الرجل لحظة ثم اراد ان يتخفف :

ـ ها انتم ترون أن التلوث هنا يقوم به الاجانب !

تلقى المصريون القصة ضاحكين.. لا تنطبق الطرفة عليهم. لانهم مشاة.

،طلب فلاح :

ـ تعبنا من المشى. اليس لديكم اتوبيسات عامه، لنأخذ جوله فى انحاء بكين ؟

ـ لدينا جهاز كبير من اتوبيسات النقل العام لكنها تستخدم فى المسافات البعيدة. ،المشى مفيد لكم صحيا.

وقدمت نور اقتراحا غير متوقع :

ـ هل يمكن ان تحضروا لنا عددا من الدراجات : نتنزه بها فى شوارع المدينة ؟

ـ هذا اقتراح جميل ، لو وافق الجميع عليه.

وجدت الفكرة حماسه لدى الكثيرين. سكت بعضهم، لانهم لايستطيعون ركوبها وجاء الحل من نور مرة اخرى.

- الذين لايستطيعون ركوب الدراجات يركبون مع الذى يركبونها.

- كذلك نستطيع أن نحضر لكم بعض الصينين، والدراجات المزدوجه فتركبون والصينيون يجرونكم.

،تساءل ابراهيم :

- هل هذه الظاهره موجوده كذلك فى الصين الاشتراكيه.

- لا هذه الظاهرة اختفت عندنا. فى منطقة الشرق الاقصى، كان المواطنون يجرون السادة الاقطاعيين او الخواجات المستعمرين فى الماضى. أما الان فقد تحولت الى عمل تطوعى يقوم به الشباب احيانا لخدمة العجزة، وكبار السن والاطفال الذين لايستطيعون ركوب الدراجات.

هكذا ركبت المجموعة المصريه رتلا من الدراجات. ظهرت فى هذا الموكب مفاجأت: الباشا الضخم المسن ، كان من انشط راكبى الدراجات. المفاجأة الثانيه، ان نور وبنات الفلاحات، ركبن الدراجات كالشيطانات، بينما ابراهيم لم يكن يعرف كيف يركب الدراجه! حملته نور خلفها وما كان للمنقبات والمحجبات اللائى يجرون اذيالهم ان يركبن الدراجات. تبين أن ازواجهن تعلموا ركوبها ايام

الشباب.

كان منظر المصريين بلحاهم وجلابيبهم، ،المناديلبقوية ،الحجاب ،النقاب، صورة فريدة فى شوارع بكين. لكن الشعب الصينى يركب الدراجات، مسرعا الى العمل او عائدا منه. فلم يستمتعوا بهذا الموكب الغريب كانوا يكتفون بنظرات خاطفه حينما يمرون بالموكب البطىء

******

سعد الاسلاميون، حينما دعا الصينيون المصريين فى المساء، الى حفل راقص. كان الرقص فولكوريا. ملابس الراقصات طويلة حتى القدمين. البرانيط أو القلنسوات تغطى الرؤوس. الاكمام طويلة . وليس هناك هز للبطون.

الطعام الذى قدم لهم قبل السهرة كان مصريا. قدم لهم الكباب المصرى ،المحشى، ،الحمام المشوى. بعد أن تناولتها اللمسات الصينية الشهيرة. صغرت القطع كثيرا، لتأخذ الشكل الصينى.

عادوا الى الفندق. لم يكن فاخرا. لكنهم رضوا به. كان نظيفا

انيقا. الباشا لم يتذمر. لكن بلبل تأفف قائلا :

ـ ايه ده، مافيش عندهم، فنادق لوكس: خمسة نجوم؟

كان ابراهيم حساسا دائما لملاحظات صديقه، فقال غير باسم:

ـ حتسكت، والا اخليهم، يدفعوك أجر الاوتيل ؟

ـ سكت يا أخى. اعوذ بالله !

******

(٢٨)

طوف المرشد الصينى، بالمجموعة فى دنيا الصناعات الصينيه: الثقيلة والخفيفه. وبالرغم من اعجاب المصريين بالصناعات الثقيلة فى بلد كان متخلفا منذ بضع سنين، ومازال يصارع التخلف، الا أن بعض الشباب فى المجموعة كان مهتما، بموضوع اخر :

ـ كيف تطعمون سكانا يقتربون من ربع البشرية، وتكسونهم. ثم تصدرون الغذاء والكساء الى الثلاثة ارباع الاخرى؟

ـ الصـينى نشـيط يحـب العـمل. ،كل الناس يعـملون، فـيمـا عـدا الاطفـال حـتى العـجـائز يعـملون. يتـطوعـون للعـمل حـتى بعـد سن المعـاش. الانسان هـو مـصدر ثروة هـذا البـلد. ينتج ما يكفى. ويصـدر فائضه الى العالم.

ـ مـعك حق، فـقـد نـعـمنا بالبطاطين، والبـيـجـامـات والقـمـصـان الصينيه، وغيرهـا من الملابس، رغم اننا بلد ينتج القطن.

ـ اشكرك.

ـ ليس فى شـوارعكم شبـاب يقف عاطلا على الارصـفة، ،لانـسـاء متسكعات.

ـ لاتوجـد عندنا بطاله. قـوتنا العـامله، من الذكـور والاناث، تصل الى مئـات الملايين وكلها موظـفة، يدفعـها الى الانتاج عـامل قديم، هـو الحـضارة الصـينيه. وعامل جديد هـو النظام الاشتـراكى. ولهذا كانت السلع الصـينيه تشـبع هذا المحـيط اللجى من البـشـر . ثم يتـخطى الحدود الى بقية أسيا وتعبر البحار الى افريقيا وامريكا اللاتيينية.

وأراد شـاب ان يضفى لونا خفيفا على الحديث فقال:

ـ طيب والنسـاء المتسكعات.

ـ النسـاء اذا تعلمن، ووجدن عـملا منتـجا شـريفا، لا يتـرددين فى البغاء .

******

فى قاعه فسيحة فى مصنع من المصانع. تجمع بين الاناقه والنظافه والبساطه، قدم اليهم الشاى، على انغام الموسيقى. احتسوا الشاى الصينى الاخضر. من اكواب صينيه صغيره وجميلة اقترح بلبل ان يدور حوار مع الصينيين حول قضايا معينه، كالديمقراطية. ،اضاف عبدالصمد الاسلامى..وكذلك مسألة الدين. توقع الباشا ذلك فعقب:

ـ لقد تحدثنا فى الديمقراطيه والدين فى اماكن كثيرة. أرجو أن نطرق مجالات جديدة.

ـ وتدخل المرشد الصينى:

ـ أرجو ان تترك الحرية لكل فرد ليسأل. وأنا أرحب بالرد على موضوع الديمقراطيه. ،لن اكرر ما سمعتموه فى كوبا.

تساءل اسلامى دهشا :

ـ من اخبرك برحلتنا الى كوبا؟

ـ نحن نعلم ما يدور فى الدنيا.

سكت المغولى لحظة ثم عاد الى الموضوع الاصلى :

ـ لدينا ديمقراطية لا توجد فى العالم الرأسمالى الغربى. هى

ديمقراطية الانتاج. ولما كان الانتاج هو مصدر الحياة والتقدم والحضارة. لكل شعب، اذن فسيطرة جماهيرنا عليه سيطرة ديمقراطية، تعتبر اعمق صوره للديمقراطية. الجانب الثانى، هو الديمقراطية السياسية. لدينا احزاب عدة تعرض اراءها فى حرية كامله. واسمحوا لى أن اضيف أن الديمقراطيه عميقة فى تاريخ المجتمع الصينى. ،لعلكم سمعتم عن فلسفة معلمنا العظيم ماوتسى تونج القائله : دع مائة زهرة تتفتح، ومائة فكرة تتصارع.

وهنا اندفع المحامى بلبل، على غير عادته قائلا:

ـ كم مائة زهرة قتلتم فى الميدان السماوى؟

أريد وجه الصينى الاصفر، وصار ترابا: حاول الرجل الذى كان يتحلى بالهدوء الصينى المعروف. والبسمة الشهيرة، ان يسترد لونه. لكنه لم يفلح الا بعد برهة. عاد الى الكلام محاولا الحفاظ على هدوئه:

ـ انت ياصديقى، لا توافق على أن تشيع الفوضى والتخريب للنظام الاشتراكى من اعدائه فى الخارج والداخل. كانت هناك مؤامرة لتخريب النظام قضينا عليها.. قل لى بالله عليك.. ماذا تفعل أية حكومه فى العالم للمحافظه على نظامها. ماذا يصنعون فى الولايات المتحده ،واوربا؟

نقل احد الاسلاميين الحديث الى مجال الدين:

ـ لقد شهدنا مذابح دينية فى الهند ويشاع عن الشيوعيين انهم يخاصمون الاديان.

رد الرجل بثقة. ،عادت البسمه الى شفتيه:

ـ تجربة الصين مع الاديان فريده ومتميزة. لقد امتزجت الماركسية فى الصين بالتراث الصينى ،الدينى والحضارى هناك مبادىء من ديانه الكثرة وهى الكونفوشية تمتزج بالتطبيق الماركسى. كذلك الحال بالنسبه للاسلام والمسيحية وغيرها. كلها اديان تكرم الانسان. وجدت فى الاشتراكيه اداة علمية طيعه لهذا التكريم. يمكنك ان تمر فى الصين من اقصاها الى اقصاها، ستجد معابد كونفوشيوس، والمساجد، والكنائس مفتوحة على مصاريعها. لذلك لن تجد فى بلادنا معارك دينيه، لابالمطاوى والخناجر، ولا حتى بالكلمات.

،كانت لدى المرشد الصينى اضافة:

ـ جاء وفد من المثقفين المصريين لزيارة الصين فى الستينات استقبلهم الزعيم ماو. اخذوا يتبارون فى الحديث عن المادية الجدلية، والمادية التاريخية، وغير ذلك من المسائل الفلسفيه. ولما انتهوا، قال لهم ماو فى بساطة شديدة : اقترح عليكم عندما تعودون الى مصر، ان تذهبوا للصلاة مع الشعب فى المساجد والكنائس.

******

خصص اليوم التالى، لزيارة كوميون من كوميونات الريف الصينى. استقبلتهم اللجنة التى تدير الكوميون. يتقدمها كهل صينى. يدب دبا قويا نحو الشيخوخه. بادى الصحة. نحيف الوجه والبدن. عيناه الضيقتان تطلقان وميضا. يصل اليك قويا مريحا. هذا لقاء بين حضارتين بدأتا تاريخ الانسان. الكوميون يضم ثلاث قرى. تعدادها عشرة الاف نسمة. وهو ثمرة من ثمرات الثورة الثقافية التى قامت فى الستينات.

وتساءل يسارى:

ـ لكن الثورة الثقافية، كانت مدمرة للاقتصاد الصينى وارتكبت فيها مأسى.

ـ ليست الثورة كلها سيئة لقد حققت ثمرات دانيات، لولا التطرف والغلو، الذى اصاب الشباب، فذهبت ضحايا بريئة، لكن هنا الكوميون من نتائجها الطيبه.

ـ كيف ؟

ـ نحن نطبق هنا الشيوعية. قبل اى مكان فى الصين ، وفى العالم :

لقد ثقف الانسـان هنا ثقافه اشتـراكيه معـمقه. ،اصبح الفـلاحون والعمـال يعطون مـجتـمع الكوميـون اقصـى ما يسـتطيعون من جـهد انسانى. ويأخذون من النـتائج بقدر حاجاتهم فـقط. الناس سـعداء، إذ يبنون أول مـجتمع شـيوعى فى العالم. الإنسـان يمكنه أن يكون خيرا. يحب أخاه الإنسان، يعطيه فائض عمله، ولايستغله.

اعترض اسـلامى:

ـ هذا كلام «طوباوى» لـن يدوم.

أسـر المترجم لامين لجنة الكوميون، بان المتحدث «إسلامى» . رد الرجل اللماح بسرعة :

ـ اعتقد ان فلسـفة الاسـلام، بل المسيحيه، تأخذان بنفس الاتجاه... اليس عندكم من يتبـرع بجمـيع امـواله، لخـيـر المسـلمين. بعض خلفـائكم تـرك امـواله لـبـيت المال ـ اى لـلشـعـب. نحن نطبق هذا بالثقافه والعلم، وباسلوب شـامل للناس جميعا.

وقال ابراهيم:

ـ كيف تجـمـعون بين هـذه المتناقـضات: ثـورة ثقافـيـه يقـوم بهـا اقـصـى اليـسار، ثـم ثورة انفتـاحـيـه، يقـوم بها اليـمـينون فى الحـزب الشيوعى، ويفتحـون الصـين للاجانب، ورءوس اموالهم.

اجاب الفلاح المهيب.

ـ التناقض هنا ظاهرى. مصدره فلسفة دع مائه زهرة تتفتح، لقد

جربنا التطرف اليسارى ،عرفنا اخطاره ومعوقاته. نجرب الان ما اسميته انفتاحا. وأسمه الحقيقى ترشيد وتخطيط القطاع الخارجى الصينى!

نود أن نأخذ التكنولوجيا من مصادرها المتقدمه. ،حينما تتقدم الصين صناعيا، بشعبها الذى يمثل ربع البشر، نستطيع ان نوصل ثقافتنا الى الثلاثة ارباع الاخرى.

سكت الرجل هنيهة ثم فاجأ المجموعة.

ـ ألم يقل نبيكم محمد لكم : اطلبوا العلم ولو فى الصين نحن نقول: اطلبوا التكنولوجيا، ولوفى امريكا.

ضحكت المجموعة ،استمر أمين الكوميون : من المسائل التى كسبناها من الثورة الثقافيه، اننا بيننا الان فريق يزرع الارض معنا . ،يعمل فى الكوميون فريق من اساتذة الجامعات، وقادة الحزب والفنانين وغيرهم من المثقفين.

أخذ الرجل يقدمهم: ... مدير جامعة شنغهاى.. عميد كلية الحقوق بجامعة بكين... استاذ بمعهد التكنولوجيا بنانكين... سكرتير الحزب الشيوعى بهونج كونج.... ! الى اخره.

فوجئت المجموعة المصرية بهؤلاء المثقفين يلبسون لبس العمل الخاص بالفلاحين، ايديهم خشنه. وجوههم لفحتها الشمس، وغبرها تراب الحقل .. قال مدير جامعة شنغهاى:

ـ هذه لمسة عبقرية من لمسات المعلم ماو والثورة الثقافيه. العمل اليدوى يثقفنا ثقافه انسانيه رفيعة، لنكون رفاقا للكادحين. «يستل منا بقايا التعالى الثقافى الذى ورثناه من المجتمع البرجوازى. ويلغى الطبقات فى المجتمع الاشتراكى تماما. فهذه المجموعه المثقفه هى التى تدير المؤسسات السياسية والثقافيه والمشروعات الاقتصاديه فى مرحلة بناء الاشتراكيه. .. لهذا فالعمل اليدوى يقضى على الطبقة البيروقراطية، ويجعلنا جزء من الكادحين..

زار الفريق المصرى المصانع والمزارع المختلفه فى الكوميون، انتهوا الى صناعة ليست مالوفه على مستوى القرية: افران الحديد والصلب التى تمد الكوميون بالحديد والصلب اللازم لزراعته وصناعته.

******

(٢٩)

اقلعت الطائرة من بكين متجهة بالرحالة الى القاهرة. الاحوال الجوية سيئة للغاية. أحس الركاب بكركرة فى الطائرة . هبطت فجأة. ارتفعت مرة أخرى. تأرجحت يمينا ويسارا ارجحات حادة. لم يحدث صراخ، لكن وجوه الركاب اظلمت جميعا، اتسعت الحدقات. جمدت الاهداب. تلبس الموت الوجوه. ظهرة صورته عليها. من يريد ان يعرف شكل الموت، لينظر الى هذه الوجوه. لكن احدا منهم، لم يشهد هذا المنظر الفريد. كيف يرى الموتى الموت؟

يبدو أن الحقيقتين، التى يتساوى فيهما الناس جميعا، هما الحياة والموت، الناس يولدون متساوين تماما. تقضى الاجنة فى بطون امهاتها تسعة اشهر. يصرخون عندما يرون نور الدنيا. مغزى الصرخة لا يهم: فرحة بالحياة أم خوف منها. لون البشرة ليس حاسما: حرقتها الشمس، أم اكسبها الجليد لونه الناصع.

وكذلك الموت. حينما صب الموت لونه فى وجوه الركاب، لم يعد هناك فارق بين أبيض واسود وأسمر. الذعر من الموت وحد الوجوه . قالت العيون كلاما مماثلا. انفرجت الشفاه بنفس الزاوية. خرست الالسن تماما.

الذعر حاق بالاسلاميين تماما، كما حاق بالفرق الاخرى. اختفى ما كان يقال، قبل حلول الموت من عبارات الايمان. «الفرحة بلقاء

الله. ، الاخـرة خـيـر وابقى . اذا كـان الميلاد والموت، يتسـاويان بين الناس ، لماذا تفرق بينهم النظم الاجتماعية. الابيض يحتقر الاسود. الغنى يمص دم الفـقـيـر، الرأسـمـالى يـسـتغل العـامل، ويسـتنزف كدحه.

ظلت الطائرة تتراقص فى الفـضـاء ، مـدة غيـر قـصـيرة. حـينمـا تهبط تحدث شهقه جماعيه. تطول ما طال الهبوط. ،حينمـا ترتفع يأتى دور الزفـير الجـماعى. فـقدت الاجسـاد مـا فيـها من مـاء وعرق. جفت الاعواد. اختفى مـا فى الاعين من بريق. صعد الدم الى العيون. اصبحت مظلمة جمعت بين الحمرة والسواد.

لم يحضـر قائد الـطائرة ولا معـاونوه، ليطمـئنوا الركاب. القـائد مستغرق بيديه وعقله لانقاذ الطائرة. المضـيفات لسن احسـن حالا. الجم الرعب السنتهن. كبل ارجلهن. تسـمـرن فى مقـاعدهن. كأنهم يفضلن الموت جلوسا.

هبطت الطائرة. اقـتـربت من صفـحـة ميـاه لانهـائية. هذا بحـر أو محيط تمكن القـائد من ايقاف هـبوطهـا. كـان من حظة أن الشـمس فوق الماء سـاطعة ،السـماء صافيه لاضبـاب ولاسحـاب يعوق الرؤية. يبـدو ان الطائرة ابتـعـدت عن منطقـة الجـو السىء . هناك جـزر متناثرة،وسط هـذه اللجج. يمـكن للطـائرة ان تهـبط فى احـداهـا. الصعوبه أن الجزر اغلبـهابركانية جبلية. يصـعب نزول الطائرة فيها ساله. الحظ الحسن مرة اخرى. برزت لـلطيار جزيرة خـضراء فيـها

سهل فسيح يصلح للهبوط الإضطرارى كان الارتطام بالارض حادا مفزعا، لم يحس الركاب به كان ارتطاما بالحياة!

******

(٣٠)

أخذ الرحالة يكتشفون الجزيرة. فى وسطها بركان خامد مضى على خموده زمنا. توسلوا الى الله ان يخمد انفاسه الى يوم الدين ينحدر البركان الى سهول خضراء، تنتهى بنباتات كثيفة. تلتقى الغابات بسلسله من الجبال شاهقة. تحيط بالجزيرةتاركة شاطئ رمليا، ناصع البياض، اشبه بسوار من اللؤلؤ. يفصل الجبال الشامخه عن البحر المترامى.

فى تجوالهم وجدوا مدينة كاملة مدمرة. يبدو ان البركان فجر فيها جهنم. أو أن زلزالا ارعشها رعشة الموت. الجزيرة منعزلة تماما، لاطائرات ،لاسفن وطد الركاب العزم على اقامة قد تطول وجدوا فى اطلال المدينة منقذا لهم من التشرد.

عقدوا اجتماعا عاما. اتفقوا على انتخاب لجنة لقيادة هذا المجتمع وتنظيمه. اضيف اوربى للجنه الثلاثية يمثل ركاب الطائرة

الاخرين الذين كان منهم امريكيون، واوربيون، ويابانيون. اخذو على الفور يناقشون شئون معيشتهم فى الجزيرة. لحسن الحظ كانت السماء صحوا معظم النهار.

الشمس سخيه، تضىء الجزيرة، ،تدفئها. لكن غماما ينتشر فى السماء ،ينذر بظلمة بارده. همهم الاول هو المأوى. كان تخريب البراكين او الزلازل للمدينة، بركة وخيرا للرحالة ! بدأوا التعمير باستخدام الحطام. يبدو أن أهل المدينة هجروها على عجل. تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وادوات للحياة. بعض البيوت، بمجهود معقول، يمكن ان تصلح للسكنى.

بدات عملية التعمير. المفروض ان يكون العمل تطوعيا. المحنه مشتركة. ،الرغبة فى الحياة قوية. لكن افراد المجموعة جاءوا من بيئات مختلفه. ومن انظمه اجتماعية وثقافية متباينة. فيهم الكسول والنشيط وفيهم من ينظر الى العمل كقيمة انسانية كبرى، ومن يعتبره عبئا وارهاقا. لذلك اقترح ابراهيم تقسيم العمل بينهم. لكى يؤدى كل منهم دوره بالتساوى.

نشأت هنا مشكلة: المنقبات والمحجبات. كيف يجرون اذيالهن بين الخشب والطين. والانقاض؟ حدثت مفاجأة خلعت شيرين المحجبة الانيقه الحجاب. شمرت عن ساعديها. ارتدت بنطلونا. احدثت جدلا حاميا بين المصريين. احتج الاسلاميون:

ـ كيف تفعلين ذلك؟

واجابت فى حدة.

ـ انا افعل ما أشاء. ليس لاحد وصايه على. زوجى الوحيد الذى

النقاب. نحن فى معركة الحياة. معركة العمل. وليست معركتنا : هل نخفى وجوهنا أم نشمر عنها.

أصر الاسلاميون على ان تظل المنقبتين محتفظتين بالنقاب. تدخل ابراهيم :

ـ دعنا نوزع العمل اولا. ولا نشهد الاجانب على خلافاتنا. ثم نناقش القضية بعد ذلك. بعد أن قسم العمل على الافراد جميعا. حاول ابراهيم اقناع الاسلاميين :

ـ الملابس الطويلة ،الطرح،الخمارات والنقابات ستعوق النسوه عن الاشتراك فى العمل.

وعاجله اسلامى:

ـ ومن قال لك أن امرأتى ستعمل ؟

ـ عليها أن تؤدى نصيبها فى العمل.

ـ انا الذى سأقوم بنصيبها ونصيبى.

ـ لكن هذا يرهقك. وقد لا تستطيع القيام بالنصيبين. اسمح لى بالقول ولاحياء فى الحق، كما انه لا حياء فى الدين. العمل لابد ان يتم. نحن معنا اجانب «مافيش يامة ارحمينى»

عندما بدأ العمل لاقامة المأوى، وجد الإسلاميان زوجا المنقبتين، انهما متأخران فى اداء نصيبهما من العمل. ،انهما انهكا انهاكا شديدا. ،ان زوجتيهما طمس العرق على عيونهما. وسأل على وجهيهما فعاقهما عن العمل، وان الملابس الطويله تكبل ارجلهن. قال احدهما للاخر.

- للضروره احكام. دعنا نبدأ برفع النقاب، او نستبدل الحجاب

ظهرت السيدتان بملابس المحجبات فحسب. اطلقت نور وزميلاتها الفلاحات زغاريد مصرية ريفيه. انعشت الجو الكئيب الذى يخيم على الجزيرة. قادت نور ودياب الفلاحين والفلاحات فى معركة العمل. بعد أن انتهت نور، وزميلاتها من نصيبهن من العمل، اخذن يعاون بقية الزميلات. وبصفة خاصة المنقبات. مكافأة لهن على طرح النقاب. اثلج هذا التغيير صدورهن. التنزل من النقاب الى الحجاب خطوة تقدمية!

أما موضوع الغذاء ، فكان سهلا من ناحية، ومعقدا من ناحية اخرى. بعض العادات البدائيه جعلته سهلا. الفلاحون والفلاحات، والعمال جاؤا بزوادتهم. كذلك فعل الاسلاميون. وجاء قائد الطائرة بمخزون لا بأس به من الاطعمه. وزع الطعام عليهم بالمساواه. الرجل كالانثى. وليس للذكر مثل حظ الانثيين حاجه كل منهما للغذاء متساوية.

بعد ان استقر بهم المقام، اخذت اللجنه الرباعيه تخطط لاقامه قد تطول. اقترح ابراهيم ان يمسحوا الجزيرة ليدرسوا ما عليها من موارد. يبدو ان الجزيرة تقع فى المنطقة المعتدله. السهول فيها مراع. حتى الان لم يجدوا حيوانات. عندما توغلوا فى الجزيرة. وجدوا وديانا فيها اثر لجذور القمح. فيها كذلك فاكهه: تفاح وفراولة. ولجوا الغابه. اكتشف الاوربيون نبات عش الغراب الذى يقدم على الموائد السياحية: قابلوا كذلك بعض الوعول الشاردة. ستسهم فى اطعامهم، اذا طال بهم المقام.

جاسوا خلال المدينه، ليبحثوا عن أدوات يستخدمونها فى الزراعة والحصاد. لشد ما دهشوا اذ عثروا على جرار بين الانقاض وأدوات يمكن اصلاحها واستخدامها فى فلاحة الارض. عثروا على مخازن فيها بعض القمح والشعير... هذه تصلح للتقاوى فرجت.

رجعت المجموعه من رحله الاستكشاف عالية المعنويات لن يجوعوا ولن يتشردوا.

******

هذا هو الأسبوع الثانى. الطعام أخذ فى النضوب. لابد مما ليس به بد فى اجتماع عام قال الباشا علينا ان نعمل جميعا لتوفير طعامنا. اعددنا خطة العمل. فى الغابه وعول وخنازير بريه. الصعوبه فى صيد الحيوان، عدم وجود البنادق والذخيرة.

وقف واحد من المجتمعين ليقول :

ـ السلاح والذخيرة معى.

فوجىء الجميع. تلاشى اثر المفاجأه حين قال:

ـ انا ضابط الامن فى الطائرة. البس ملابس مدنية،

أراد ابراهيم أن يرفه عن الجماعه فقال:

ـ لأول مرة يكون الأمن مفيدا!

ضحك الجميع. كانت الضحكه الجماعيه الاولى على الجزيرة واشترك رفيق الاسلامى المستنير:

الوقود وأجاب كابتن الطائرة :

ـ خزان الطائرة ملىء بالوقود. ولدينا كذلك مخزون من البنزين. ،عرض ابراهيم خطة العمل:

ـ الصيد من الغابات والسهول يتولاه الزملاء الاوربيون. كذلك زراعة عش الغراب وجمعه من الغابة. الجميع يسهمون فى تمهيد

ارض القمح والخضروات، وسوف يقودنا فى ذلك دياب ونور.

كان هناك مهندس زراعى من المجموعة المصرية : قال:

- ارجو ان يكون قائد الطائرة لديه كمية من البطاطس الفجه. يمكن اعدادها لزراعة بطاطس نأكل منه بسرعه.

وأستأنف ابراهيم :

- العمل جماعى. الأستهلاك بالتساوى القاعده ان القادر، الذى لا يعمل ، لا يأكل . وهناك استثناء ارجو ان توافقونى عليه : هو ان نعفى الباشا من العمل:

اعترض الباشا محتجا:

- أنا سأعمل كأى فرد بينكم.

- ياباشا. السن والصحة.

- ياعم الدكتور ابراهيم. انا سأعمل وانافسك واهزمك فى العمل. احنا عضمنا ناشف احنا بشوات صحيح. انما بشوات فلاحين!

ضحك الجميع . المحجبتان المنقبتان سابقا مازالتا مكبلتين بملابس الحجاب الطويله. تجرجر خلفهما. تختلط ذيولها بالماء والطين . تتشابك مع العشب والنبات، وتتمزق. الطرحة تخنق رقبتيهما، وانفاسهما. تعوق كفاءتهما. لا تستطيعان إنجاز نصيبهما. هذا يعنى انهما سيأكلان أقل : لايستطيعان استخدام طاقتهما، لزيادة انتاج الجماعة. وذلك ليأكل كبار السن والمرضى

والعاجزون.

احدى المنقبتين هى الفتاه ذات الوجه المجدر سناء . رفيقة نور فى الزنزانه، خريجة قسم اللغه الانجليزيه، بكلية الاداب. برمت بالنقاب. وهى تتبرم الان بالحجاب. حديث نور معها. الرحلة التى رات فيها العالم. ثقافتها. كل اولئك جعلها تتمرد على النقاب والحجاب جميعا. ،على كل ما يرمزان اليه. جاءت فى صباح يوم من الايام الى الحقل حاسرة الرأس. تلبس جلبابا قصيرا يصل الى ما تحت الركبة. القت بالحجاب فى اليم.

رد الفعل لرؤيتها كان متنوعا : اطلقت نور زغروتتها الشهيرة، اتبعتها شابات القرية. تهلل ابراهيم واليساريون. وجم الاسلاميون. ما ان رأها زوجها بخيت حتى ترك الفأس التى كان يعمل بها فى الحقل.

حمدا لله اذ تركها. امسك بخناقها. صاح ،الرذاذ يتناثر من فمه :

ـ ما هذا يأمراة؟

ـ هذا ثوب العمل.

ـ من قال لك ان تلبسيه يا فاجرة؟

ـ اكرم لك الاتتفوه بهذا الالفاظ.

ـ انت تردين على؟

هذا خروج على الاسلام؟

- من قال لك هذا؟ على اية حال الثوب الطويل تمزق. اصبح يظهر الساقين:

- والطرحة؟

- تكتم انفاسى ،تعوقنى عن العمل والإنتاج.

- انا اعمل بدلا منك

- حاولت من قبل ولم تستطع.

- لعنك الله.

- الله يفضل العمل على العباده.

- من اين اتيت بهذا الكلام.

- انسيت حديث الرسول عن العابد الذى يطعمه اخوه؟ فى الجنه، وهو محروم منها.

- اصبحت مفتية. اذهبى الى العنبر، والبسى الحجاب. ان لم تذهبى فأنت طالق.

- انت المعتدى لن اذهب.

تحررت سناء المنقبه. زاد انتاجها. نما دورها. عرضت على ابراهيم ان تسهم معه فى الترجمة الى اللغه الانجليزيه، فى الاجتماعات. رحب بها. لم نتخلص من النقاب والحجاب فحسب. اهم من ذلك انها تحررت مما يرمزان اليه: قهر المرأه، ،امتهان عقلها،

حرمانها من اداء دورها الحضارى والإنتاجى.

******

(٣١)

عجيب امر هذا الانسان! تفرقه الجغرافيا والتاريخ. ينقسم الى اوطان، واجناس، والوان، وأديان. الأطماع الاقتصاديه تجعل وطنا يبتز اوطانا. وطبقة تستغل طبقات، وفردا يبطش بإمه. ما بال هذه الجماعه المختلطه، تعمل معا. وتنتج عيشها معا. ،تقتسمه سواسية فيما بينها؟ فى المزرعة ، التى مهدوها لزراعة الحبوب والخضراوات ترى مشهدا عجبا: توارت كل اللغات لم تبق الا لغة العمل. لم يكن لحبات العرق التى تسح من وجوههم الا لون واحد ذلك اللون الرائق البلورى، الذى يقطره العمل الانسانى. مصدر كل القيم وكل الثروات.

الجميع يعملون بحماسة. تجردوا من كل ما يفرق الانسان والانسان . هذه السواعد المفتوله، توحدت فى ساعدين اثنين كبيرين. تجمعت فيهما الالوان. فصارت لونا واحدا. يفلحان الارض، وينتجان الخير، ويصنعان الحياة.

ما الذى وحد هذه الجماعه المتباينة؟ أهو العمل الانسانى يقومون به معا؟ ليس بينهم عاطل، او طفيلى يعيش على جهد الاخرين. الانهم يقتسمون ناتج عملهم سواسية، فليس من بينهم مستغلون؟ الان الارض ارضهم. وادوات الانتاج ادواتهم. لايحتكرها فرد، أوطبقة، تنهب ناتج عملهم؟

الفلاحون والعمال المصريون ، طليعة العاملين. شهدوا ازهر ايامهم فى هذه الرحله. قادوا العمل فى الحقل ، بقوه واقتدار. اظهر دياب قدراته الكامنة. عملا. ورجوله، وشهامة. قادت نور زميلاتها من الفلاحات والمثقفات قياده رشيده. كان دياب ونور ينتهيان من حصتهمافى العمل. ثم يعاونان اولئك الذين لم يألفوا هذا اللون من العمل اليدوى. كذلك فعل شباب الفلاحين والفلاحات. كان لذلك فعل السحر لدى العاملين جميعا، خاصة لدى الايدى الناعمه التى لايلائمها العمل الخشن.

بدأ العمل اليدوى مثيرا للجماعه كلها. مارسوه بحماس. بدأ طريفا جديدا للبعض. وضرورة حياتيه للجميع. مصدر عيش الجماعه الوحيد. على انه مع الوقت. اخذ بعض الافراد يتراخون، ويئنون. بلبل اللبرالى، اكثر المتراخين، تجاوز الخمسين. امضى معظمها فى مهنة المحاماه. مهنته تقوم على المنازعات بين الناس. ضرورة من ضرورات النظام الرأسمالى. الثروات الكبيرة التى يجمعها المحامون، ناجمه عن شرور المجتمع، ونظامه. الاخ يقتل اخاه

لنزاع على ميراث قيراطين من الارض تركهما ابوهما. سفح الدماء والسرقات والاغتصابات، هى نتاج مجتمع يقوم على تملك القلة للارض ووسائل الانتاج. الكثرة تعانى من البطاله والجوع والتخلف. تقدم على الجرائم.جريمة الزنا ، تعتبر ترفا عند الطبقه الغنيه، ويرغم عليها الفقراء. ليس لديهم ما يمكنهم من مباشرة الجنس شرعا. الثراء والجشع، وتملك رإس المال يهيب بالناس ان يبحثوا عن الغنى فى جرائم المخدرات، والسموم، والدعارة هذه هى البيئه التى تزدهر فيها المحاماة.

لم يدر بخلد المحامى اى من هذه المعانى. بأساؤة ترجع الى المكتب الفخيم فى قلب القا هرة . تذكر نفسه وهو يتقدم اليه فى خيلاء. ينحنى له الوكلاء والكتبه والسعاة والمحامون الصغار . اين العملاء، يدفعون الالاف المؤلفه للدفاع عنهم فى قضاياهم. قضايا افرزها نظام اجتماعى عظيم. ذلك النظام الذى يريد ابراهيم والمجانين من حوله، أن يقضوا عليه.

أوشك بلبل على التساقط لولا ان ابراهيم ادركه. خشى أن يكون اول لبنه تسقط من بناء مجتمع الجزيرة . قال له.

ـ انت انسان مثقف. وقائد فكرى...،

قاطعة بلبل :

ـ انا لست قائدا فكريا، ولا يحزنون انا مجرد عامل. امسك بالفأس كما يمسك بها الاخرون.

ـ هذا ظرف طارىء . ولا بدلنا ان نعيش. ونتواءم مع الظروف. وانت من أعلى الناس ثقافة. أرجو ان تصبر و تصابر. حتى نجد لنا مخرجا.

وعد المحامى ابراهيم ان يبذل ما يستطيع . حتى لا يسبب متاعب للجماعه. أحب ابراهيم ان يتخفف كعادته ويبعده بعض الشىء عن همومه.

ـ لا تيأس. كلما تقادم المجتمع، كلما ظهرت مشكلاته وقضاياه!

ـ ربنا يبعت !

ولكن المحامى استدرك :

ـ ماذا يمكن للانسان ان ينتظر من خصومات فى هذا المجتمع؟

وحتى لو وجدت، اين النقود، التى ستدفع بها اتعاب القضايا. حتدونى لقمه زياده؟

اطلق ابراهيم ضحكته الجهوريه، التى لم تلعلع منذ ان قدم الى هذه الجزيرة. ثم قال:ـ

ـ اذا كثرت المنازعات فى المستقبل يمكن ان نفكر فى انشاء مكتب قانونى، تتولاه أنت. بينما كان ابراهيم وبلبل يتحادثان، جاء احد الفلاحين من مجموعة ابوزيد غاضبا. بادر ابراهيم:

ـ لقد سرق احد الاسلاميين فأسى:

التفت ابراهيم الى المحامى قائلا:

ـ ابسط ياعم اول حادثه سرقة.

ثم خاطب الفلاح الشاب.

ـ كيف سرقه؟

ـ وجدته فى يده يعمل به فى الحقل.

ـ هل لم يستأذنك؟

ـ لا

ـ استدعى خالد الاخ الاسلامى وسأله.

ـ هل اخذت فأس زميلك؟

ـ نعم

ـ هل استأذنته؟

ـ لا

ـ لواخذنا بافكاركم لطبقنا عليك الشريعه الاسلاميه. وانت تعرف العقوبه.

ـ نحن هنا لا نطبق الشريعة. هذا ظرف اضطرارى. ومجتمع جديد توقف فيه الحدود.

ـ ماذا نطبق اذن؟

- نطبق مبادئكم. هى المناسبة للتطبيق هنا. الا تقولون: ان ادوات الانتاج هى ملكيه عامه: تتملكها الجماعه. وتستخدمها فى عملية الانتاج؟

أنا أريد ان أعمل. ولى نصيب فى ملكية وسائل النتاج، وفى استخدامها لاداء نصيبى فى العمل.

كان ابراهيم يستمع الى الاسلامى، والرضا فى عينيه، لهذا لم يناقش زميله الفلاح .. بل نظر اليه قائلا :

- أرأيت ؟ الاخ حجته قويه .. براءة.

******

كان المتذمرون الافراد قلة. سويت حالاتهم. ولكن مشكلة مستعصيه أطلت على هذا المجتمع. لا تستطيع الاديان او الايديولوجيات أن تجد لها حلا. كان الرجال اكثر عددا من النساء. هناك زوجات يرافقن ازواجهن. وعقدت زيجات جديدة ، كى نستطيع النساء دخول السعوديه مع محارمهن من الرجال. بقى نفر من الرجال «عزابا». فى هذا المجتمع والمساواة بين افراده. قاعدة صلبه يجب الا تصيبها شروخ. المساواة تمت فى العمل وفى ملكية الارض

ووسائل الانتاج ملكيه جماعيه. ثمرات العمل توزع بينهم بالتساوى.

بقى امر ملح واساسى. المساواة ينال منها وجود متزوجين وغير متزوجين. المتزوجون ينعمون بممارسات غريزية مريحه. العزاب يعانون لهيبا فى العروق.

على أن موارد الجماعة محدودة. لا تكفى لبناء مساكن مستقله للازواج العشاق. الجهد كله يجب ان يتجه لانتاج الخبز وغيره من الغذاء. كذلك من المفيد الا يتلاقى الازواج لقاء حميما. فالتلاقى قد يثمر بشرا. لا تستطيع الجماعه ان تتحمل نفقاته وتنشئته.

حاول عبدالصمد الاسلامى، ان يجد حلا لهذه المشكله العضال:

ـ يظل النساء مستوطنين معا فى عنابرهم. لا يقربهن الرجال الا فى العمل.

اعترض اسلامى أخر :

ـ كيف تحرم ما أحل الله

ـ الضرورات تحرم الحلال!

ـ هذا بالقياس لقاعدة : الضرورات تبيح المحظورات ؟

ـ نعم.

ـ فتح الله عليك.

حلت مشكله كان يمكن ان تحدث تفرقه اليمه بين المتساوين.

******

(٣٢)

مـخـزون الطعـام ، لم يعـد مـخـزونا. نضب. حـقل القـمح مـا زال شديد الخـضـرة لم تتحـول سنابله الى ذهب، يؤكل بعد. مـا العمل؟ جاء الانقـاذ من حقل الأذره. كـيزانه السخـية تقـدم للجمـاعة نوعين من الوجـبـات . الكيـزان الخـضـراء تشـوى على النيـران. وتقـدم للجوعى وجبة لذيذه ،الكيزان الناشفه تطحن وتخبز عيشا.

شرابات الكيزان الصفراء والبمبية والنبفسجيه، تقدم للمتحلقين حـول النار. لمسـه جـمـاليه. لكـن العيـون تركـزت على حبـات الاذره: طرية مـرصوصـه فى صفـوف انيقـة درية، شعـرت المعدات بجـمالها. تقلصت وتلوت. لا. رقصت وتأودت.

أوقـدت الفـلاحـات الـشـابات النيـران. قـمن بعـمـلـية شـوى الدرة بمهـارة تفـوقن على بائعـات الاذرة المشـويـة على ضـفـاف النيل. نعم مـجـتـمع الجـزيرة بوجـبـة فـاخـرة خـضـعت الوجـبـه لنظام المسـاواه السـائده فى الجـزيرة.

اثارت النار ، والاذره الخضراء ، والفتيات الفلاحات اشجان ابراهيم : رجع الى الوراء ثلاثين سنه. الذكرى انعشته. القت به فى حقل من حقول الوسية التى عمل فيها صبيا. حقل الاذرة بسوقها وكيزانها وشراريبها.

الى جانبه حقل القطن. قطعت سوقه. وضعت فى حزم لاستخدامها وقودا.

فتاتان يانعتان من الفتيات العاملات فى الوسية. عزماه على اكله دره مقلية : أمينه وبمبه. قطعتان من الجمال الريفى. تكمل احداهما الاخرى. احداهما سمراء خمريه، ،الثانيه بيضاء بضه . كيف يمكن ان يقاوم هذا البياض حرارة الشمس ، وجفاف العيش؟ البنتان فى سن واحده فى الخامسه عشرة. فى هذه السن، تنضج البنت الريفية، اكثر مما تنضج بنت العشرين فى المدينة جلابية بمبه ممزقه. تظهر بؤرا حلوه مشعه من جسدها. كانت أمينه ـ ،باللاسف ـ قد رقعت الخروق فى جلابيتها. لكن جسد الفتاه قد كبر على الجلابية. لم يكبر اجرها لتستبدلها. ثار الجسد النامى عليها. احكمت الجلابية قبضتها على النهدين النافرين. المعركه بين الثمرتين الفجتين وبين الجلابية محتدمه. نسيج الجلابيه يستسلم رويدا رويدا للنهود الثائرة. صار النسيج نحيلا رقيقا. لا يكاد يخفى ما وراءه. النهود البكر اليانعه تصر على اختراقه. ابراهيم ينتظر فى شوق مضى المعركه الى غايتها.

مـا زالت الصـورة تـنمل جسـده. الفـتـاتان تتـبـاريان لإرضـائه ـ تجلسـان على يمينه ويسـاره. تقـدمان له الاذره المشـوية، مـغـموسـه بلمـسات من اجسـاد ناضـجه. وبسـمـات من عـيون بريئة. استـغرق ابراهيم فى هذه الصـورة غاب عن حـقل الذره المشوية ، الـذى يقيـمه مـجتـمع الجـزيرة. لكن نور ايقظتـه. قـدمت له كوزا مـشـويا. تناوله بلهـفه منتشـيا بالـذكرى، مـأخـوذا بالواقـع الجـمـيل. نفس الصـورة القديمة . بل ان الصـورة الحية امامه، اكثر سـخاء وانوثه ، وفكرا.

******

عندمـا أخـذ مــخـزون الغـذاء فى النضـوب، بذلت فـرقـه الصـيد الاوربيه جـهـدا خـارقـا. اصـصطـادوا خنزيرا بريا كـبـيـرا. بدأو فى شويه. وضعـوه فى سيخ حديدى برأسه واظافره. جزع الاسـلاميون من منظره. تجمعوا. قرروا الإمتناع عن الاكل.

تسـاءل احد الخـواجات :

ـ كيف لا تأكلون لحم الخنزير ؟

ورد عليه عبدالصمد.

هذا محرم فى شريعتنا.

ـ لكننا الان فى ظروف طارئه.

- ولو !

- سوف تهلكون اذا لم تأكلوا معنا، ليس هناك طعام اخر.

ردوا عليه فى صوت واحد:

- نريد أن نهلك .

لم ييأس الاجنبى ، واصل :

- لكن الاديان جميعا، لا تقول بذلك.

- الاسلام يقول.

- لا اعــتــقــد ذلك. انا لم ادرس الإســلام . الا أنه أخــر الأديان وأشملها. لذلك لابد ان يكون افضلها. أى دين لا يعظ بهلاك الخلق.

وقال اسلامى أخر:

- العبادة اهم من الغذاء

- اسمح لى ان اقول لك، ان الغذاء اهم : كيف تعبد الله وانت جائع هزيل؟ لكى تعبد الله عبادة صحيحه يجب ان تكون صحيح البدن، قويا.

وتدخل رفيق الاسلامى المستنير:

- ايها الاخوة ، لقد وصل الخواجه الى جوهر الاسلام. وتعذر عليكم الوصول اليه: ان الله يحب المؤمن القوى، ولا يحب المؤمن الضعيف هذا حديث شريف. والضرورات تبيح المحظورات.

لحظه صمت قطعها اسلامى متحمس

- لا. انى افضل الهلاك على تناول لحم الخنزير.

ورد عليه الخواجه:

- اذا هلكت ، ياسيدى ، فمن سيعبد الله ؟ انك ان أهلكت نفسك بالجوع ، تكون قد قتلت نفسا يحرم الله قتلها. سينقص عباد الله المؤمنين واحدا.

صمت الاسلاميون. الجوع بدأ يعوى فى امعائهم، الدين والحياة يهيبان بهم ان يتسجيبوا. قال عبدالصمد:

- سنشارككم هذه الاكله المحرمه. بسبب الظروف القاهرة التى نحياها. لكن يجب ان تبعدوا رأس هذا الخنزير. فهو يذكرنى بلحمه.

******

كانت اكلات الذرة المشوية والخنزير البرى وغيره من الحيوانات اكلات سهله اهم منها الاذره الناضجه. هى التى يصنع منها رغيف الخبز. الغذاء الاساسى. كانت هذه عملية شاقه تماما: حصاد الذره. نزع كيزانه من اعوادها. تقشيره ،تحميصه. اشق من كل هذا طحنه. امر جدير بالتفكير: طحن الحبوب اللازمه لرغيف العيش، عملية شاقه. بينما طحن الشعوب واستغلالها عملية سهله

للطاحنين.

تقدمت نور باقتراح اقتبسته من حياتها فى الريف.

ـ لدى طريقتان لطحن الاذره .. الاولى الهون ندق فيه الذره بمدقه ثقيله.. ،الثانيه : الرحاية . نصنعها من الصخور الجبلية. ونثقبها. ونضع لها يدا من خشب وندبرها بايدينا لتحويل الاذره الى دقيق مجروش.

واضاف دياب طريقة ثالثه :

ـ نقطع احجارا كبيره من الجبال. ثم نحولها الى طاحونه.

احب الباشا ان يدخل على الجماعه فكاهة افتقدتها زمنا. قال :

ـ مين اللى حيدور فيها ياعم دياب؟!

ورد دياب الذى كان يتوق الى التخفف كذلك.

ـ ليه بس الاحراج ده يا اخى الباشا!

ضحك الجميع. فتت الضحكه غمامه قاتمه، القت بظلها على الجماعه. واصل دياب:

ـ لا تخف ياباشا. سيتولى هذا اصحاب السواعد القويه، والرقاب الشابه والصدور العريضه!

ضحكه اخرى اشاعت مزيدا من المرح.

دارت الطواحين والاهوان والرحى. أى درات معركة العيش

الحقيقية.

انتج رغيف الخبز. وزع على الجميع بالتساوى، كانت له فرحة خاصة. فرحة نور وزميلاتها الفلاحات به كبيرة. اسهمن فى زراعة الاذره وحصاده وطحنه وعجنه وخبزه. كن بحق ، الى جانب زملائهن الفلاحين، قائدات لمعركة الخبز قد نها الى نهايتها المنتصرة، منظر الرغيف، ،ملمسه الساخن ، احدثنا سعادة كبيرة، واثارتا لعابا غزيرا. مع ان الدقيق كان مجروشا، اعطى للرغيف قواما خشنا. احتاج للاسنان لتكمل عملية الطحن .

استقبل الجميع الرغيف استقبالا فرحا الا ابراهيم. ماذا دهاه؟ لقد سعد بالعمل البشرى، الذى سكب فيه. صنعته الايدى الكادحة التى يفخر بها ويكافح من أجلها، قادت حبيبته نور معركته باخلاص واقتدار.

لم يكن السبب ابدا، انه كاستاذ فى الجامعة، اصبح عيشه رخيا ، وخبزه طريا. لكن ذلك يرجع الى طول معاشرته لهذا الرغيف الاذره، رافقه فى المدرسة الابتدائيه، وفى مطحن الحبوب، وعزبة الباشا. سبب له عقدة لم تستطيع ايديولوجيته أن تفككها. الخبز الاذره وسيلة تمتهن بها طبقه مترفه، شعبا باسره. ،مع ذلك كان عليه ان يكبت ذكرياته. وأن يفرح بالرغيف الاذره المجروشه مع الفرحين.

الفرحه برغيف الخبز الاول، صفقت لها البطون. ثم تسربت الى الوجدانات. اقترحت نور، اقامة احتفال بيوم الرغيف. لم يكن حفل

الرغيف تعبيرا عن انتصار العمل الانساني. واقتسام ناتج العمل سواسية، بين اعضاء المجتمع فحسب. ولكن كان له مضمون أخر ، كانت الجماعه فى حاجه الى ترفيه. مرت شهور على الجماعه تعيش فى جزيرة منعزله. لا بهجة تدغدغ الروح. وتمدها بدفعه قوية للحياة والعمل.

اقيم الحفل. تهادت فى الساحه الفلاحات السمهريات. قادتهن نور كما تقودهن فى العمل فى الحقل. قدمن لوحات ريفيه حملت نسيم الوطن الى الجزيرة . فى غنائهن رقرقة الجداول. وفى تمايلهن تراقص النخيل والشمس فى الاصيل.

شارك الاجانب فى الحفل، برقصات فولكلورية من اوطانهم، كان مع بعضهم الات موسيقيه. صاحبت الموسيقى الراقصين والراقصات. علمهم المصريون الحان الرقص البلدى. زاد ارتعاش الصدور، وهز الخصور، تحولت الموسيقى الاجنبيه الى دربكة.

صفق الجميع لمفاجأة أخرى : الباشا يتقدم للرقص، الفرحة به بالغة من الجميع، كان سمينا. لكن المعتقل، والرحله ومشاقها، وحياة الجزيرة وشظفها، قد اسهمت فى أن يصبح رشيقا، رقص، كما لم يرقص الشباب، كان متدربا على الرقص كباشا. جاء من طبقة، نحتفل ترقص وتغنى، أكثر مما تعمل.

تولى اثنان من اليابانين القيام بوظيفة الكشافة. احدهما كان مدربا على تسلق الجبال، فصعد الى قممها. يراقب السماء. يرصد

الطائرات التى قد تمر فوق الجزيرة ، او على مقربه منها. ومهمة الثانى الشواطىء لعل سفينة تدفعها الامواج الى مياه الجزيرة. كانا يحملان كامرات تصوير غاية فى الدقة والحداثه. ولديهم عدسات ونظارات مكبرة. ترى الاشياء عل مسافات بعيدة.

جاء الكشافان يلهثان فرحا الى المجموعة. شاهدا سفينة صغيره على بعد كبير. التقطت صورتها العدسه الضخمه، عرضوا صورة السفينه: صغيره جدا لم يستطيعوا تمييزها: اهى سفينه للركاب ام للبضائع؟ اتكون قارب صيد ام حطام سفينه؟ ،قالوا: لوحنا بالاعلام، وصرخنا، لم يروا اعلامنا ولم يسمعونا.

بثت القصة املا فى الجماعه: الريح الطيبة جاءت بالسفينه، ابقتها بعيده عنهم. لعلها فى المرة القادمه تكون اكثر رخاء، وتدفع بها الى مقربة من الجزيرة، على ان الامل فى الإنقاذ بدأ يتخابى. لم يأت الكشافان بجديد مشجع، بل بقصص كالقصة الاولى.

استمرت الجماعه فى تنظيم حياتها: مجتمع الجزيرة لم يتطور زمانيا، طبقا لقوانين التاريخ. قطع المراحل التاريخيه فى قفزات، اختصرها بدرجة كبيرة، كان الفضل فى ذلك للمكان. اخذ الفنيون المصريون والأجانبُ فى التنقيب فى ركام المدينه. جاءوا للجماعه بانباء سعيده. عثروا على كشفين هائلين مره واحدة: وجدوا ماكينه للطحين. الجدران محطمة لكن الالات سليمه وعلى بعد امتار منها وجدوا محطة للكهرباء ومخزنا للوقود. الفرحه الاولى للاكتشاف،

انهم سياكلون رغيفا محسنا والفرحة الثانيه، ان مجتمع الجزيرة لم يعد .زراعيا فحسب، بل غدا صناعيا كذلك.

كان بلبل اللبرالى قد هزه، وزملاءه العطاء الذى بذله ابطال الانتاج الزراعى وبطلاته. كانوا يجهدون انفسهم، ،يضاعفون انتاجهم، ليعوضوا نقص قدرات الآخرين. تأثروا كذلك بتواضعهم. هم الذين يرجع لهم الفضل الاكبر فى إطعام الجميع. لامن ، ولا فخار تساءل اللبراليون، كيف فقد هذا الفريق العامل قيادة مجتمعاته عبر الزمن؟ وهم الاحق بالقيادة. كانوا ايضا مصدر الابداع الفنى. هم الذين يرفهون عن الجماعه. عجبا : المنتجون لغذاء البطون، ولغذاء الوجدان هم الكادحون، اقترح بلبل تكريم هؤلاء الابطال.

كان حفل تكريم الفلاحين، ابطال الانتاج الزراعى، رائعا. شعر الابطال بالسعادة. لم تنتفخ اوداجهم. معنى جميل واحد اثلج صدورهم : الايمان بالعمل اليدوى، تسللت قيمته من بطون الجماعه الى وجداناتها ، توج كل من نور ودياب، بطلة ، وبطلا للانتاج. لم يؤد ذلك ان يقفا وراء الانفاركخوله او مشرفين حرصا على ألا يتطور هذا المجتمع، كما تطور المجتمع الطبقى. تنشأ فيه طبقة من الوسطاء والمشرفين تبتعد عن العمل اليدوى المنتج. وتدعى امتيازت طبقية.

كرمت الجماعه كذلك عمال الصناعه.. ،اختارت رفيق المهندس

الميكايكى الاسلامى المستنير. بطلا للإنتاج الصناعى، فقد بذل جهودا فنيه عاليه وشاقه فى اصلاح الجرار، وماكينة الطحين ومحطة الكهرباء. كان يستخدم يديه وعقله فى العمل. وبهذا لم توجد التفرقه المعهوده فى المجتمع الرأسمالى بين العمل اليدوى والعمل العقلى. الكل يعمل بعقله، ويديه، ورجليه.

أما الكشافان، فلم يتحمس احد لتكريمهما، رغم انهما واصلا عملهما باصرار. حينما لم يوفقا فى كشف السفن القادمه من البحر، اتجها باجهزتهم الى السماء. وكان الاولى ان يتجها بأيديهم الى السماء، جاءا بانباء مفرحة مرعبة معا. رأيا على ارتفاع شاهق باستخدام النظارت المكبرة، جسما اشبه بالطائرة. قال احدهما : انه طيارة متطورة. لكنه لا يدرى ان كانت حربيه او مدنية . ،اكد الثانى انها صاروخ بعيد المدى. ربما يحمل رءوسا نووية !

******

انتجت محصولات طيبه، من حقول الخضروات والبطاطس

جاءت اشجار التفاح والتوت والفراولة بثمار شهية. الزراعيون الفنيون استنبتوا من جذور البنجر، المتروكه فى الارض نباتا للبنجر. اينع وأثمر، وانتج السكر يحلون به الشاى، ويصنعون به مربة التوت والفراوله والتفاح.

يوم حصاد القمح، كان يوما مشهودا. تدفق الورد فى الوجوه البرونزيه التى حرثته وبذرته. روته حبات المطر، والعرق والدمع، سنابل القمح تتراقص فى عيون الصبايا. فتحيل لونها ذهبا، أغاريد الحصاد تنطلق بلغات متعددة. الحاصدون والحاصدات، يتمايلون مع الغناء، كان الغناء فى اول الامر كوكتيلا باقه من تغريد الشعوب. ثم اخذ كل فريق يشدو باغنياته الوطنية. كانت المتعة اقليميه كونية. نعم الكل بها، فى يوم العمل الانسانى، وثمراته الجنية.

اسرعت البنات بالقمح، الى الماكينة ثم خبزته. وقدمته للجماعه خبزا قمحا طريا. ارتفع مستوى معيشة الجزيرة. اقيم للرغيف مهرجان صاخب. تثنت فيه اغصان الصبايا. ودبت فيه اقدام الرجال. لا ريب ان الرغيف الاذره حدثت له صدمة : هؤلاء الناس الناكرون للجميل!

تكاملت للجماعه مقومات وجودها :.توافر الطعام. تنتجه السواعد العامله. تقسمه سواسيه، ليس هنا فريق يخطف اللقمه من افواه الاخرين والمساكن اقيمت من حطام الدور القديمه: تدرأ الحر والقر عن سكان الجزيرة. الطائرة المعوقه قدمت البطاطين

والملايات والحشايا. ومع الوقت ، اخذ الازواج يستقلون بزوجاتهم فى مساكن خاصة، كانت هناك اتفاقية جنلتمان بعدم الإنجاب، الى ان يتبين المستقبل. وفيما يتعلق بالملابس حلت المسأله بان أخذ فائض الفريق المبسوط، ليشبع حاجة الذى لم يكن «مبسوطاً»!

كانت الأرض جواداً، تستجيب للعمل الإنسانى بمودة. والسماء سخيه بمطرها وشمسها. المطريروى الزرع تارة، والجداول تنساب رقراقة إلى الحقول مرة أخرى، المطر يغسل المنازل والشمس تجففها.

الترفيه ألوان. بقدر ما فى هذه الجماعه من اجناس، تراوح الغناء من الموال المصرى إلى الأوبرا الغربية، مروراً بالكابوكى اليابانية، رقصات الفولكلور الشعبى، جاءت من كل الدنيا: من أسوان، والشرقية، والسنغال واوربا، والصين، وأمريكا.

حينما استقرت الجماعه معيشيا، أخذت ملامح الدين تتبلور. الحق أن الأسلاميين لم يتركوا الصلاة وسط هذه المعاناة. إنما الصلاة المنظمة فى مكان عام لها بدأت، بعد أن حققت الجماعه الحد الأدنى للمعيشة، أقام الإسلاميون مصلى. فرشوها بأوراق الشجر والحشائش الجافه، تماماً كبعض مساجد القرى فى مصر، فى اليوم الثانى، أقام المسيحيون «مصلى» موازية لمصلى المسلمين، وبجواره. أحتج بعض الإسلاميين. نجح عبد الصمد، استاذ الطب الذى بذل جهداً فى علاج الجماعه، منذ هبوطهم فى الجزيرة. وها هو يبذل

جهداً فى صقل أرواحهم. نجح بمعاونة رفيق وشيرين فى إقناع الإسلاميين بسماحة الدين الإسلامى وشموله للأديان كلها. كانت الظروف مواتية لم يكن بين الركاب يهودى ! إلا أن ظاهرة طريفة حدثت: أقام الكونفوشيون والبوذيون مصلات كذلك. لحسن الحظ أنهم وجدوا مكاناً مجاوراً لمصلى المسيحيين. وبذلك تجنبوا صراعاً مع الإسلاميين كان يمكن أن يكون فاجعاً.

نشطت الجماعة كذلك فى مجال التثقيف والتعليم. وجد الفلاحون مجالا خصيباً لتنمية مداركهم التعليميه والثقافيه. فى دنيا الثقافه. تبارى الجميع فى تحليل النظم الاجتماعية. واثارت تجربة الجزيرة، مناقشات ساخنه، تناولت أثر مجتمع الجزيرة فى تطوير الديمقراطية. وفى ابراز قيمة العمل الإنسانى، فطن سكان الجزيرة إلى أن الأمتيازات التى آلت إلى الملوك والأمراء ورجال الأديان عمليات غريبة على المجتمع الإنسانى، تمت فى غفلة منه، حينما انقضت قوى الشر على الشعوب، تقهرها وتسفح عرقها، وتغتصب أرضها.

لحسن الحظ. كانت صحة أفراد الجماعة جيدة. كان الفضل فى ذلك لله وربما لبركات الدكتور عبد الصمد..«لكن لإرادة الله سببا، هذه الصحة الجيدة، سببها العمل الإنسانى، والعمل اليدوى بصفة خاصة. الباشا نفسه أصبح رشيق القد. يمسك بالفأس. ويسكب العرق. وينام ملء جفنيه، ذاب اللحم والشحم،الذى كومه الثراء على

جسـده. أصبح قلبـه يضـرب بحـرية وتخفف: مـا أجمل العـمل. علا ناجح لسموم الـترف، وفر على الألوف التى كنت انفقـها على الأطبا والدواء»

كان مجتمع الجـزيرة مجتمعاً بلا جريمة. ليس فيه ملكية خاص للأراضى والمتاجر والمصانع، ليقتتل عليـها الناس، ويسـفح الآخ من اجلها دم أخيه. حـينمـا يختـفى الأسـتغـلال تتـوارى جـرائم السـرقة والأغـتـصـاب، والحـقـد. وتتـلاشى الشـرور التى تفـتك بالمجـتمع الإنسانى.

على أن الجـزيرة، لـم تكن «اليـوتوبيـا» التى قـال بهـا الطوباويون ولاجنة اللـه فى الأرض أو فى الآخـرة. التى وعـد بهـا المتـقـون، بذل سكان الجزيـرة جهداً شـاقاً ليـهيؤا لأنـفسهم حـياة مـعقولـة.. العمل العضلى ولو إنه شذب اجسادهـم، وهذب أفكارهـم إلا أنه شاق. الحياة المريحـة حـقـاً ، لم تـتـوافـر، العـيش مـازال جـافـاً، السكنى خـشنة. الاسـتـمـتـاع بالاء العلم والتـكنولوجـيـا بعـيـد عن مـتناولـهم. العلم يقـتصـر على اصلاح العطب الذى أحـدثته الزلازل. ولايـسـتخـدم فى الأبداع الحـقيـقى والتطور الأهل والأولاد الذين تركـوهـم فى بلادهم. والوطن يتوق لعودتهم للأسهام فى يقظته. .

******

(٣٤)

شوهد عبد الصمد، الإسلامى الأصولى يجلس مع «أوربية». لم تكن جلسة عمل، البسمات والنظرات تشى عما جمع بينهما. حدث تطور ثورى فى مظهره. جاء فى اليوم التالى حالقاً لحيته. ما الذى دفعه لذلك. أهى اللحية يبللها العرق. ويغبرها تراب الحقل. وما يمكن أن تأوى من حشرات؟ أم كان ذلك بتأير الحسناء الأوربية؟ كان الرجل جزءا من ظاهرة، بدأت تغزو الجزيرة، حاول «العزاب» التقرب إلى النساء الاجنبيات. حدثت مشكلات. يمكن أن تسبب تفككا فى وحدة المجتمع. «العزاب» يعانون من الحرمان «والعكننة». المتزوجون ينعمون بزوجاتهم.

بدأ العزاب يبحثون عن وسائل لأطفاء الغريزة. أو على الأقل ترويضها النساء ـ أجنبيات ومصريات – يختلطن بالرجال دون قيد، عدا القيد الأخلاقى. الرومانس يسرى على الجداول، يتخطر فى الحقول. لكنه لايقرب من الغابات.

العزاب من الرجال يتنافسون على عدد محدود من النساء. كانت الظاهرة كونية، شملت الأوربى والأفريقى والأسيوى والأمريكى. أختفت الأديان فى هذا المجال. أسهم فى المباراة، المسلم والمسيحى والبوذى. لم تبلغ المنافسه مرحلة الأقتتال بعد، لم تستعر . كما تستعر المنافسه بين الرأسماليين فى السوق. فيجهز احدهم على

الآخر. كان التنافس مهذباً ـ أسهم فى تهذيبة ظروف العيش فى الجزيرة. وثقافة سكانها. والهدف الذى يطمحون إليه. كانت الحسان كذلك عنصراً ملطفاً للمعارك. التى دارت حولهن.

على أن المنافسة أشتدت حول سناء«المنقبة» بعد أن أسفرت عن وجهها، اكتسبت اعجاب الجميع، لكن سفورها عن عقلها، كان اكثر

الحال كانت اكثر حرارة. كان المحامى اللبرالى بلبل قد كلف بالنظر فى المنازعات بين أفراد مجتمع الجزيرة. جاء إلى لجنة الإدارة بقضية موضوعها تلك السيدة. كانت قضية دولية، اعجبت بها الاجناس جميعاً. تودد إليها أمريكى، وصينى وأوربى، وأفريقى، أسهم فى المعركة مطلقها الإسلامى. هدد كل من يقترب من زوجته «السابقة» بالقتل، قلق الناس من أجل السلام، الذى يرفرف على الجزيرة.

عقدت جلسه، على شكل محكمه، تولتها لجنة الإدارة، بدأت القضية بسؤال الصينى، قال:

ـ أحب فيها هذا الجمع بين الإيمان بالقيم الثقافيه والروحية للإنسان مندمجة فى قدرته العضلية على العمل الإنسانى، والإنتاج تؤمن بالملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وإقتسام ناتج العمل بالتساوى، لو قبلت زواجى ستجد شعباً عدده ألف ومائتا مليون نسمة، يرحبون بها أختا لهم!

سأله إبراهيم سؤالا فكها:

ـ يعنى أنت لاترى جمالها، وتكوينها الأنثوى، وتكتفى بالعناصر المعنوية.

ـ كان مجتمع الجزيرة كله حاضراً، قهقة الجميع ـ أرتبك الصينى لبرهة قصيرة، لكنه أجاب إجابة ذكية أضحكت الجمهور.

ـ لو كنت فطنت إلى كلامى، لوجدتنى قلت: إننى أهوى فيها القيم الثقافية، مندمجه فى القدره العضلية على العمل.. وما العضلات، الأمكونا أساسياً من مكونات الجمال.

شجعت الضحكة الصينى على أن يواصل:

ـ لو كان إعجابى بالمعنويات فقط لكان أمامى نحو ستمائة مليون امرأة فى الصين!

كان الأوربى فرنسيا، أزداد إيمانه بالعدل، والاشتراكيه، بعد أن انصقل ضميره فى مجتمع الجزيرة. لكنه مازال يحلم بمبادئ الثورة الفرنسية الحرية، والأخاء والمساواه، سأله رئيس الجلسه، وكان الباشا:

ـ ماهى حجتك يا «كامارادا».

ـ هذه الفتاه صورة مثلى لمبدأ الأخاء فى الثورة الفرنسية. إنها أخت حقيقية لنساء الجزيرة ورجالها. رأيتها بعينى تعاون النساء المتعبات والرجال المنهكين فى تأدية أعمالهم.، تترجم كلامكم لنا، فأسهمت فى تفاهمنا وأخائنا.

أبتسم الباشا قائلاً:

- ياكامراد، مافيش «شارم» ولا حاجه.

وأسرع الفرنسي بالإجابه.

«بيان سير» ياسيدى الرئيس. هذا كلام لايمكن قوله علنا.

(ضحكات ترن فى أرجاء القاعه) وعندما سئل الأفريقى عن أسباب تعلقه بالسيدة، أجاب:

- فيها شموخ الفراعنه - وهؤلاء أفارقه ينتمون لنا، ونفاخر بهم كان الأوربى «عضو لجنة الإدارة» عضوا فى جلسة المحكمة. سأل الأفريقى:

- جمال الفراعنه ألوان: هناك اللون «الحاتشبسوتى» واللون النفرتيتى أيهما تقصد.

اضطرب الأفريقى، ثم أسعفته إجابة مرضية:

- غادتنا ضمت اللونين معاً:

ثم جاء دور الأمريكى. وقف أمام المحكمة، يختال بقوامه الفارع وأكتافه العريضه، وقميصه المشجر.

سأله عبد الصمد، عضو الإدارة والمحكمة عن حجته فى طلب زواجها. أجابه إجابه أمريكية تقليدية صريحة:

- أعجبنى فيها هذا النقش البديع فى وجهها!

أحدثت الإجابة دهشة وإستنكاراً وضحكا: ضحك الشباب من سذاجه الرجل. الجدرى كان عقدة حياة السيدة، إلا أن مناقشتها مع نور فى الزنزانه وسفورها عن وجهها. وقيامها بالعمل اليدوى والثقافى فى الجزيرة. فكك ذلك كله العقد التى حاقت بنفسيتها، وهى تحت النقاب، لكن هذه الملاحظة الساذجه والضحكات الأكثر سذاجه نكأت جرحاً، كان قد أندمل، وقفت نور لتنقذ الموقف:

- الأمريكيون دائماً متخففون، صديقنا وجد أن الجلسة ضاحكه شاء أن يسهم فيها، لكنه لم يوفق لعله قصد أن النقش على وجهها قد امتلأ بدرر من عرقها الذى بذلته للجماعه.، فأصبح كالترتر يزين وجه العروس، تماماً كالترتر فى طرحتها.

صفق لها الجميع، زغردت بنات الريف. توجه إليها الأمريكى.. شد على يدها شاكراً. احتضنتها رفيقتها. التى يرصع وجهها الترتر.

******

العمل الإنسانى، هو القيمه العليا فى مجتمع الجزيرة. العاملون يقودون المجتمع أنتاجياً وسياسياً. الناس متساوون فى حقهم من الناتج. تسود ديمقراطيه حقيقيه. لهذا فالمجتمع يتمتع بحرية

الناتج. تسود ديمقراطيه حقيقيه. لهذا فالمجتمع يتمتع بحرية لاحدود لها. كان هذا هو حال الجزيرة إلى أن ظهرت مشكلة سناء. قبلت الجماعه حدودا للحرية مقصودا بها سلام الجماعه، وحريتها، كان بخيت الإسلامى الزوج السابق لسناء هائجاً كالثور. سيبقر بطن من يقرب من زوجته السابقه. كان التهديد حقيقياً. منعته لجنة الإدارة من حضور جلسة المناقشه حول مطلقته. وضعت حرساً عليه حتى لايقتحم قاعة الجلسه.

شغلت مشكلة بخيت تفكير اللجنة، عقدت له جلسه خاصة، لبحث أمره، استعانت اللجنه برفيق ونور ليكونا عضوين فيها. رأس اللجنه عبد الصمد سأل زميله:

- ما الذى يغضبك؟

- هذه المرأة، هى زوجتى، لا أحد يستطيع الأقتراب منها.

- ماذا تريد؟

- أريد إعادتها إلى عصمتى

- أعلم أن طلاقها بائن

- لا إنه طلاق رجعى.

تدخلت السيده المطلقه:

- لقد طلقنى ثلاثاً وآخر مرة مضت عليها المدة الشرعية. وحتى لو كان الطلاق رجعياً، فلن أعود إليه - حاول بخيت الإسلامى أ

على يمينه ويساره شابين قويين منعاه من المحاوله. بعد أن هدأ نوعاً قال:

- أنا مصر على أستردادها، كان الطلاق بائنا أو رجعياً، ولن تمنعنى من ذلك اية قوة.

قال رئيس اللجنة:

- شريعة الله سمحاء. تستند على العقل، ولاتستند على العضلات.

- هذه امرأتى وإنى لآخذها.

- إذا ثبت إنها ليست امرأتك، أخذك لها، يعتبر اغتصاباً وزنا.

- لايهمنى.

- على الرغم من أن هذا المجتمع لايطبق الشريعة الإسلاميه، إنما سأقترح تطبيقها عليك، لو ثبتت عليك التهمة.

تدخلت نور محتجة:

- ياسيادة الرئيس، حتى ولو كانت امرأته، لايستطيع الأقتراب منها غصباً. نحن فى مجتمع أحرار، المرأة لها حقوق الرجل تماماً. لانريد أن نطبق شريعة الغاب هنا. إننى أطلب أن تذهبوا إلى الغابة، هناك ترون أن الحيوان لايغتصب بعضه بعضاً. الذكر لايقرب الأنثى إلا برغبتها، وفى وقت معين!

أحدث تدخل نور توتراً. أسرع إبراهيم لتهدئة الموقف. قال:

أود أن أسأل الزميل رفيق عن رأيه فى المشكله.

قال رفيق:

- بعد الأستماع إلى الطرفين فيما يتعلق بظروف الطلاق، أرى أن الطلاق بائن. ولارجعة فيه.

أيده عبد الصمد، رئيس الجلسه. وأصدرت المحكمة حكماً بذلك. ثار بخيت ثورة عارمه على الحكم. وصاح بأعلى صوته.

- هذا حكم باطل.

حاول إبراهيم أن يهدئ من حدة غضبه.

- يا أخى المسلم. لقد أمضيت وقتاً طويلاً من عمرك تؤمن بالإسلام، فى القرآن قاعدة كريمة، يجب علينا إتباعها، قال جل وعلا: «وأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بأحسان».

ورد عليه:

- يقول القرآن كذلك.... و«أضربوهن..»

ورد عليه عبد الصمد:

- ذلك إذا كن فى عصمة الأزواج، وهى الآن ليست فى عصمتك.

وقالت نور.

- يا أخى أنت حتما لاتقبل أن تعاشر امرأة لاتحبك.

- ومن أدراك إنهــا لاتحـــبنى؟ أخـــرجــوا أنتم من المـوضـــوع، وسأسترجعها.

وقفت سناء صارخه:

- أنا لا أحبه. الحق إننى أبغضه.

بخيت يراجع نفسـه. استـعـرض الموقف كله. لم يفـقـد الأمل فى إسـتـعـادة زوجـتـه السـابقـه، يحـبـهـا حبـاً جـمـا: امـرأة مـتـفـوقـه فى بكالوريوس الآداب، كـانت أمة له. فرض عليـها النقـاب، قبلتـه طائعه. الأن تثور على هذه العبوديه. وعلى أمتهانها كإنسانه. لكن رغبته فى حيـازتها مرة أخـرى، مازالت مـضـطربه فى كيانه، دفـعتـه لأن يسـقط سقطة فادحة. قال فجأة لرئيس الجسله:

- حتى لو كان الطلاق بائنا، فأنا لى حق عليها.

- أى حق؟

- الشـريعـه تقول إنـنى يمكن أن اسـتردها، بعـد أن ينكحـهـا رجل أخر.

سـاد صـمت فى سـاحة المحكمـة. كـانت الدهشـه بالغـه، إذ يتـضـع الرجل إلى هذه الدرجة.

قـالت السـيـدة: أنـا لست سلعـة أو حـيـوانـاً لينكحنـى رجل، ثم يسـتـردنى أخـر. أرجـو أن تحـتـفظ بكرامـتـك. التى تسـتـمـدها من الإسلام. أنا لن أقبلك زوجاً مرة أخرى.

يبدو أن المنقبه السابقه أضمرت أمراً. كتبت ورقه صغيرة إلى نور، عضو المحكمة. وكتبت ورقه أخرى إلى شاب يسارى، جالس فى الساحة مع الجمهور كانت عيناه تبرقان طوال الجلسه وأعصابه مشدوده. عندما تلقت نور الورقه. وقرأتها، قالت للزوج السابق.

- هل أنت واثق من أن مطلقتك ستعود إليك، بعد أن يعقد عليها زوج آخر

أجاب بخيت:

- كل الثقه.

وقف الشاب اليسارى فارعاً وسيماً، قائلاً:

- أنا أقبل أن أكون الزوج «الترانزيت» «المحلل»!

تأمله الزوج السابق، ثارت شكوكه: شاب ممتشق، مفتول العضلات، الشمس والعمل أكسب وجهه خمرية نابضة. أعترض قائلاً.

- لا أنا الذى سأختار الزوج المؤقت.

وقفت سناء وقالت فى صوت علت نغمته، وأرتفعت حدته:

- أختيار الزوج المحلل من حقى أنا. إنه سينكحنى أنا، ولن ينكحك أنت!

ضجت القاعة بالضحك، غمر العرق بخيت. لم يستطع أن يرد

على منطق مطلقته. وقال رئيس اللجنة:

ـ أختيار الزوج يتوقف على رضاء السيدة:

وقفت سناء وقالت فى هدوء مؤثر:

ـ أنا اختار هذا الشاب «زوجاً لى»

كانت هناك خلفيه رومانسيه بين الشاب اليسارى، والمرأة. نشأت فى أحضان العمل، بللها العرق. وصقلها الفكر المشترك. والبطوله التى خلعها المجتمع على المرأة المجدرة، تطورت المنقبه تطوراً جذرياً، بعد أن تحررت من النقاب، وأصبح وجه سناء سنى لمجتمع الجزيرة. كانت هناك كذلك الغريزه البشرية التى لاتقهر، شحذتها جزيرة عزلاء جرداء من النساء. لم يكن زواجاً ترانزيت. ولم يكن الشاب «محللا» . كان زواجاً دائماً، ربطه الحب والفكر برباط وثيق.

******

الأمريكيون لايشغفون بأحتكار رأس المال فحسب، يمتد احتكارهم إلى النساء. كان هناك فريق آخر من الحسان، مصدرا للقلق فى مجتمع الجزيرة. مضيفات الطائرة! امريكيات باسقات القد، ساهمات الطرف، يرتدين يونيفورم أزرق. قطع من السماء تختلن على الأرض. الملابس محبوكه على الأجساد، كأنهن ممثلات

من هوليوود، أو موديلات من باريس لعرض الأزياء. أحدثن فى مجتمع الجزيرة أنعاشاً، بقدر ما أحدثن أحباطاً، جمالهن السارى ينعش الجميع، حتى لو تفرجوا عليه دون أن يتناولوه. لكن العزاب لايشبعهم إلا تناوله.

حاول بعضهم غزل هؤلاء الغيد، تمنعن وتعالين. كن محجوزات. يحتكرهم قائد الطائرة ومساعدوه. ثار العزاب. خلطوا بين الغريزه والفكر! المجتمع الذى نعيش فيه يقوم على المساواه، ويرفض الاحتكار. نحن نملك وسائل الأنتاج ملكية مشتركه. ولانقبل فى هذا المجتمع أحتكار الإنسان وخاصة النساء!

تطور الأمر لينذر بشر. أعجب شاب مصرى بمضيفة. ملكت عليه لبه، كانت المضيفه سخية. لم تبخل عليه «بنتف» من الحب، حبته بها عيونها وضحكاتها، كانت تتخطر على شاطئ الجزيره إلى جواره.. فاجأهما، أمريكى «شحط» من طاقم الطائرة. كانت صديقته. ممنوع الأقتراب منها.

خلع الأمريكى سترته. وجه قبضته القوية نحو وجه المصرى. لولا أن الفتاة وقفت بينهما، حاول الأمريكى استخدام وسائل رعاة البقر رغم إنه طيار! حينما اعترضت الفتاة حركاته هدأ، لايريد أغضابها، المرأة الأمريكية قوية فى علاقاتها بالرجل، أزواج أو غير أزواج.

******

(٣٥)

الرأسماليه تتعقب الاشتراكيه، أينما تكون. تنغص عليها عيشها وتخرب قيمها، حتى فى ذلك المجتمع الصغير المتواضع، مجتمع

الحياة. العدل والمساواه اللذان يسودانه أوغرا صدرها. لاتطيق أن يمتلك الناس وسائل عيشهم ملكيه مشتركه. ويلغوا استغلال الإنسان للإنسان، أرسلت الرأسماليه رسلها إلى الجزيرة.

كان دياب وصحبه يروون حقل البطاطس. لاحظوا أن الماء بين خطوط البطاطس يبرق كالشرائط الفضيه. ويعكس ضوء الشمس. سطعت على سطح الماء ألوان كألوان قزح، ظاهرة غريبه. قال لهم جيولوجى يعمل معهم فى الحقل: هذا زيت، أغلب الظن إنه بترول، صفق العاملون فى الحقل، هذه طاقه تملكها الجماعه. قوة تنمية للجزيرة. داعبت هاجسات الثراء أذهان البعض.

لم تكن فرحة العاملين قد تخافتت بعد. شاهدوا موكباً غريباً يتجه نحوهم، رجلا يرتدى حلة بيضاء حريرية. تتوهج تحت إشعة الشمس، ونظارة سوداء كبيرة. وقبعة يتميز بها رجال الأعمال، يرافقهم رجل الأمن المسلح. كان الرجل صاحب شركات كبرى فى أمريكا. «كابتن» الطائرة أبلغ لجنة الإدارة إنه من طاقم الطائرة. أراد أن يبعده عن العمل اليدوى. تقبلت الجماعه هذا الوضع، منظر

الرجل وسنه يوحيان بأنه لايعمل فى الطائرة. لاتريد أن تختصم الطائرين. عساهم يبذلون جهداً لأصلاح الطائرة.

أقترب الرجل ورفاقه من دياب، عانقه، لايدرى دياب لذلك سببا. إنه حتى لم يحادث الرجل من قبل. قال له أريد أن أحادثك على أنفراد. أزدادت دهشته. قال الرجل له، فيما يشبه الهمس:

ـ أنا سأعطيك مائة آلاف دولار!

بلغ استغراب دياب مداه ـ سأله.

ـ لماذا؟!

ـ أنت أكتشفت حقلاً للبترول سيدر ثروة كبيرة.

ـ هذه الثورة ملك للجماعه كلها.

ـ يامستر دياب. دعك من الجماعه. هذه ثروة أعرضها عليك، لاتضيعها.

ـ بأى حق أنفرد بهذا المبلغ؟

ـ أنت الذى أكتشفت هذا البئر، وهذا جزاء مجهودك.

ـ أنا لا أقبل هذا الكلام.

ظن الأمريكى أنه يعتبر المبلغ صغيراً. زاد منه:

ـ مائتا ألف دولار!

ـ ياعم سام!

- ربع مليون دولار أنتهز الفرصة!

إصرار الأمريكى، وحماسه، فتحاً أمام دياب آفاقاً، لم يكن جابها من قبل. أراد أن يسير أغوار ممثل الراسماليه. قال له:

- ياخواجه. هذه ثروة المجتمع الذى تكون على هذه الجزيرة. كيف ننفرد بها، أنا وأنت، ونضيع حقوق الناس؟

- دعك من الحقوق. الحق هو الأمر الواقع. أنت أكتشفت البترول. وتبيعه لى. هذا عقد قانونى.

- ما الذى شرعه؟

- أنا وأنت.

- لكن للجماعه قوانينها وحقوقها. العاملون.. لهم فى الأكتشاف نصيب وسيبلغون الجماعه. وهم كثرة. لن تمكنك من وضع يدك على هذه الثروة.

- أنا أعددت للأمر عدته.

- كيف؟

- الطياران، اللذان يصحبانى، قويان يجيدان فنون الكاراتيه والملاكمه والكاوبوى، وضابط الأمن مسلح. وسيمدهما بمسدسين. وأنا معى مسدس. سنستولى على البئر بالقوة. ومن يعترض سيكون نصيبه القتل.

ذهل دياب، تخبطت المعانى فى رأسه. فلسفة الملكية الفردية، والجشع دعت الرجل، لأن يعد خطة كامله، لاحتكار ثروة الجزيرة، وسفح دم أفرادها، الأمريكى يستخدم الرشوة والأفساد والسرقه والقتل، للأستيلاء على الأرض ومافيها. المجتمع الذى سكب عرقه لأقامته يوشك أن يتقوض، إلا أنه وجد جواباً لموضوع كان يحيره: كيف سيطر الأقطاعيون والرأسماليون على الأرض، وما فى جوفها وعلى سطحها من ثروات؟

تملكته حيرة شديده، لو أطلق العنان لنظرته لفتك بالرجل وصحبه، لكن هذا لايخدم قضيته. هم كذلك أقوياء مسلحون. وهو لايريد أن يحدث شرخاً فى المجتمع الذى كان من طلائع بناته. حتى لورفض ستملى هذه العصابه عليه وعلى الجماعه ماتريد بالسلاح. لهذا لجأ إلى مكر الفلاح المصرى المعروف. قال للرجل قولا جعله يثق به، وطمئن إليه.

- أخذ ربع مليون دولار و ٥٪ من الأرباح.

وأسرع الخواجه:

- قبلت.

كان دياب قد أضمر أمرا قال للأمريكيين أنه سيتحدث مع زملائه على إنفراد يريد أن يتفق معهم على عدم تبليغ الجماعة. وإنه سيغدق عليهم بالعطايا، لكنه أتفق مع زملائه على خطة مختلفة كان الفلاحون الزارعون أشداء وزع الأدوار عليهم:

ـ انتما الأثنين عليكما تكتيف الرجل الكبير، وشد وثاقه. وكل أثنين من الجماعه يتكفلان بواحد من الثلاثه الآخرين، شباب الفلاحين يستخدمون «الشيلان» التى يحزمون بها أوساطهم. شباب المدينة يستخدمون أحزمة البنطلونات، الثلاثه الباقون يراقبون العملية. ويكونون مستعدين بفئوسهم. استخدموا أيدى الفؤوس الخشبيه فى الضرب على راس من يقاوم، أقول الأيدى الخشبية لا حديد الفؤوس، تنزعون منهم السلاح فى أول الهجمة تقذفون بالسلاح إلى. سأعطى إشارة من يدى قائلا: ياالله!

عند مانطق دياب بالكلمة كان الأربعه الأمريكيون. مشدودا وثاقهم أخذوا بغته. لم تستطيع فنون الكارتيه، «والكاوبوى» والطيران، أن تتغلب على مكر الفلاح المصرى.

سيقت «عصابة الأربعة»، إلى اللجنة الإدارية. أذرعهم مربوطه خلف ظهورهم. ذهل الجميع. ذعر إبراهيم ذعرا واضحاً، خشى أن تكون هذه بقيه من بقايا البطولات الفردية. التى تتماثل لدياب، لعل الصقل الثورى، لم يستطع أن يستل بذوراً منها غاصت فى أعماقه، سأله:

ـ ماذا حدث؟

قص عليهم دياب القصة كلها. بذل خالد جهده لتهدئته، وقال:

ـ لنكتف بما حدث للآخوة الأمريكيين، عليهم أن يسلموا ما معهم من أسلحة، ولنفتش الطائرة حتى نجمع السلاح والذخيرة.

السـلاح لايسـتـخِدم إلا لمصـلحة الجـمـاعـة، وبقـرار من لجنة الإدارة. يتولى قائد الطائرة سجن هؤلاء الأربعة لمدة أسبوع في الطائرة.

******

(٣٦)

لم يكن عمل الطيارين الأمريكيه توتريا كله. لم يقتصروا على الاستحواذ على المضيفات، وإدخال الأحتكار في مجتمع مضاد للأحتكار. ولم يسهموا مع رجل الأعمال الأمريكي في محاولة تملك حقل البترول بالقوة فحسب، بل كانوا يقومون بعمل «سري» أخر. كان عملاً جليلاً، لم يتحدثوا عنه، ارادوا أن يجعلوه مفاجأة للجماعة.

بذلوا جهودا كبيرة لأصلاح الطائرة. هناك قطعة تألفه في المحرك، استعانوا بالمصريين، لهم تفوق خاص في أبتكار قطع الغيار، لكن العبقرية المصرية لم تسعفهم، كانت القطعة بالغة التعقيد.

فريق أخر يحاول إصلاح جهاز اللاسلكي. كان اكثر حظا. أفلح فني مصري في تصميم قطعة الغيار اللازمة لذلك لجهاز. لم يستطع الفريق أن يخفي فرحته، أخذوا الجهاز إلى المجموعة. كانت

مجتمعه فى لقاءمن لقاءاتها، عندما أعلن الخبر، أنطلق الصياح والغناء والرقص، كانت خروشة، الجهاز نغما حلوا فى آذانهم. كانت املا، وحياة، ووصالا بالعالم.

لكن الفنيين لم يتمكنوا من رصد اية محطه. أنقلبت الخروشة نشازاً وإحباطاً قال إبراهيم الذى اخذ على عاتقه مسئولية الروح المعنوية للجماعة: لاتنسوا، أنتم تعرفون أن موجات اللاسلكى، يعترضها الجو والرياح والأمطار. زملاؤكم الفنيون، سيتصلون لكم بالعالم الخارجى قريباً.

فى اليوم التالى، كان الجو صحواً، والشمس صديقه، والرياح رفيقه. عكف اللاسلكيون على جهازهم، يستنطقونه، نطق بلغات لايعرفها الفنيون.

زاد إصرارهم على إنطاقه بلغه مفهومه. صوت باهت نحيل. تسمع كلماته المتقطعه من بعيد. كانت بالإنجليزيه. التقط الجهاز كذلك عبارة. كانت غالية جداً «هنا سيدنى» إذن نحن فى رحاب إستراليا.

كان الاستماع إلى موجة «سيدنى» كالندي. بلل القلوب العطشى للأوطان، ورطبالشوق المحتدم للأهل. لم تكن الفرحة لأن الجماعة تكره الجزيرة. على العكس. صاغ جهدهم منها مجتمعا، يقوم على العمل والمساواة. أنتفت فيه الطبقات، والأحقاد والإستغلال والجريمة، ربما كانت الفرحة أو بعهضا، إنهم يتوقون للنضال فى

أوطانهم، وإقامة مجتمع يسوده الحب، كمجتمع الجزيرة.

التقاط موجة سيدنى كان بدءا طيبا لمسيرة لاسلكية اكثر نجاحاً، عكف الفنيون على استجلاء الموجه، على مدى الأربعه والعشرين ساعة، فى فترة نقاء الأرسال، عرفوا طول الموجه، وذبذبتها، اشترك المتخصصون فى اللاسلكى والجغرافيا والأرصاد فى حسبة فنية. وصلوا إلى أن المسافة بين سدنى والجزيرة تبلغ نحو الفى كيلو مترا.

ولكن أين موقعهم من استراليا. هل هم فى شمالها؟ أمر مستبعد فجو الجزيرة ليس استوائيا، كاندونيسيا، وليسوا فى الجنوب والا هبت عليهم النسمات الثلجية من القطب الجنوبى، وهم ليسوا كذلك فى غرب القارة فسيدنى على ساحلها الشرقى. استعان الفنيون بطول موجة الأرسال من سيدنى لتوجيه رساله إلى اى جهاز استقبال فيها.

مضت أيام دون أن يتلقط جهاز الطائرة شيئاً.. اخيراً ظهر صوت نحيل يرد على رسالتهم. صوت صبى فى نحو الخامسه عشرة. الصوت خافت متقطع، يذهب ويجئ مع الرياح. ثم سكت الصوت فجأة. ركز الفنيون على هذه الذبذبه طول الوقت.

فى ومضه من ومضات الأمل جاء صوت الصبى نقياً جلياً منقذاً.

ـ من أنتم؟

ـ نحن ركـاب طائرة أمـريكيـه. هبطت أضطرارياً فى جـزيرة فى المحيط الباسفيكى.

ـ ما أسم الجزيرة.

ـ لاندرى

ـ كم عددكم

ـ ثمانون

ـ صفو لى المغامرة بالتفصيل.

كان الصبى متـخـفـفاً سـعـيداً، باكتـشـاف جهـازه لهـذه الطائرة وركابها، لعب هذا الأنتـصـار الفنى برأسه. أراد أن ينعم بأكتـشـافه فى حديث طويل. ركاب الطائرة يريدون إنقـاذا، يخشـون لو أطال الصبى حـديثه السـعـيد، أن ينقلب الجـو، ويتعـذر الأتصال. رجـوه أن يذهب إلى قـسم بولـيس ويطلـب حـمله لأنقـاذهم. وأن يبلـغ السـفـارة الأمـريكيه أو القنصلية: ونحن نشكرك، وسنحكى لـك بالتفـصـيل عن طريق الجهاز، المغامرة التى وقعنا فيها.

كان الـصبى على مـسـتـوى المسئولية. يريد أن يفـاخر اقـرانه بأنه أنقذ طائرة كبيرة. على متنها ثمانون راكباً.

قال للبوليس:

ـ التقط جهازى اللاسلكى رسالة اسـتغاثه من طائرة معطوبه فى جزيرة فى المحيط الهادى.

بانت على وجه رجل البوليس كل المعانى المشتركه. التى تطبع رجل البوليس فى كل مكان: استخفاف بالصبى، الشك فى روايته: أقصوصة خياليه يؤلفها ولد مراهق، يريد أن يثبت قيامه بعمل بطولى. أكد الغلام حكايته.

أصر على أن يصدقه رجل الشرطه، وأن يتخذ اجراء سريعاً لأنقاذ هؤلاء الناس. تقاعس رجل الشرطة، هدده الغلام:

- إن لم تتخذ إجراء وتبلغ السلطات، والسفارة الأمريكية، سأتصل أنا بها، واخبرها، بأننى ابلغتكم ولم تتحركوا. تحرك رجل الشرطه، بدأت عملية الإنقاذ. تواصل الفنيون على الجانبين لاسلكيا. وصفت للمنقذين ملامح الجزيرة بدقه: طوبوغرافيتها، بركانها الخامد، النباتات، الغابات، الجبال، المدينة المدمره، وصل المنقذون اخيراً. جزيرة منعزله من جزر المحيط الهادى. بعيدة تماماً عن مسار السفن والطائرات جميعاً.

******

حين جاء يوم الرحيل عن الجزيرة امتزجت دموع بدموع. فريق من السكان تآلف مع حياة الجزيرة وبساطتها. لعب التآخى بين أعضائها برؤوسهم. ملأ العدل والمساواة قلوبهم. عاشوا فى مجتمع لاطبقات فيه ولاجريمه. ينتمى الجميع إلى طبقه واحده هى طبقة الإنسان، إنهمرت دموعهم لتركهم الجزيرة، المجتمع الذى تعلموا فيه الحب، وعشقوا العمل. لكن دموعاً أخرى سالت. تتوق إلى الوطن والأهل تتشوق إلى ارض اخرى. مازال الأمل يدفعهم إلى إقامة مجتمع عليها يتماثل ومجتمع الجزيرة.

قبل ان يرتحلوا عن الجزيرة قبلوا أرضها.

علم السفير المصرى من الجرائد أن معظم ركاب الطائرة من المصريين. استقبلهم، ألقى فيهم خطبة! لكنه اقام لهم حفلاً. أموال الشعب المصرى تنفقها السفارات على حفلات مترفه للوسط الدبلوماسى.، هذه المره تنفق علي فريق يبحث عن مجتمع أفضل. لحسن حظهم لم يعرف السفير هويتهم السياسية.

طار الرحالة الاجتماعيون من سدنى إلى القاهرة. عندما هبطوا من سلم الطائرة، ولمسوا ثرى مصر الطاهر. خروا سجدا، قبلوا أرض الوطن. لعل شفاههم قد حملت إلى الوطن رسالة من الجزيرة. هذه القبله كانت تجديداً للعهد بالنضال لإقامة مجتمع يكرم الإنسان فيه.

******

(٣٧)

كان الرحالة قد عقدوا فى سدنى اجتماعاً. بلوروا فيه تجاربهم التى استمدوها من الرحلة. ركزوا على النقاط موضوع الأتفاق النقطة التى حققت فيها الرحلة انتصاراً باهراً هى الديمقراطية.. أجمع الكل على أن يخوضوا فى سبيلها كفاحاً منظماً مصراً. كان هناك كسب آخر: الجانب الاقتصادى الاجتماعى للديمقراطية، حدث تفاهم ملحوظ على هذا الجانب الإساسى: الكل يقول بالغاء استغلال الإنسان للإنسان.

أطفأ الرحالة الشوق إلى الولد والأهل. ثم ذهبوا الى منظماتهم عقدت اجتماعات ساخنه. روى الرحالة فيها مغامرتهم الاجتماعيه حول العالم افاضوا فى تجربتهم فى مجتمع الجزيرة.. تجارب ثلاث شكلت وجداناتهم المعاناه والألم المشترك فى المعتقل، الرفقة فى رحلة البحث عن مجتمع أفضل النضال والعرق المسكوب فى سبيل العيش فى مجتمع الجزيرة.

إنطلقت الفرق السياسية فى أرجاء البلاد، تبشر بالأتفاق الوطنى الجديد تدعوا لحكم ديمقراطى صحيح، تسيطر علية الجماهير، تلقف الشعب الدعوة. كان تواقاً إلى الحرية، متعطشاً لمجتمع أفضل هذا الحماس الجماهيرى، أصاب القوى المضادة للشعب برعب شديد. تجمعوا لوقف هذا المد الشعبى، حدثت لقاءات بين هذة القوى

الرجعية والرأسمالية، والدينية المتطرفة، إنضم إليهم الباشا، الذى أشترك فى تمويل رحلة البحث عن مجتمع أفضل! لكن الزحف الشعبى أجتاح كل القوى المضادة، كانت مجموعات الشعب الكادح، والشباب الوطنى منبثة فى كل مكان.

جنود الجيش، ينثرون الورود على الجماهير، بدلا ن ضربهم بالرصاص، عرباتهم المصفحة تتزين بأعلام الوطن، وسنابل القمح!

أجريت إنتخابات.... غريب أمر هذا الشعب، يصمت طويلاً. فإذا ما تحرك وتكلم نطق تقدما وعدلا وحرية، أعطى الشعب لأبنائة أصواتاً، تتفق مع مايبذلونه من كدح لبناء الوطن، وحسب نسبتهم العددية. وكأنه رسم خريطة اجتماعيه سياسية دقيقة، لممثليه الحقيقيين: حظيت مجموعات الشعب الكادح، بعماله، وفلاحيه، ومثقفيه، بالأغلبية الكبرى من الأصوات، ونالت القوى الوطنية الأخرى أصوات تتمشى مع جهودها وإنتماءاتها للجماهير.